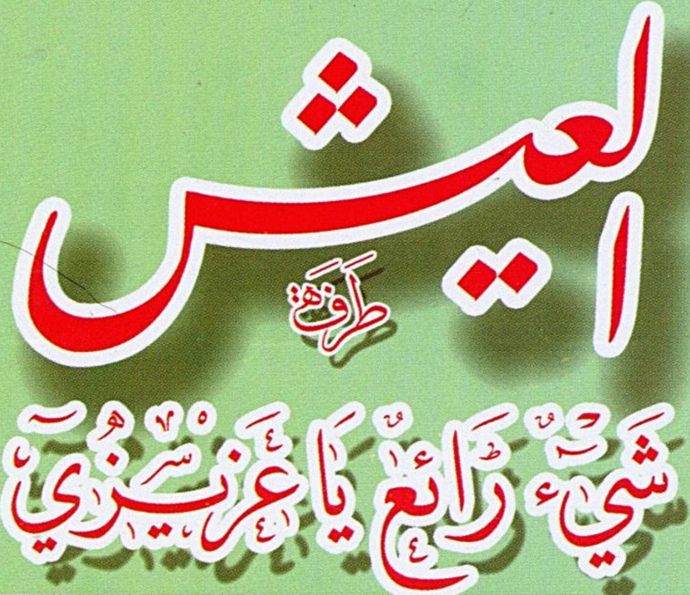
ناظم حكمت



ترجمة: نزيه الشوفي

دار الحقائق

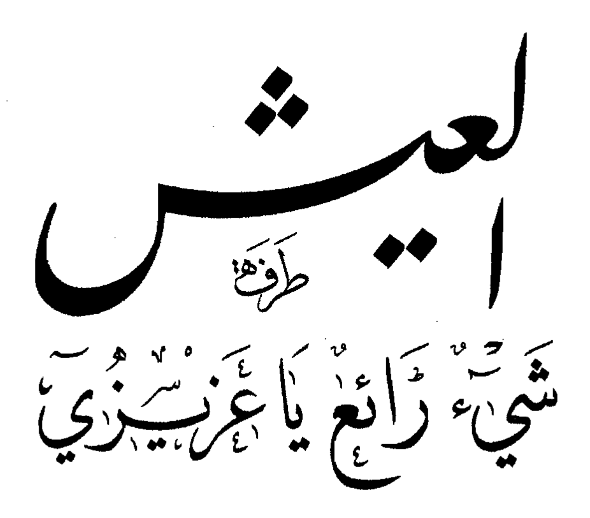
العيش

طَرفَةٌ

شَيءٌ رَائِعٌ يا عَزِيزِي



ناظم حكمت



رواية

ترجمة: نزيه الشوفي



- عنوان الكتاب: **العيش شيء رائع يا عزيزي/ رواية**

- تأليف: **ناظم حكمت**

- ترجمة: **نزيه الشوفي**

- تصميم الغلاف: **طرفة عبد الرحمن**

- **رقم الإيداع: ٩٧٨٥٢ / ٨**

- الناشر: **دار الحقائق**

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية – حمص – بناء نقابة المعلمين – مقابل الساعة الجديدة – هاتف : ٢٤٧٨٩٣٧

مقدمة الطبعة الأولى

ناظم حكمت والرواية

فرغ الشاعر العالمي البارز ناظم بن حكمت ناظم بك، من كتابة روايته قبيل وفاته عام ١٩٦٣. وقد جاءت هذه الرواية ناطقة باسمه تترجم حياته، وتحكي خصوصيات كان قد أخفاها عن المقربين والأصدقاء.. ولتتحدث عن كفاحه السياسي، وتضاريس حياته.. عن فرحه.. وحزنه... فكانت سيرة ذاتية تصور نشاطه السياسي – الأيديولوجي والاجتماعي والعاطفي.

وقد أسرّ بفكرة الرواية لصديقه الرسام الباريسي – التركي الأصل- "عابدين دينو". ثم حمل المسوّدة معه إلى باريس بعد أن وضع لها عنواناً" أي المرافئ تعبر هذه السفينة بآلاف الشرعة". وعند قراءة النص من قبل الأصدقاء الباريسيين أقروا بأن العنوان طويل، وأن هناك فراغات لا بد من إملائها من قبل المؤلف نفسه.

وفي ربيع عام ١٩٦٣، أي قبل وفاته بشهور، أرسل النص، منقحاً، إلى باريس واضعاً له عنواناً جديداً: " العيش شيء رائع يا عزيزي".

وصدرت الرواية من قبل الناشرين الفرنسيين تحمل عنواناً مغايراً للنص، ولفكر ناظم حكمت أيضاً.. أي أعطوها عنواناً يسيء لهذا الرجل دون ذنب اقترفه، وهو " الرومانطقيون" علماً بأن الرومانطيقية إياها فسرها ناظم حكمت في الرواية " على أنها صحراء قاحلة" وصدرت الرواية خالية من هذا التفسير، وكذلك من عبارات دقيقة حساسة مثل احتلال فلسطين، ورأي الكاتب بالدين والله واللغة العربية التي أحبها وعبر عن تعلمه لها- عن طريق القرآن الكريم- والتفعيلة والتنوين وما شابه.. هذه ناحية.

وكذلك فهناك بعض التصرفات التي قام بها عدد من الكتاب، عرباً وعالميين، أوضحها وكشف الكاتب عن حقيقتها في الرواية التي بين أيدينا... فمثلاً حكى

ناظم حكمت عن قصة زواجه بناريمان – منور– علـــى لســـان " إسماعيـــل في الرواية، وابنته المتبناة " أمينة" فقد كتب كتابه على ناريمان وهـــو في الســـجن، وبقيت ناريمان – منور– حتى عام ١٩٦٣ زوجته الشرعية، لكن عندما ألحـــت على زوجها بالذهاب إليه في موسكو رفض!.. وتمكنت منور من الهـــرب مـــن البوليس التركي إلى بلغاريا، ومن هناك أبرقت له بقدومها فأجاب بالتريـــث.. وبقيت في صوفيا فترة ثم ارتحلت إلى وارسو، وبقيت فيها حتى أبلغت بوفاتـــه. فطارت إلى موسكو لتشترك في تشييع جنازة زوجها وحبيبها، وهناك شـــكلت لجنة تأبين (كان في عضويتها زميلة له من القطر العربي السوري– الدكتورة ن. س التي روت لي بعض المشاهد، وقد أبلغت " آنوشكا" حبيبة ناظم في الرواية، والتي رفض أن يتزوجها– بقدوم زوجته فارتعدت وجلاً من لقائها...وحينمـــا وصلت منور أرض مطار موسكو عانقت آنوشكا بحرارة وضمتها إلى صـــدرها وهي تشد من عزيمتها ماسحة الدموع من محجريها، شاكرة لها رعايتها زوجهـــا طيلة ثلاثين عاماً، وهي تقول:" ... لقد ترك ناظم حكمت لنا الكثير مما يجعلنا، نحن الاثنتين، نفخر به، وهذا ما يخفف مصابنا... أختاه!.. إننا أرملتان لعبقـــري واحد، وأمينتان على خلف واحد أحبه زوجنا، فهدئي من روعك فإن الحـــب يقوى حينما يأتي من بعيد...".

هذا ولم يعلل ناظم حكمت سبب رفضه لقدوم زوجته ورفيقـــة دربـــه إلى موسكو، فبقيت تعيش، هي الأخرى، في منفاها في وارسو مدرسة للغة الفرنسية هناك حتى الآن... ربما كان له موقف ما، لكن سره لم يزل خفياً على الجميـــع، يعيبه عليه بعض الأصدقاء والزملاء.

شيء عن الكاتب

عاش ناظم حكمت في عش أسري أرستقراطي، لوالد هو حكمت ناظم باشا، مدير إدارة في وزارة الخارجية التركية، وواحد من البارزين في حزب الاتحاد والترقي. وفي هذه الأسرة السياسية تعرف ناظم حكمت إلى أبرز قادة الحركة العمالية التركية. وتلقن الماركسية على يد قائد هذه الحركة" عثمان علياناك" في الرواية.

وكانت والدته " عايشة جليل خانم" رسامة مشهورة، وإحدى نساء المجتمع التركي الجليلات.

بدأ ناظم حكمت نشاطه السياسي عام ١٩١٨ مسؤولاً في تحرير جريدة الحزب الشيوعي التركي " المطرقة والمنجل". ثم واحداً من قادة الحزب، وقد لوحق وسجن مدة لا تقل عن أربعة عشر عاماً، حتى تمكن من الفرار إلى باطوم في روسيا، ومنها إلى موسكو، وهناك عاش قضايا بلده من بعيد. وقد وصف فراره هذا " بالهزيمة الجبانة". ولم ينفصل ناظم عن نشاطه السياسي الفعال، فقد كان واحداً من البارزين في الشؤون الثقافية التركية لدى الكمنتيرن.

وأوضح الكاتب- في روايته- كثيراً من الأمور الأيديولوجية والسياسية مثل:

- القصور النظري والتنظيمي لدى قادة الحركات العمالية والتحررية في تلك الفترة. والنهج الكلاسيكي في قيادة عملية الصراع الطبقي والسياسي ضد سلطة أتاتورك، وموقف الانتهازيين والمتخاذلين آنئذ.

- وسلط الأضواء على الفكرة القومية وبشكل فريد ومسوغ، وبقلم واحد من أعضاء إحدى الحركات التحررية في الشرق.

- وحدد وجهة نظره حول النظام في الاتحاد السوفييتي، فاختار أبرز النواحي التي دار حولها جدل في العالم... ويمكن القول هنا بأن ناظم حكمت يبقى أدق من كتب عن النظام السوفييتي، وهذا واضح في الرواية.

أما من الناحية العاطفية، فلا شك أنه خير من صور طريقة التعامل بين المرأة الشرقية والرجل الشرقي سواء في علاقتهما أم في الشكل الاندفاعي المتأصل في بيئة إنسان المجتمعات الشرقية. فصور الحب في روايته، مغايراً بسلوكه وفهمه لهذه الظاهرة الإنسانية في المجتمعات الأرستقراطية، وهو ابن أرستقراطي كبير.

فعاش حباً "بروليتارياً" إن صح التعبير..وأتاحت المرأة لديه فرصة فذة للحل الحقيقي، وولدت امرأته عملاقة، مفكرة خلاقة، ترتبط بالرجل بعلاقة إنسانية لا علاقة الشبق والمتعة الآنية. فأغنى قلبه بالحب الحقيقي، وكذلك عقله ولسانه.. مثلما أغنى تجربة الرجل والمرأة.. وهذا واضح في تعابيره الصريحة المنفتحة في روايته التي هي كنز من كنوز المكتبة العالمية الثمينة.

ومن أعمال ناظم حكمت التي لم تصدر بالعربية بعد:

- مجموعة قصائد درامية/ ٣٨٥ بيتاً مهداة لعام ١٩٢٩ في موسكو/ أي مهداة لنجاح الخطة الاقتصادية (النيب) في الاتحاد السوفييتي.

-الجوكندا وسي- يا- و/ وهو زميله الصيني الذي سكن معه في دار الطلبة. وقصته واردة في الرواية، ومنافسه على (آنوشكا).

- رسالة إلى تارانتا بابو ١٩٣٩.

- قصائد من الساعة ٢١ إلى ٢٢.

- وهل كان هناك إيفان إيفانوفيتش حقاً؟

- ويوسف يلتصق / وقد ورد ذكر يوسف في الرواية/ لكن هناك من يقول إن يوسف هو ستالين.

- قصائد إلى فلاديمير إيليتش.

وهناك رسائل إلى زوجته، نقوم الآن بجمعها لنشرها. ولعلنا نوفق بنقلها إلى القارئ العربي عندما يتسنى لنا ذلك.

وفي الوقت الذي كثرت فيه المؤلفات والكتابات حول رواية ناظم حكمت وقبل أن تصدر بالعربية، في محاولة من هؤلاء الكتاب الصعود في درجات سلم

الشهرة على حساب ناظم حكمت، ننوه إلى أن هناك كثيرا من التصـــرفات في حياة حكمت ومواقفه ومؤلفاته، أجلت حقيقتها هذه الرواية.

وفي النهاية لنوضح أمراً جديراً بالتنويه، وهو أن الأسلوب الذي اتبعه ناظم حكمت في روايته هو جديد ومفاجئ للقارئ، فمثلاً نلقاه يتحدث عن الجورة، مكان المطبعة السرية لجريدة الحزب قرب أزمير، فينتقل بنا دون أية إشـــارة أو تمهيد أو حتى دون فاصلة، إلى موسكو فوراً.. أو يعود بنا إلى أزمير أو الأناضول وهكذا. وقد تصرفنا هنا، بأن وضعنا فاصلة كي لا نربك القارئ بهذه القفزات المفاجئة. ثم أن ناظم حكمت حكى في روايته، التي هي سيرة ذاتية تنطق باسمـــه وتترجم حياته، حكى هذه السيرة الذاتية على لسان أحمد وإسماعيـــل اللـــذين يصوران شخصية ناظم حكمت.. وهـــذه طريقـــة " المحاكـــاة الداخليـــة" أو الازدواجية التي عرف بها الكاتب– أي ناظم وناظم الآخـــر– كمـــا يبـــدو في الرواية أسلوبه السردي مرة على شكل المخاطب، ومرة بضـــمير الغائـــب أو المتكلم وهكذا..

حينما انتهيت من ترجمة رواية ناظم حكمت هذه، قمت بالتعرف إلى حيـــاة ناظم حكمت عن قرب...فزرت بلدته " بولو" الواقعة في إحدى قمـــم جبـــال طوروس، وتبعد مئة وتسعين كيلومتراً عن أنقرة جنوبـــاً.. وهنـــاك اســـتقبلت المعلومات الأكيدة عن حياة الكاتب من جوانبها المتعددة. كما أتيح لي الـــنص الأساسي مع مقارنته بالطبعة الإنكليزية، وقـــد آزرتـــني مترجمـــة الروايـــة إلى اليوغسلافية، وهي تركية الأصل يوغسلافية الجنسية.. ولعل هذه الترجمة هـــي أقرب الترجمات إلى أسلوب ناظم حكمت وصياغته الأدبية لأنها حافظت علـــى الجوهر تماماً بشكل دقيق، ويرجع الفضل في ذلك إلى أصـــدقاء الكاتـــب وإلى الجهد المبذول من أجل أن تكون أمينة ومحافظة على أسلوب الكاتب.. ورأيـــت أنه لا بد من تسجيل بعض التوضيحات للأسماء والأماكن والأحداث التي ذكرها ناظم حكمت في روايته والتي يعرفها رفاقه وزملاؤه. فيما يجهلها القارئ العربي–

الذي تاق ناظم حكمت إلى تعريفه بأدبه- وخاصة أن كثيرا من هذه الجوانب أتت مشوهة أو متصرفاً بها من قبل الكتّاب العرب الذين " ألّفوا" عن ناظم حكمت، وبالتحديد فيما يخص حياته السياسية والاجتماعية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كنت قد أودعت المخطوطة عام ١٩٨٢ دار الفارابي في بيروت، وبعد الموافقة المبدئية على نشرها، وعقب ستة شهور ونيف أعيدت المخطوطة إلي، وبعدها بقليل صدرت طبعة دار الفارابي مفعمة بالركاكة وأخطاء المخطوطة (المسودة) التي كنت أعطيتها للدار المذكورة، وباسم آخر وعنوان مجتهد به مع حذف المقدمة... والقصد من هذا هو أن هذه الرواية قد استغلت للتجارة والربح وليس لتقديم عمل جيد لكاتب عظيم. وإذا كان هذا هو الحال الكتاب والترجمة في الوطن العربي، فإن أعمالاً مثل هذه الرواية وكاتبها لا يسمحان لجشع الجشعين أن تمر فعلتهم بسهولة...

وقد عرضت النص المدقق على كثير من الزملاء المجتهدين والمختصين، ومنهم الأستاذ فارس زرزور الذي غمرني باهتمامه، وجميع الزملاء الذين ساهموا في تنقية هذا العمل الروائي الثمين، مشكورين..

ويبقى أن أهدي هذا العمل لكاتب عظيم من كتاب القرن الحالي ومناضل عرفته ساحة النضال السياسي والأدبي جاداً متفانياً ومخلصاً، وإلى كل مكافح من أجل الحرية ولقمة الخبز النقية وضوء القمر الصافي.. وإلى أبناء وطني المكافحين ضد الإمبريالية والصهيونية، وإلى الصامدين في المعتقلات والزنزانات، يطمحون إلى حفنة من الشمس وقليل من الهواء.. وإلى أطفال الحجارة، أبطال فلسطين، وإلى من علمني إرادة العيش والمحبة " أبو صخر" وإلى كل القراء الأعزاء.

نزيه الشوفي

مقدمة الطبعة الثانية

نشرت رواية ناظم حكمت بالروسية أولاً بعنوان " رومانتيكا" بعد وفاته، ثم نشرت بعنوان " رومانطيقيون" بالفرنسية، ونشرت لأول مرة بالتركيــة عـام ١٩٦٧ تحت عنوان " العيش شيء رائع يا عزيزي".

Yasamak Guzel sey

وقد روى فيها قصة نضال وحياة الطليعة الاشتراكية التركية التي اضطلعت بمسؤولية تنوير الواقع التركي العاصف بالأحداث والتطورات والاحـتلالات. وقد وقعت حوادث هذه الرواية بين تركيا والاتحاد السوفييتي، نظراً لأن بطلها كان دائم السفر على هذه الطريق متنقلاً بين وطنه والمنفى منذ عام ١٩٢٣ حتى وفاته عام ١٩٦٣، وسنجد في هذه الرواية سجلاً كاملاً لنضال هذه الطليعـة بأسمائها الرمزية التي سنفك رموزها ونسميها بأسمائها الحقيقية.

- ولد ناظم حكمت في السابع من شباط (فبراير) عام ١٩٠٢ بمدينـة صولون التراقية، لأسرة أرستقراطية. كان أبوه" حكمت ناظم باشـا" مـديراً للمطبوعات وقنصلاً في وزارة الخارجية العثمانية في هامبورغ. وكان جده" ناظم باشا" أحد الولاة الأتراك. وفي المدرسة الابتدائية في " بولو" أكمل تعليمه الأولي. وتعرف على حقيقة الوضع والحياة الأناضولية ومعاناة فلاحـي هـذا الإقلـيم وشقائهم.. وتعرف على صديقه هناك هو " فالا نور الدين" فتمكنا من معرفـة المعاناة الشعبية فيها، بعد أن انضما إلى جماعة السبارتاكيين الترك / التي تألفـت مع بداية الحرب العالمية الأولى، من الاشتراكيين الديموقراطيين اليساريين الألمان "فريق "**international**" ليبكنخت ولوكسمبورغ/ وكوّنوا أحـد أهـم روافد الاشتراكية التركية، ثم ما لبثوا أن التقوا مع الماركسيين بقيادة مصـطفى صبحي ليؤسسوا الحزب الشيوعي التركي - (الذي اغتيل عام ١٩٢٨ - ومعه أربعة عشر قيادياً من الحزب، في ظروف غامضة، أماط ناظم حكمت القناع عن قصة اغتيالهم في الرواية).

• تابع دراسته الثانوية في إستانبول عـــام ١٩١٩، والتحـــق بالمدرســـة البحرية العسكرية، ثم ما لبث أن فصل منها بسبب نشاطه السياسي.

وفي عام ١٩٢٠ أخذ ينشر قصائده الثورية / الشقيقتان- أســـير الأربعـــين حرامياً / وصف فيهما حال الوطن بعد سقوط مدينتي " أورنـــة وبورصـــة أو بروصة" فانطلق صوته " الذي يشكو الظلم في صبر وسينتظر الفـــرج في غـــير تعجيل"، وانداح على أرض تركيا يوقظ عصراً جديداً. وفي نفس العام قرر ترك منـــزل والده، والالتحاق بجبهة الحرب القومية " حرب الاستقلال" ضد الحلفاء بقيادة أتاتورك. فكتب رسالة إلى والده يعلمه فيها التحاقه بالنضال، خلّفها على الطاولة في قصر والده، وغادر مع زميله " فالا نور الدين". وبعد عودتـــه مـــن الحرب منحه كمال أتاتورك بعثة للدراسة في موسكو في كلية " علم الاجتماع" في جامعة كوتيف" جامعة طلاب شعوب الشرق". عاد من موسكو عام ١٩٢٤ بعد إعلان الجمهورية في تركيا. وهناك تأثر بالشاعر الروسي (ماياكوفســـكي ويسنين). وفي هذا العام انتسب إلى الحزب الشيوعي التركي، بعد عودته مـــن موسكو مباشرة.. ولم يقم طويلاً حتى أودع السجن بتهمة نشر ديـــوان شـــعر ثوري، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، لكنه فر من الســـجن بمســـاعدة رفاقه.. وهنا دخلت حياة ناظم حكمت منحىً جديداً ذا ثلاثية متناغمة: الشعر ، السجن، المنفى...وقد ظل يمارس هذه الثلاثية ويكتب المقالات باسم " أورخان سليم" ويكسب عيشه منها ومن العمل في المطابع والصحف "خفية" وكذلك من ترجمة الأفلام السينمائية في استوديو للأفلام، كان فيه يقاوم النص الفاشي، وكل ما يسيء أو يشوه فهم الشعب.

في العام ١٩٢٥ وبعد صدور الحكم عليه هاجر إلى روسيا، هرباً من البوليس الذي يلاحقه لفراره من الحكم القاضي بتهمة موجهة إليه حول الاشـــتراك في حوادث الأكراد. وظل في روسيا حتى عام ١٩٢٨، أقام خلالهـــا في بـــاكو في أذربيجان. بعد عودته إلى تركيا في أواخر ١٩٢٨ كثّف نشاطه السياسي مـــن

خلال المجلات التي ساهم في تحريرها resimli ay – المصـــورة الشـــهرية – Orak ve cekis المطرقة والمنجل و" aydinlik"

في ١٩٢٩ نشر ديوانه الشهير ٨٣٥ سطراً- sater ٨٣٥ مجّد فيه الثورة التركية وأبطالها. ثم تلاه عدد من الأعمال التي نشرها تباعاً حتى عـــام ١٩٢٩ الجوكندة وسي- يا- أو jokand ile si-ya-u. يحكي فيه قصة صـــديقه الصيني /سياوسان/ أو أمي سياو/ التقى به في جامعة موسكو. وفي نفس العـــام سمع أن سياو قد قتل لنشاطه ضد حكومة شاي كان تشيك. فكتب ملحمته التي يمجد فيها نضال آسيا. لكن في عام ١٩٥٧ التقى وجهاً لوجـــه مـــع صـــديقه الصيني في مؤتمر طشقند لكتاب آسيا وإفريقية.. وفي الرواية ذكر ملخص لقصته مع سياو... وبعدها نشر عن حادثة انتحار مناضل هندي benerci بينيرجي، ثم عن فنان مناضل حبشي قتله موسوليني لعدائه للفاشية، بعد أن أرســـل لـــه صديقه من إيطاليا قصة إعدامه وأمنيته بأن تعلم زوجته به، فكتب ملحمته باسم، المناضل الحبشي " هنري باربوس" وجاء بعنوان " رسائل إلى تارانتا بابو" في هذه الأشعار التي صور فيها نضالات شعوب آسيا وإفريقية، كان النفس الإنســـاني العميق يتأجج بالدعوة إلى رص الصفوف والخنادق ضد الإمبرياليـــة العالميـــة، ويبشر بمستقبل مشرق لكل شعوب الأرض، ومنها الأمة العربية التي وجـــدت حضورها في قصائده:

أصرخ..

أصرخ..

أصرخ..

أدعو إلى صهر الرصاص..

ستتحول إلى رماد بصوتك يا هذا

وأنت تحترق..

" كثير هو الحزن.. وما من معين للقلوب الخرساء"..

ثقيل هو الهواء كالرصاص..

- لأحترق..

وأتحول إلى رماد..

إن لم أحترق أنا،

وتحترق أنت

ولحترق جميعاً

فكيف يبدد النور الظلام؟...

الهواء يحبل مثل التراب

الهواء ثقيل مثل الرصاص.

أصرخ... أصرخ... وأدعو لصهر الرصاص.

وعن ثوار مدريد دافع عن صمودهم في قصيدته " عند أبـــواب مدريـــد" وكشف عسف وبطش فرانكو بعد استيلائه على مدريد.

وفي ملحمته " لماذا قتل بينيرجي نفسه" يصف ناظم حكمـــت الانتـــهازيين وطرائقهم الملتوية المتعددة، وتعتبر هذه الملحمة تمهيداً لعمله الروائـــي.. إذ إن شعره وما كلله به من رمزية كوسيلة للنفاذ من أعين الرقابـــة، كـــان تتوزعـــه نـــزعات الفانتازيا والرومانسية.. وقد ضاق الشعر بأفكاره ذرعـــاً، فلجـــأ إلى الرواية التي جاءت سرداً للماضي وسجلاً للحقائق، سواء عن الحزب ورفاقه أم عن الانتهازية وكرامته حول هذه الحقائق، فربطهـــا كلـــها بالحاضـــر وبشـــر بالمستقبل... وظل ينادي بالعيش الرائع وهو حبـــيس الجـــدران والشـــبابيك الحديدية، أو حبيس الذبحة الصدرية. وقد عاب على الثوري الانتحـــار/ بـــأن الثوري لا يحق له الانتحار/ في بينيرجي- وفي الرواية صور الانتهازي، صـــديقه فالا نور الدين وجماعة السبارتاكيين بمشهد للقاء مع عمه " شكري بك" الـــذي انقلب عليه أتاتورك، فامتهن الاحتراف السياسي... وفي هذا المشهد صور ناظم حكمت قصة خروجه من الحزب بعد الانشقاق الذي حصـــل، فركـــز علـــى

الانتهازية ومنهم شكري بك، وعثمان زميله في السجن وشـقيق " ناريمـان" زوجته.

وناريمان، التي أسماها ذات مرة، " منور" هي " بيراييه هانم"...

وكذلك رشيد الجاسوس وغيرهم من الذين وردت أسمـاؤهم في فصـول الرواية الأولى... أي خلال " الخطوط" الأولى، والتي بدأها بـالخط السـادس، وأنهاها بالخط التاسع والعشرين، أي حتى عام ١٩٢٩، ثم أضاف إليها خطوطاً جديدة متفرقة، تمتد من عام ١٩٢٩ حتى الخمسينيات إلى النهاية " ضيوفي".

بعد عام ١٩٣٨ بدأت مرحلة جديدة من حياة ناظم حكمت، فقد ألقـي القبض عليه في ١٩٣٨/٣/٢٣، وأودع السـجن وقـدم لمحكمـة البـوليس العسكري وحكم عليه (بتهمة نشر دعاية شيوعية في الجيش) بالسجن ثمانيـة وعشرين عاماً. اعترف في محاكماته بأنه: "شيوعي من شعره إلى أخمص قدميه". ونظراً لأن الدستور التركي حدد أعلى فترة للسجن فقد أمضى من حكمه ثلاثة عشر عاماً في السجن أي لعام ١٩٥٠. وكانت أخصب فتـرة لإنتاجـه الأدبي والسياسي، وأكثرها اختماراً للأفكار، تمترست فيها كل وسائله الأدبية.

ونجد في الرواية سجلاً كاملاً لهذه الفترة.. ونجد صورة زوجته "بيراييه هانم " وقصة زواجه منها في السجن. وكذلك والدته التي سقطت ميتـة في إحـدى زياراتها له في السجن بين قدمي السجان " بورصالي"... ووالدته" جليلة خـانم" الرسامة الفنانة كانت تمتلك مذهباً في الرسم مغايراً لمذهبه، وقد ناقشها ذات مرة حول هذا الموضوع بالقول: " أماه.. ليس الرسم مجرد محاكاة للجمال، ولكنـه إضافة الفنان شيئاً إلى هذه الطبيعة" ثم ثار الجدل بينهما فنهض نـاظم وجـاء بلوحاته ليريها لأمه، وبقي الجدل مفتوحاً دون الوصول إلى اتفاق.. وأنهى نقاشه معها ببعض قصائده– داخل السجن.

وفي السجن كتب ناظم حكمت عدة أعمال منـها: حـرب الاسـتقلال التركية– konsi igneler turkis، وصف في هذه الملحمـة الأبطـال

المجهولين في هذه الحرب، وقد جاء ذكر الفلاح الخيال المجهول في الرواية، الثائر ضد اليونان وحلفائهم الغزاة لتركيا. وقد كان لزوجته إسهام في مادة الملحمة. وكذلك حكاية حب التي استمدها من أسطورة شرقية قديمة.. وكذلك قصائده و"مشاهد البشر من بلادي" التي أصبحت أغاني السجناء نزلاء سجن بروصة.. ومسرحيته " قصة يوسف الصديق" و" رسائل السجن" وسمفونية موسكو و" القرن العشرون".

في فترة السجن كان نزلاء من الوطن العربي، منهم فايق برجاوي الذي وصف لقاءه بناظم حكمت يقول:" علمت أن ناظم حكمت نزيل هذا السجن.. لكن وجودي في الزنزانة لا يسمح لي برؤيته... وذات مرة طلبت صحفاً أسوة بالسجناء الآخرين، لكن السجان لم يرد علي.. وذات يوم دخلت من النافذة الصغيرة رزمة جرايد.. كان على طرف إحداها مكتوب بالرصاص قرأها وإذ ملاحظة من ناظم حكمت يرص بها موقفي ويقول:" يا رفيق قلوبنا معك ونتابع أخبارك... اطمئن".. مذيلة بتوقيع ناظم حكمت وعند ذلك اشتدت قواي ومرت غيمة القلق التي لفتني.. كان ناظم يبتسم لكل النزلاء... في باحة السجن يلعب بالكرة مع الزملاء.. يدغدغ الجميع.. ويناقش كل فرد.. وحدثني ذات مرة عن قاتل أهله جميعهم.. فيما أنه أخذ يجهش بالبكاء لأذى أحدهم لقطته! وبقي يبكي وينوح حتى قضى.. فقال ناظم حكمت :" أي قلوب لهؤلاء القتلة؟!" يقتل أهله ولا يهتز له رمش.. لكنه يلوب على قطة داس أحدهم عليها؟؟!.

وفي عام ١٩٥٠ خرج من السجن وفر إلى موسكو عن طريق بلغاريا... وهناك أقام ثلاثة عشر عاماً متتالية. تنقل بين عواصم عديدة، ودلف إلى القاهرة في عام ١٩٦٢ ضمن أعضاء مؤتمر كتاب آسيا وإفريقيا، وقد التقاه محمد البخاري الذي ترجم له " قصائد من المنفى" فذكر : " أنه لم يكن هناك من هو أكثر منه حركة والتصاقاً بالناس، ونهماً لمعرفة الغير وانفعالاتهم، وحين أردته أن

يدلف قليلا إلى مسجد السلطان قلاوون أمسك بيدي ليخرجني متعجلا، وهـو يقول لي:" معذرة يا أخي إن تركيا مليئة بمئات من هذه المساجد والأبنية هـي الأبنية في كل العالم، إن ما أريده هو أن أستمع إلى نبضات الناس، إلى كلماهم، أن أتبين وميض بسماهم، وهنا لمح طفلين يتهامسان إلى جانب زوجته الشـقراء الروسية، فتورد وجهه والحنى يحدثهما متوسلاً أن أترجم له كل مـا يقولونـه" والروسية هذه هي " آنوشكا" في الرواية أو " ڤـيرا توليكوفا" ولم يتزوجها، بل بقيت صديقته، ورفض الزواج من غير ابنة بلده بيراييه التي هجرهـا ورفـض قدومها إلى موسكو بعد هربها من البوليس التركي إلى صوفيا.

في عام ١٩٥٦، وأثناء العدوان الثلاثي على مصر كتب قصيدته " بورسعيد" التي صور فيها الجندي – المقاتل- المجهول ابن الشعب المصري " منصور" وقد حصلنا عليها من بين رسائله إلى زوجته وإن كانت قد ترجمت ١٩٧١ من قبل محمد البخاري، فقد ترجمناها قبل قراءة الترجمة السابقة لها:

"بور سعيد"

هناك لا تحصى السفن
هناك تدنو الشمس، دون سحب
في بور سعيد،
كان منصور يطوف الشوارع،
يكسب العيش بمسح الأحذية..
حافي القدمين
ورأسه حليق
عمره عشر سنين.
* * *
منصور النحيل الأسمر
كنواة البلح،

ساحر الصوت ينشد

دوماً دون انقطاع

تراتيل لم تبرح فمه:

"ليل يا عين"

أشعلوا النيران لتشتعل بور سعيد..

مات منصور فيها،

ورأيت اليوم وجهه،

كان في صحيفة

وسط الموتى صغيراً

مستدق الصغر،

"ليل يا عين

كنواة البلح...".

وهناك قصيدة مهداة إلى قلعة حلب، مرسلة إلى زوجته، وقد ذكرت أنه لا يوجد مدينة تركية بهذا الاسم، لكن كان لزوجها أصدقاء من حلب السورية، في السجن وخارجه. وربما أنه كان يتحدث باسم واحد منهم قضى في السجن لم ير مدينته. يقول:

"يوم نودع باب القلعة

في رحلتنا لملاقاة الموت..

سنلقي آخر نظرات فوق المدينة ونقول لها:

..في أرجائك يا بلدتنا لم نستمتع بالضحكات

لكنا قدّمنا ما نملك كي نمنحك الفرحة...

كي تمضي نحو المستقبل في خطوات متصلة،

نتركك اليوم بقلب راضٍ

في فمنا طعم الخبز المختلط بعرق الكدح

وبأنفسنا الحسرة لفراق ضيائك.

ها نحن أتينا ومضينا

فلتبقي في فرح يا بلدة حلب".

وقد كتب أراغون في هذه القصيدة / بعد أن أُفسح له المجال للكتابة في مجلتي "الآداب الفرنسية، وأوربا/ يقول: "في هذه القصيدة تحية للشعب من رجل يواجه الموت لم يستطع رؤية وطنه ثانية".. وإذا كان الكثيرون يصدمهم الواقع المر، فيفقدون شجاعتهم في معركة لا يثقون فيها بالنصر، أو بالظفر ببعض ثمارها، فإنه يقول للمدينة التي أحب لحظة موته: "فلتبقي في فرح يا بلدة حلب". فهو من الأشخاص القليلين الذين لا تتطلب شجاعتهم وتضحياتهم وآلامهم ثمناً غير سعادة الآخرين، حتى لو كانت بعيدة لم ترها الأعين بعد. إنه يقدم آلام لياليه وأيامه ثمناً لمدينة سعيدة بعد وفاته".

أراغون كان يعتقد بأن "حلب" بلدة في تركيا.

وكتب عنه سارتر ذات مرة يقول: "كم أود أن أذكر بعظمة هذا الرجل وقدرته التي لا تحد. عرفته مريضاً، وأذهلتني رغبته في الحياة، وإرادته في الصمود، أما ما أذهلني حقاً، هو نفاذه الساحر الحزين.. هذا الرجل الذي نجح أخيراً في الإفلات من الموت ومن التهديد المستمر باغتياله لم يسترح في أواخر حياته كما يود أن يفعل كثير من الناس، بل كان يدرك أن شيئاً ما لم ينته، وإن عليه مواصلة الكفاح بعنف ضد العدو في الخارج، وفي رفق وأخوة ضد أخطار أصدقائه في الداخل وفي اللحظات التي كان يناضل فيها من أجل السلام، ضد الإمبريالية والفاشية. كما حذر من أخطاء البيروقراطية في موسكو". – وقد ذكر ذلك في روايته من خلال مشهد ذي الأصابع الستة– ويتابع سارتر: "وحافظ على مصطلحيه: انتظام المحارب، ونقد الكاتب، ولعب تأزمه الدائم بينهما دوراً في توهين قواه التي تركها له السجن... كان يؤمن أنه يجب إعادة صياغة الإنسان وإصلاح النفس إلى جانب محاربة العدو... فلم يغفل ولم ينم. والواقع أن الموت

كان نومه الأخير، غير أن أعمال الرجل الذي عاش ساهراً دائماً تأخذ مكانه وتسهر بعده عليكم".

لقد اعتمل في وجدان ناظم حكمت كل ما يدور في عالمنا من مآسي وما يزخر به من ثورات، استنشق أنفاس البشر في قاراقم، تعهد رفع أصواقم، ودغدغ أطفالهم ورفع راية الكفاح الدائم من أجل الحرية والاشتراكية حتى فاضت روحه في الثالث من تموز ١٩٦٣، تاركاً لقرائه تراثاً ثورياً وإنسانياً ثرّاً خلد ذكراه إلى الأبد...

لقد كان ناظم حكمت يتمنى أن يرى أعماله مترجمة إلى اللغة التي أحبها وتاق لمعرفتها– لغتنا العربية– التي أجاد في فك ألغاز المصادر متعددة المعاني– مثل كلمة عذاب، وأصلها عذب– كما ورد في الرواية...

وبعد كل هذه السنوات نحقق أمنية ذلك الرجل الذي قدم لنا عصارة أفكاره ومواقفه الإنسانية ونبل الثائر الذي التزم بقضايا الإنسان وحريته منذ نعومة الأظفار حتى أسلم روحه إلى السماء..

أما بالنسبة لرسائله وكتاباته التي لم تترجم بعد، فقد وصلنا بعضها ولما تكتمل بعد.. وعندما يتحقق ذلك سنضعها بين يدي القارئ العربي العزيز....

وفي نهاية هذه المقدمة، أتمنى أن أكون قد قدمت للقارئ عملاً جديراً بالاهتمام والوقوف عنده..

نزيه الشوفي

بيروت ١٩٨٨

مدخل

دخلا قاعة الدار؛ الخادمة ثم أحمد. كانت القاعة المرصعة بـالمرمر واسـعة، مظلمة، وباردة. لكن لماذا تسير هذه الفتاة على رؤوس أصابع قدميها؟ هل لأن في المنـزل مريضاً ما؟ "لم أفهم لماذا تسير هذه الفتاة هكذا.. أم هل تخـاف أن توقظ أحداً، لا سمح الله، هنا؟." وأخذ أحمد يطرطق في مشيته وكأنه يفعل ذلك عن قصد..

ثم دخلا إلى صالون ضخم، كان أشد ظلمة من القاعة.

– السيد يرجوك أن تنتظره هنا قليلاً. لأنهم يتغذون.

أرخى أحمد نفسه على مقعد مزركش من القماش الثمين. "لا أدري ما تحت الستارة: لقد رصع الخشب بالذهب، كتلك التي توجد في منـزل جدي علـى البحر في أوسكودار".

أما الجدار الأيمن فهو من الزجاج الشفاف المقطع.. "إني أحس بالجوع". وقد زادت قرقعة السكاكين والملاعق من شدة الجوع لدى أحمد.

"وعلى اليسار خزانة من خشب الزان وفيها درج، اثنان، ثلاثـة، أربعـة، خمسة: خمسة أدراج. ومرآة كبيرة، أرى عيني فيها منفتحـتين تـارة، وتـارة مغمضتين. أفرك أنفي. وشاربي الثخينين.. ولم أبالغ أو أزدري نفسي إذا قلـت بأنهما ثخينان كالحبل– لم لا أتوقف عن الفرك، يا للقرود؟!"

– أهلاً وسهلاً، يا أحمد، يا ولدي.

نهض أحمد.

– وبك، يا عم.

إن السيد شكري نحيف، طويل وأشيب.

آخر مرة التقى فيها السيد شكري، زوج عمته، كانت قبل عامين في شـتاء ١٩٢٣ في موسكو، وشكري، حينما جلب صفقة سجاد من موسكو، والله يعلم لماذا قبض عليه هناك، أعلن أن له قريباً هو أحمد الذي كان آنئذٍ طالباً هناك.

وذات مساء، وعند الساعة السابعة اتصلوا هاتفياً بأحمد من قسم البوليس:

"- نعم إنه قريبي، هكذا أجبتهم، وإنه واحد من قدامى الاتحاديين[1]، وليس عميلاً أو جاسوساً. كلا، أنا لا أعتقد ذلك. بل أستطيع أن أجزم بذلك..".

وبعد ساعة من الزمن اقتادوا شكري بك إلى غرفة أحمد. - اقترضت نقوداً. وجهزت طاولة كانت عامرة بالمأكولات والكافيار الأسود والفودكا. فشـــرب شكري- بك وأكل حتى ارتوى:

- "يا أحمد، يا ولدي، لن أنسى لك ذلك المعروف إلى يوم مماتي". هذا ما قاله لي.

- كيف حالك يا صغيري أحمد؟

- شكراً على السؤال، يا عمتي، فأنا بخير..

العمة جميلة هي دوماً حلوة، ولو كان الجن يتزوجون، وإذا كانت أنثى الجن تملك الجمال، فسيكون لها نفس جمال العمة جميلة.

لقد كنت معجباً منذ نعومة أظافري بالعمة جميلة. فهي، حتى اليوم، تحكـــي كيف كانت تحممني. عندما كنت في الثالثة من عمري كانت تقودني إلى الحمام الكائن في دار جدي على البحر في أوسكودار وتضعني بين فخـــذيها، وتفـــرك لي... إنني أخجل الآن عندما أتذكر ذلك. "شكري- بك" يسعل...

- لعله من العيب أن أسألك ما الذي يجري الآن في أزمير يا أحمد؟

- لقد اعتقدت بأنني أستطيع أن أجد في أزمير عملاً يا عمي. أي عمل... إذ لم أتمكن من الحصول على أي عمل في إستانبول.

/وهنا أي بعد ساعة هذا الطلب، بدأ شكري- بك يسعل.. وأنا عارف بمـــا سيقوله/.

---

[1] - أي أعضاء حزب الاتحاد والترقي، والذي عرف في أوربا على أنه حزب الشباب الأتراك. وقد كانوا منظمين للثورة التركية عام ١٩٠٨.

– بالفعل، يا أحمد، يا ولدي، لم أنسَ لك جميلك..– وقام بحركة لم أكن أتوقعها البتة، اتجه إلى النافذة، وأشار إليّ بإصبعه فنهضت إليه، وأزاح الستارة قليلاً. فبدا الشارع من خلال أغصان المانغا وسور الحديقة.

– انظر ذلك الشخص الجالس القرفصاء في الزاوية المحاذية، على هيئة الشحاذ. إنه يناوب هنا، قذر، يراقبني، إنهم لا يدعون عمك ينعم بالهدوء، يا أحمد. فانفض يديك من السياسة إنها مضنية. وعد إلى إستانبول، يا أحمد، يا ولدي. وإذا لم يكن بحوزتك نقود للعودة، فسأعطيك... فأنا مدين لك في موسكو.

– لدي نقود.

– لقد منعوا جريدتكم من الصدور، أليس كذلك؟

– أجل، لم تعد تصدر.

– وهل بدؤوا باعتقال رفاقكم؟

– كلا.

– وصورتك لدى قسم البوليس هنا بالطبع؟

– لا أعتقد.

– بل لديهم، لديهم، وإذا علموا بأنك عندي فسيعدموننا نحن الاثنين. وسيسجنون جماعتك، بكاملهم وأنا سأمثل أمام محكمة الأمن القومي. أجل سيعتقلونني. وستكون التهمة– انتفاضة الأكراد، التهمة التي لفقها مصطفى كمال ليعيد محكمة الأمن القومي إلى سابق عهدها، وليعيد عصمت أينون إلى الحكم مرة أخرى، ذاك الوقح من دون كل زملائه. وسيستغلون الفرصة كي يعتقلونا، نحن المؤمنين بحزب الاتحاد والترقي. لماذا؟ تلك هي مشيئة عضو الحزب الذي يتسلم منصباً، هذه هي السياسة يا ولدي. أي عندما ينحرف الشخص عن الحزب يبدأ بتصفية رفاقه الشرفاء والمؤمنين بمبادئ الحزب. لذا سيعتقلني مصطفى كمال، سيعتقلني على أية حال وهو ينتظر أن أقوم بأية حركة، أو أية خطوة عدائية، ومهما كانت صغيرة..

خرج أحمد، ولما وصل البوابة، ولمعت الشمس في عينيه، اتجه يسارا كي لا يمر بجانب الشحاذ الجالس في الزاوية. "– وهل هذا الشخص جاسوس فعلاً؟ أم أن شكري قد اختلق هذه اللعبة ليتخلص مني؟..".

أخذ أحمد ينـــزلق من على المنحدر. ولم يكـــن هنـــاك إلا دفء الشـــمس الساطعة على أشجار المنغوليا والأزهار والآجر وأزقة أزمـــير الـــتي تنتـــهي إلى خليجها.. "– لكن من أين الدخول إلى هذا الخليج الموحش؟ ومن أين تخـــرج البواخر إلى عرض البحر؟" في هذه المياه ألقى الأســـطول الإغريقـــي مراســـيه ١٩١٩. وعلى هذا الساحل، وبأمر من الإنكليز نـــزلت قـــوات اليونـــان إلى أراضي الأناضول، وقت حصاد الشعير والقمح، أي وقت القيظ عام ١٩٢٢. وقد لقيت القوات اليونانية عمليات صد قاسية لدحرهم باتجاه البحـــر. حـــتى تركت هذه القوات المدينة بعد أن أحرقتها.. وقد تركت الحرائق مناظر تبـــدو واضحة للمشاهد من أعلى، وكذلك التجويفات المنتشرة هنا وهناك في المدينة.. وشاهد أحمد بأم عينه كيف دخل الفارس التركي (الفلاح). "يدخل إلى أزمير عبر ألسنة اللهب... كان فارساً يقاوم بمفرده".. ولم يفهم أحمد أمر هـــذا الفـــلاح "الأضني".. لم يفهم لماذا.. "لماذا فلاح واحد من أضنة فقط؟" كان هذا المقـــاوم الفلاح يرفع علماً أحمر بيد، ويشهر سيفاً باليد الأخرى... وقد دخل أزمـــير في أشد أيام القيظ عام ١٩٢٢.. "فماذا وأين يعمل؟ بل في أية ملكية بيك يكدح؟ من المحتمل أنه مرابع؟ أو شيوعي يوناني؟ لكنه ليس من أولئك الـــذين حكـــم عليهم بالإعدام بسبب دعوة الجيش اليوناني للتمرد.. ويثورون الآن على أرض الأناضول بمساعدة الجنود الأتراك. وليس من الذين يعيشون في الزنـــزانات.. لكن هل هو هارب من خلف القضبان الحديدية، من سجن في جزيرة يونانيـــة نائية؟..".

وصل أحمد نهاية المنحدر.. ودخل حالاً إلى مقهى يقـــع خلـــف كـــورنيش "كوردون"[1]. جلس هناك ليتناول الشاي والكاتو بالجبنة.. ثم دخن نارجيلة.. "–

[1] - ساحة في ازمير.

لقد قلت للرفاق كثيراً إن شكري بك لن يكترث بي..- كلا بل اذهب إليـــه ولنرَ.. فسوف يدبر لك الصهر عملاً". – هذا ما كان يصر عليه الرفاق.. أجل فقد وجد لي عملاً: – ويجب اغتنام كل السبل المشروعة حتى النهاية فهذا مـــا اغتنمناه. ولعله لا يبلغ الآن عني الشرطة.. صهري "الكريم- شكري".

طلب جبنة بالسكر والكاتو مرة أخرى. "– حتى أنهم لم يدعوني إلى الطعام".. ثم طلب شاياً من عامل النرجيلة. "– إنه سيبلغهم، سيتصل بهم هاتفيـــاً الآن.. ولذا هل يكون شكري بك في رأس قائمة المطلوبين من الاتحاديين الملاحقين؟". لم يكن أحمد قد دخن النارجيلة في حياته سوى مرتين، وكان ذلك في إســـتانبول: "إن نارجيلة أزمير تدوخك إذا لم تعتد عليها من ذي قبل.. هكذا يقال.. وهذا صحيح".. دوران رأس... أغمض عينيه.. بدأت الظلمة تلفه، فيما صار وجهه أصفر كالحطب: "– مرحبا أنوشكا". يحس الآن بألم في جنبه الأيسر يخزه كطعنة خنجر.. في هذه الآونة دخل رجل إلى المقهى، وراح يجيل النظر يمينـــاً وشمـــالاً، وكأنه يبحث عن شخص معين. ثم جلس إلى طاولة على يسار أحمد.. أخذ يحدق في فنجان القهوة، من تحت جفنين منتفخين ضخمين. شرب القهـــوة، وطـــب الفنجان. " كدت أسأل النادل عن هذا الشخص لولا أنه نهض عـــن يســـاري وخرج".

خرج أحمد من المقهى. كان الوقت عصراً.. وكانت أزقة أزمير البلاطيـــة لم تزل تتوهج من شدة الحر..

وفجأة أصبح أحمد في مواجهة البحر العاري.. وخلفه أرض عراء.. وآثـــار الحرائق... "– لقد كنت هناك أنا الآخر.. وليترصدوني الآن".

مر في أزقة ضيقة، وفي النهاية، دخل إلى جامع صغير في الحي.. حصره متعفنة تنبعث منها رائحة كريهة، أشبه بشياط الطعام. وفي الداخل رجل كفيف نحيل، يترنح على ركبتيه، ويرتل القرآن الكريم، ويلوح بمنكبيه إلى الإمام وإلى الوراء.. قدماه نظيفتان، لكن عقبيه خشنان..

جلس أحمد وألقى برأسه إلى الجدار..

عندما كان أحمد صغيراً كان جده يرتل له القصائد المولوية لينام[1].

"– منذ أن غادرت المدرسة الداخلية– حيث الصلوات والترانيم الدينية والصوم الإجباري– هجرت الصلوات والصوم وكل شيء. أما القرآن الكريم فلم استطع ترتيله بشكل صحيح. إذ كنت أتعثر بالترتيل والتجويد، ويصعب علي ضبط الحركات والتشكيل– التنوين– حيث هي صعبة ومعقدة.. لكنني كنت مؤمناً. أو بكلمة أخرى، لم أكن لأفكر يوماً بمسألة الوجود الإلهي. لكن، وفي أحد الأيام، أقنعت نفسي بأنني مؤمن بالرغم من أنني لا أفكر بموضوع الوجود الإلهي أو عدمه.. لأن المؤمن من يفعل الخير.. وإن هناك من يفعله لأنه ينتظر مكافأة إلهية، بالذهاب إلى الجنة، فيضمن فيها حياة أبدية هانئة. ولذا يجتنب الإثم والخطيئة. أي إنه يخاف العقاب..

يخاف جهنم. وهذه تبعية، وإيثار للذات.. إن العقاب والثواب كانا يذهلانني وكأنني لم أكن مؤمناً يوماً.." ومذ ذاك قرر أحمد ألا يفعل شيئاً آثماً، لكن ليس خوفاً من العقاب أو من أجل الثواب.. "– وقد كان قراري هذا نتيجة لما رأيته من شيخ أناضولي التقيته ذات مرة.. ولم يكن ليشبه جدي الورع، المولوي أو الخواجا ذا النظارة وربطة العنق، الذي كان يعلمنا في المدرسة الداخلية.. كما لا يشبه الإمام البليغ في مسجد حينا الصغير في "أوسكودار"، بل كان كشبح الأساطير الذي يقولون عنه بأنه ما إن يجلس قرب ماء النبع حتى يجف ماؤه، وقد ظللته راية الإرهاب والغضب والازدواجية الوهمية، والدجل والتعصب..".

وهكذا غط أحمد في النوم ورأسه ملقى إلى الجدار.. وراح في حلم عميق. ثم نهض.. نظر إلى ساعته؛ وكان الظلام قد أسدل حجبه على المسجد.. فدخل ثلاثة شيوخ، يشبه الواحد منهم الآخر، بلحاهم البيضاء وصداراتهم الرثة بشكل

---

[1] - عرفت القصائد المولوية في تركيا كتسابيح طويلة –شعرية- على يد الشاعر "جلال الدين الرومي" /١٢٠٧-١٢٧٣/. وهو "فارسي الأصل" عاش في تركيا (قونية) ونشر تعاليم الباطنة المولوية الدرويشية.

غير معقول: والأعمى ما يزال يرتل القرآن الكريم. "– وقد غشاني ضرب من الكآبة القاتمة، يا للهول...: اصغِ لحنين الناي الحزين.. بسبب هذا الفراق الأليم".

خرج أحمد من المسجد.. وقف تحت ضوء مصباح في الباحة.. ثم سار ببطء.. كان رجل يجلس عند العتبة.. "– إنه يشبه الشحاذ الذي أراني إياه شكري بك.. قد لا يكون جاسوساً.. وعلى كل حال، هل سيتبعني.." مر بقرب الرجل. "– إذن، ربما شكري بك قد فعل شيئاً بعدما خرجت وربما لا يكون.. وقد يكون هذا الرجل يتعقبني لوحده".

في الصباح وصف له إسماعيل المكان الذي سيلتقيان فيه، في الوقت المحدد في المساء.. كان أحمد يشك بأن واحداً يتبعه. لذا كان من البلاهة بمكان أن يدير رأسه إلى الوراء ليتأكد من ذلك.. وكانت ضربات قلبه المتسارعة تتزايد بشدة.. في نهاية الطريق، توقف في زاوية منعزلة والتفت إلى الخلف، فلم يرَ أحداً.. كان شعاع نور مصابيح المنازل يزيد الطريق وحشة.. هذا الطريق الذي خنقته الوحدة والصمت.. التفت يساراً. "– إما إني أضعت الرجل الذي يتعقبني، وإما أنني بالغت في التخيل... يا للقرود..".

جلس إسماعيل في نهاية الدرج الحجري المتهدم، يدخن سيجارة أخفاها في قبضة كفه.

– تحركوا في ليلة مقمرة.. كانت الدرب ممتدة بين الأكواخ الخشبية السوداء، ملتوية وضيقة، وخالية موحشة.. وأنا سمكة صغيرة فيها.. وهذه هي أحاسيسي على الدوام.. وقد أمضيت الوقت تحت ضوء هذا القمر إلى أن نزلت من قطار غير مضيء.. وأخذت أتسكع في شوارع "خاركوف" المجهولة.

خرجنا من المدينة.. وشق هدير محرك بعيد سكون الليل المقمر.. أحسست فجأة بالقلق.. تقدمنا عبر طريق ترابية.. لا شجر فيها ولا بيوت تشاهدها العين.. وصلنا سفح تلة صغيرة عارية تماماً من جهتها اليمنى.. كان هدير المحرك يزداد تدريجياً.. وعلى السفح قام كوخ من الحجارة، مهجور وبلا نوافذ.

- هذا القصر لي يا أحمد..

- لكن ما هذا المحرك يا إسماعيل؟

- محرك لرفع الماء، ويبعد مسير ساعة من هنا.

فتح إسماعيل القفل الضخم المعلق في الباب الخشبي.. أضاء مصباح الكاز.. ثم جلس على أحد سريرين للسباحة.

- كأنك كنت تعلم بأنني سوف أجيء إليك..

- أجل، وهذان السريران تركهما ضياء..

أرض الغرفة "مصبوبة" بالإسمنت.. أخرج إسماعيل من "النملية" بقايا خبز وجبنة وبندورة وخيار وملح وزجاجة ماء..

- هل أنت متأكد من أنهم لم يتعقبونا يا إسماعيل؟

هؤلاء ليسوا عباقرة، ولو تبعونا للاحظناهم يا رفيقي..

نهض إسماعيل وقضم خيارة... ثم ضرب رجله بالأرض..

- نأمل ألا نجد صخراً..

- وإذا وجدنا صخراً يا رفيقي، فهنا رفش ومعول تركهما ضياء وألواح ومنشار سنستعملها شيئاً فشيئاً..

- لا يعرف أحد بأني أسكن معك هنا، أليس كذلك يا إسماعيل؟

- كلا.. حتى أنني لم أبلغ الرفاق بعد بوصولك.

ثم شرع إسماعيل بخلع ثيابه ببطء..

- سأذهب فيما بعد لأحضر حقيبتك من مستودع الأمانات.

- تجنب أن يروك في المدينة.

نهض وليس على جسده سوى سرواله الداخلي المصنوع من الخام، وقد ربطه على ربلتي فخذيه، وقميص داخلي بلا أزرار. وقد ظهرت عضلاته الشابة المسمرة وذرعاه الطويلتان من تحت القميص فبدا وكأنه عار..

خبط أحمد الأرض بقدمه مرة أخرى..

– غدا سأعمل مخططا وأجري قياسات للحفرة.

– وبرأيي يجب ألا تزيد الحفرة، طولاً وعمقاً، عن مترين ونصف.. ثم ينبغي أن تضع المخطط بالفحم أولاً..

– إسماعيل! هل يبعد المعمل الذي تشتغل فيه كثيراً من هنا؟

– مسير ساعة كاملة.. أنهض دوماً مع الفجر /عبّأ جرس المنبه/. إنه من بقايا ضياء أيضاً /ووضعه تحت المخدة/ لكي لا يوقظك..

بدأ أحمد يخلع ملابسه.. بينما تغطى إسماعيل بالبطانية حتى ذقنه..

– أحمد يوجد شاي وسكر وغيرهما في النملية، وكذلك هناك بابور كـــاز في الزاوية،.. وهو من آثار ضياء أيضاً. والآن أطفئ المصباح.

– وهل يجب أن أغلق الباب كذلك؟

– إذا كان ضوء القمر لا يزعجك فلا تغلقه، أفضل للتنفس.. لقـــد كـــان ضياء، هو الآخر، ينـــزعج من ضوء القمر.

نهض أحمد وليس على جسده سوى القميص الداخلي، وهو بدون أكمـــام، والسروال الداخلي، وقد خرش وبر البطانية الخشنة وجه إسماعيل.

بعد ثلاثة عشر عاماً، ألقوا القبض على إسماعيل وأودعوه ســـجن الأمـــن العسكري، المنفرد، في أنقرة ٢٣ آذار ١٩٣٨، والسجن المنفرد هذا هو عبارة عن غرفة صغيرة من الأحجار الصوانية.. وشباكها من القضبان الحديدية، وبدون زجاج.. والأرض إسمنتية، ويدخلها الثلج بسهولة... عند ذلك تذكر إسماعيـــل تلك الأمسيات التي كان الغطاء يخرش وجهه.. وأحمد الذي كان يـــنفخ علـــى المصباح كي يطفئه، عبثاً.

– اخفض الفتيل يا أحمد...

أطفأ أحمد المصباح، وهو ينفخ فوقه وبدون أن يخفض الفتيل، دخل ضـــوء القمر من خلال الباب المفتوح، وأصبح شخير إسماعيل يعلو قليلاً.. كما أصبح هدير المحرك مسموعاً بوضوح..

أخذ أحمد يتقلب في الفراش، فتح عينيه ثم أغمضهما.. تصلب وجهه الذي انصب ضوء القمر عليه.. ولا يزال المحرك يهدر، ويهدر " لو كنت الآن في أوسكودوا لنمت في شقتي وعلى سريري الناعم واستمعت لضربات قلبي المنقبض، وانتعشت بنفحات البحر ورؤيا المراكب الراسية فيه ليلاً، والبواخر المبحرة نهاراً، وليلاً...".

نهض أحمد، وأخذ علبة الثقاب وعلبة السجائر من جيب بنطاله الذي رماه على كرسي خُلِع متكوّه.. فكاد المسدس أن يسقط من جيب البنطال الخفية–" لست قادراً على الإطلاق منه، ومع هذا احمله.. تباً لهذه الحالة..".

جلس على حديد السرير.. أشعل سيجارة، فيما لم يزل هدير المحرك يرعش الطرقات الممتدة في السهل.

* * *

– أجلس من وقت لآخر، أرفع رأسي كلما أردت التحديق بتلك الفتاة زرقاء العينين، الواقعة في الجهة المقابلة، تقشر البطاطا مثلي.

لقد كان الوقت ظهراً.. والثلج يتساقط كثيفاً على موسكو.. لكن مطبخ الجامعة دافئ.. ولماذا لا تنزع هذه الفتاة الشال الملفوف حول رأسها وكتفها؟.. لقد جلس بجانبي الأيسر أستاذ الاقتصاد السياسي، وعلى الجانب الأيمن، جلس حسين زادة، وهو طالب إيراني، وجلس إلى جانبه شخص لا أعرفه، ومن الممكن أنه روسي، لأن ذلك واضح من أنفه، وإلى جانبه جلس الطالب الصيني سي– يا– و، وإلى جانبه جلست زوجة وكيل الجامعة، وهي شقراء ممتلئة. ثم جلست الفتاة ذات العينين الزرقاوين التي ألاحقها بنظراتي كلما رفعت رأسي، وإلى جانبها جلس بيتر وسيان أمين الخلية الحزبية في الجامعة، وقد طمس نفسه في كنزة صوفية حتى رأسه، ووضع على رأسه شارة العلم الأحمر. لقد كنا جميعاً مناوبين في المطبخ.. فتكورنا حول القدر الضخم.. وبدأنا نجمع رؤوس البطاطا التي أفرغناها من الأكياس، لنقشرها ونضعها في القدر. ومن وقت لآخر يأخذ اثنان منا القدر ويصبان ما فيه في قدر آخر مليء بالماء..

الدور عليك الآن يا أحمد... ثم التفت سي- يا- و إلى الفتاة زرقاء العينين: وعليك يا آنوشكا.

نهضت الفتاة، إنها طويلة... أخذنا بطرفي القدر، أنا بطرف، وهي بطرفه الآخر: " لم أستطع أن أرى ساقيها، لكن رأيت على رجليها لطعات" صببنا القدر في القدر الآخر. ثم غسلت يديها في القدر الصوّاني، كانت يدين ذات أصابع طويلة وسمينة تقريباً.

- ستغسلينهما كثيراً بعد، يا آنوشكا.

لم تحر جواباً.

- هل أنت موظفة في السكرتارية؟

- منذ متى نحن نستعمل " أنت؟

أنا أعرف بأن الأعضاء القدامى في الحزب، خاصة الروس المثقفون يحدث الواحد الآخر بـ " أنتم": لكن نحن الشباب، في الجامعة، نتحدث بـ " أنت" سواء كنا نعرف بعضنا أم لا. أزعجني ذلك فعلاً..

- ألاحظ، بأنك أرستقراطية قديمة.

- وأنتم لا تبدون على أنكم بروليتاريون أيضاً..

جلت بنظري أفتش عن آنوشكا على مائدة الغداء فلم أجدها، ولم يلهني هذا عن تذوق الطبخ دوماً، بقطعة خبز أسود، ذقت الطعام، طعمه كالشاي المبرد، والذي كان قبل قليل يشبه البول..

إن الثلج الذي بدأ يتساقط منذ الفجر على موسكو توقف في المساء، لكنه عاد مرة أخرى عندما اشتد الظلام، لكن بشكل قليل. كل هذا اليوم كنت محصوراً. جلست على صناديق السمك المجفف، وكانت منضّدة في الشاحنة في باحة الجامعة. لقد وصلت الشاحنة متأخرة ولم نتمكن من تفريغها، أما قدماي فقد تجمدتا في الحذاء. يجب النزول والركض فوق الثلج. وهذا ما فعلته، ركضت حتى دفئت، ومن الباحة شاهدت دير " ستراسين" ثم مرت عربة

صغيرة. إن هؤلاء الذين فيها على ما يبدو هم من رجال " نيب"[١] يمرون وقبعاتهم ممتلئة ثلجاً ومضحكة. يعرف واحدهم من خلال البلوزة والقبعة. على أي حال إن الغناء غير مسموح به أثناء المناوبة، لكن جاءني الغناء وبأعلى صوتي.. أغنية بوجون: " هيا بنا إلى وارسو. هلموا بنا إلى برلين" من المحتمل أنه جاءتني الرغبة في الغناء، ربما لأنني طويت البندقية، أو بعد رؤية رجال النيب. لاحظت شارع ستراسين، وعبرت في الظلمة، ثم توقفت. أحسست أن أحداً مر، تخيلت شيئاً غير معقول: من المحتمل أنه آنوشكا، التفت. وتحت ضوء المصباح، وبالضبط بجانبي، وقف مجهول.. مخيف.. عيناه تلمعان في وجه وسخ، ملابسه حمراء.. في الثانية عشرة وربما أقل.

– مرحباً يا عم.

– مرحباً.

– رائحة سمك، يا عم!

– ممكن.

– هل في الشاحنة سمك؟

– بل مملوءة بالسمك.

– هل أنت مناوب منذ زمن طويل؟

– أجل.

– رائحة سمك؟

– من المحتمل.

– ألا تستطيع أن تعطيني سمكة يا عم؟

– لا أستطيع.

– إني جائع.

[١] - نيب nep. هي مختصر لمقطع = نوفا أكتو مسكا بوليتيكا: أي السياسة الاقتصادية الجديدة. المعرب.

– ألم تبتلع شيئاً اليوم؟

–" جزداناً صغيراً".. كان فارغاً.

– يجمعونكم، ويعلمونكم، ويلبسونكم، لماذا لا تذهب هناك؟

– أحب الحرية يا عم.

– من أين أنت؟

– من الفولغا.

– من أين أتيت إلى هنا؟

– ماشياً.. بل بالقطار، في عربة الدرجة الأولى ومع النوم.

– أو، قل تحت العربة.

– كما تريد... وهل يعاقبونك لو أعطيتني سمكة واحدة، ومن سيلاحظ؟

– أنا

– إني جائع، أقسم لك..

– هل أعطيك نقوداً؟

أعطيته قطعة نقود، رميتها له بين الأحجار فالتقطها.

– وأعطني الآن سمكة.

– لقد أعطيتك نقوداً.

– في هذا الوقت، كل المحلات مقفلة، أنت تظن أنه بالنقود يمكن شراء كل شيء دوماً، أنا جائع فسمكة صغيرة فقط...

– لا يمكن.

– لماذا لا يمكن يا عم؟

– إذا أعطيت كل واحد سمكة، فلن يبقى ولا واحدة في الشاحنة.

– وهل أنا واحد؟

– أو لست؟

– لست. أنا ذو الأصابع الستة.

– كيف ذو الأصابع الستة؟

مد يده اليمنى، يبدو (جانباً) قليل من اللحم الزائد على شكل خنصر...

– هل لديك سيجارة، يا عم؟

– وهل تريد ناراً؟

– لا يمكن التدخين والمعدة فارغة، بل أعطني سمكة.

أعطيت ذا الأصابع الستة من الفولغا سمكة صغيرة.

لتعطني واحدة أخرى يا عم.

–كلا... إن هذه وكثيرة.

– لا تزعل، خذ هذه وأعطني واحدة أكبر..

أخذها وأعطيته واحدة أكبر، فدسها في مكان ما.

– لماذا لا تأكلها؟ ألست جائعاً؟

– سوف آكلها مع سانكا.

– من تكون؟

– صديقتي.

– كم عمرها؟

– أصغر مني، وهذه تستحق سمكة..

– هيا .. هيا.. اغرب عن وجهي.. اذهب.

– لا تغضب، ذاهب.

حل يديه عن صدره، ربطهما في الخلف، توقف، والتفت إلي:

– لا أريد أن أقول لأحد إنك توزع هنا السمك، إذا كان كل المناوبين مثلك، لا شك أن السلطة السوفييتية سوف تنهار عاجلاً.. ابق هكذا، وداعاً يا عم.

خرج من الباحة، وضاع في ظلمة شارع ستراسين.

عندما دخلت إلى غرفة المناوبة، كان الجميع نياماً، فيما كان سرير سي–يا–و خالياً، وهو بجانب سريري.

لقد خرج سي–يا–و إذن لأمسح قدمي بالجرابات بدلاً من المنشفة، سـي–يا–و هو الطالب الوحيد الذي يلبس " بنطلوناً" أنيقاً في الجامعة، وكان لديه أيضاً حذاء مطاطياً، وعقدة عنق فراشة، وكذلك قبعة كبيرة، إلا أنه لا يلبسها بعد.

فقد خرج مرة، وهو يلبسها، ولما صار في بوليفار القنديل، تجمع الأطفال وتبعوه وهم يغنون :" بورجوازي.. بورجوازي" كان يتكلم الفرنسية جيداً. أعتقد أنه أتى إلى موسكو من باريس، لكني لست متأكداً من ذلك، لديه أمور لا يسأل عنها أمثالي القادمون بلا جواز سفر.

– سي–يا–و، اسمع.. يهمني.. من تكون هذه آنوشكا؟

– ضاربة آلة كاتبة لدى رئيس الجامعة.

– هذا ما ظننته، لكن من هم أهلها؟

– أبوها كان مهندساً، وقتله أحد الإقطاعيين، وأمها ماتت بالتيفوس.. وتصبح على خير..

هدير المحرك لم يزل مستمراً.. سقط أحمد عن السرير، بعد أن سحب الغطاء عن قدميه العاريتين.. وقلب على ظهره :" إلى اللقاء يا آنوشكا"..

* * *

– لما نهضت، كان الوقت نهاراً/ وقد ضربت الشمس حبالها من خلال منافذ الباب.. حيث أغلقه إسماعيل خلفه عندما خرج/ ففتحته.. شربت شاياً من قدح جديد ومليح جداً.. من المحتمل أنه من بقايا ضياء أيضاً!!..

أغلق أحمد الباب، وأضاء القنديل. وبقي هدير المحرك مسموعاً.. "– وهل تسمع ضربات الرفش في الخارج؟"– وضع المسدس على السرير– "يجب أن أحكم هذا الباب بشيء..فما العمل بهذا الباب؟ إذا قبضوا علي أحفر، فسوف يهشمون ضلوعي؟". نظر إلى المنبه: "التاسعة والنصف– ساعة وربع وأنا أحفر.. يا للعفريت".. شرب ماء وأشعل سيجارة. ثم فتح الباب: الشوارع لم تزل خالية. ومغبرة والمصابيح في الطرقات لم تزل مضاءة..

أغلق أحمد الباب. وكان بين الحين والآخر يزيح من الحفرة التراب المحفور. نظر إلى المنبه: "عشر دقائق حتى الظهيرة. والغرفة أصبحت كالحمام"..

الشتاء في موسكو جاف وصحي، حتى الأفارقة الزنوج يتحملونه بسهولة.

ذهبت إلى محاضرة الطلبة الشرقيين، بمعطف رقيق، يضم تحته قميصاً روسياً من القماش السميك. وبالحقيقة، لم أكن لألبسه لو كنت أملك غيره. كان في الصالة الكبرى مباراة. وفيها ازدحام. رأيت سي- يا- و، ببذلته المخاطة الجوخية، وكأنه جاء إلى حفلة كبرى خصيصاً. لم يلاحظني. بدأ العرق يتصبب مني.

مسح أحمد العرق بيديه العاريتين عن عينيه وجهه. اعتدل واتكأ على المخدة.

انظر إليه "... لأمه..." هذا سي- يا- و يلعب مع آنوشكا! لقد رأتني الفتاة. وابتسمت. إن شعرها أشقر كالحرير. وعنقها طويل وناعم.. نظرتُ إلى ساقيها.. وقد فرحت لأنني اكتشفت عيباً فيهما، بل فيها...".

خرج أحمد، حتى الباب. ارتدى معطفاً "- إني مبلل بالماء يا للعفريت، سوف يلفحني الهواء". نظف كل ما قد أبقاه من فضلات الغذاء: لحم جاف، خبز وبندورة.. مر باص سريع في الشارع فأثار زوابع الغبار. فأغلق أحمد الباب. "لأرتاح قليلاً". همس وهو يقلي بيضاً بالعجة. وعندما فتح عينيه رأى إسماعيل يقظاً:

- يبدو أنك تحنطت.

- كم نمت؟

كان الكوخ مفتوحاً. وخيم الظلام.

فتح أحمد الحقيبة.

فسأل إسماعيل:

- هل جهزت المخطط؟

- بدأت العمل بدون مخطط. لكن سوف أرسمه. فقد شاهدت عينة في متحف الثورة في موسكو، وسأقلده..

– وأنا سوف أحمل التراب، برغم الظلام. يوجد في هذا الكوخ قفة واحدة بقيت من ضياء. وإذا كنت تنتظر أن أقول لك شيئاً، فأجِّل الاجتماع إلى مساء غد..

جلسا على حديد السرير. حمل إسماعيل ورقة.

– اشترِ لي كل يوم جريدة إستانبولية وأخرى أزميرية.

بدأا يحملان التراب إلى الكومة. إسماعيل يحمل في طرف وأحمد في الطـرف الآخر– "كما كنا، أنا وآنوشكا، يوماً نحمل قدر البطاطا".

– يجب ألا نخرج سوية من الاجتماع غداً، يا إسماعيل. إذ يجب أن لا يعلموا أنني أقيم عندك.

عادا في مساء اليوم التالي من الاجتماع، ولم يناما قبل أن يرميا ما قد حفـره أحمد من التراب طيلة اليوم.

* * *

مساء ممطر– : لأول مرة ألاحظ الفرق بين أمطار أزمير في الصيف وأمطـار إستانبول. ومدّ إسماعيل يده يعطي الجرائد لأحمد ليقول:

– البوليس يبحث عنك، يقال إنه منذ أسبوع وهم يفتشون عليك. وقـد اعتقلوا في إستانبول اثنين باسم أحمد قدري، وحققوا معهما وأوقفوهما..

– هذه فعلة شكري.

– محتمل... لكن لديهم أوصافك، لأنهم لم يعتقلوا كل من ألقوا القبض عليه باسم أحمد قدري.

– وأولئك الذين أوقفوهم هل يشبهونني؟ فعلاً.. لقد طلبوا أوصـافي مـن إستانبول لكن السؤال هو: من أين علموا بأنني جئت إلى أزمير. وعلى العمـوم فما الذي جرى حتى يلقوا علي القبض؟

– لقد بدأت حملة الاعتقالات.

– ماذا تقول؟.

"بدأ قلبي يخفق بسرعة، كما حصل لي في تلك الليالي التي حسبتهم فيها يتبعونني. وفي الصحف يُعلن أنهم ألقوا القبض على الشيوعيين وأنهم سوف يمثلون أمام محكمة الأمن القومي. أما أولئك الذين لم يُلقَ عليهم القبض بعد فيجب التفتيش عنهم. وأنا من بين أولئك الذين لم يعتقلوا".

– من يعلم أنهم سوف يأتون إلى هنا؟

– ومن يعلم بأنهم ليسوا معتقلين.. إنه قسم البوليس وحده.

– لا أعلم.. إنهم سوف يستجوبون حسني، إذا منعوا جمعية السكك الحديدية...

– سوف يمنعونها بالتأكيد.

توقف المطر. وتوقف هدير المحرك في تلك العتمة الرطبة الحامية، فجأة.

– ليس الأمر واضحاً.. وهذه طبيعة الاعتقالات..

جلسا على الأرض وأكلا خبزاً وزيتوناً.

– ماذا تقول يا أحمد، ومن سيحاكم رفاقنا؟

– محكمة الأمن القومي، ولا أحد يعلم..

– لكن سوف لن يشنقوهم يا رفيقي..

ذات اليوم، أخذا ينقلان الأتربة المحفورة، ولم ينتظرا حتى يدهمَّ الظلام، إلى ما بعد الغروب. حتى بلغت فتحة الحفرة متراً مربعاً. وقررا بعدها أن يطمراها خلال يومين، ويضعا صندوقاً خشبياً، ثم يطمرانه تراباً حتى القمة. ومن ثم يضعانه في فوهة الحفرة. وأما التراب المحفور، فسوف يقلب مع باقي التراب، وكذلك فسيكون من الممكن فتحها وإغلاقها في اللحظة التي يرغبون..

فيما بعد لم يفتح أحمد الباب، ولم يجلس على الأرض.. وأمضى النهارات يطالع الكتب التي أبقاها ضياء تحت نور المصباح.. وكان بين الكتب ديوان شعر.

– قبل أن يعتقلوهم. واليوم علمت بذلك.

– طيب، ومن ثم؟

– منعوها.

" أنت عليك أن تجهز مكاناً لمطبعة سرية، فقط، مكاناً، وانتظر التعليمات التالية"، هذا ما قالوه لأحمد في إستانبول، قبل أن يتحرك إلى أزمير. والآن فهم أحمد لماذا قال له الرفاق:" استغلوا الممكنات المشروعة". ثم صدرت الصحيفة "يولداش"[1] .

– حسناً، لكن ألم يكن ممكناً أن ينقلوا الورق والحروف والحبر والماكينة؟ وماذا تنفع هذه الحاجات، والاستفادة من كل الممكنات الشرعية؟ وعليه، بقينا الآن بدون استغلال للحفرة.. وهل اعتمد رفاقنا على نصوص الدستور؟ وهل البرجوازية عندنا تأخذ بالدستور؟ فعندما حصل التمرد الكردي كتبنا نحن: إن ذلك ليس أمراً عادياً. وقلنا إنه يجب توزيع ملكيات البكوات ومشايخ الأكراد على الفلاحين الأكراد. وإذا كان هناك أصابع إنكليزية أو بقايا خليفه، قلنا، إنه إلى هنا فقط نستطيع الخوض في الأمر. وقلنا إنه يجب ألا يهرق دم بين الشعبين التركي والكردي.. قلنا، كل هذا، قلنا.. قلنا.. لكن ما الذي كان؟

تكلم إسماعيل وكأنه يقرأ في أفكار أحمد:

– يا رفيق! لقد خنقونا حتى لا نعطس.

– وأنت ماذا تعتقد... إن قادتنا قد أضاعوا شكلهم الثوري.. ثمانين بالمئة على الأقل... وهذا ما يجب محقه.. للقرود..

وبعد عشر سنوات لاحقة، أي ١٩٣٥، أعطى ضياء لإسماعيل مثالاً حياً لما كان أحمد قد برهن عليه،:" يا إسماعيل! كان بإمكانك أن تقول له ما قاله ضياء".

– وهل تعرف بمن التقيت البارحة؟ بأحد أعضاء محكمة الأمن القومي في أنقرة ١٩٢٥، وقد سألت هذا الشخص:

---

[1] - يولداش-ioldas- ومعناها الرفيق بالعربية

– ماذا كان لو أنك اتفقت معنا قبل عشرة أعوام؟

فنظر إلي، هذا بشزر وحدّق في وجهي وقال:

– يا سيد ضياء! أنتم أنفسكم المذنبون والمقترفون فعلتكم. أنا لدي ملكيتان. لو كنّا وزعنا أراضي البكوات والمشايخ الأكراد على فلاحيهم، لطالبي فلاحونا بأرضنا. هذا هو الاقتراح يا سيد ضياء، إنه اقتراح سيئ..

وقف أحمد متكئاً على الطاولة:

– سأذهب إلى إستانبول يا إسماعيل.

– لعلك لست مجنوناً؟

– يجب أن أعلم عما إذا وجدوا ورقاً وحبراً وما إليه. ويجب متابعة الاتصال مع الرفاق.

–لم يبق أحد في إستانبول. ما عدا ذلك الذي يفتشون عنه في القطارات والبواخر كما تعلم.

بقينا مرة أخرى في بيت حسني. وقد تقرر أن لا يذهب أحمد، ولم يرسلوا أحداً، ولم يعتمد أحمد فيما بعد على عناوين إستانبول.

– لم أعد أشعل مصباح الكاز نهاراً. ومن الفضول أن أراقب خيوط الغبار من خلال حبال الشمس التي تدخل إلى الغرفة– من ثقب الباب– أراقب غزلها، ولهوها وحيويتها الجنونية وأسأل آنوشكا:" أي مرفأ تعبر هذه الباخرة بمئات الأشرعة؟" وفي الليل أضع إسماعيل قدامي وأبدأ برسمه في وضعيتين.. أعجبه الأول، بينما لم يعجبه الآخر لأنه لم يشبهه...

– مر ثلاثة أسابيع أيضاً.

رغبت أن أفتح الباب، وأخرج إلى الشمس، وأضطجع على ظهري عشر دقائق فقط، في الحفرة التي أفرغناها من التراب، بدأت أعد لعودة إسماعيل، ساعة بساعة، ثم عشرين دقيقة بعشرين دقيقة، ثم عشراً. وأستطيع القول أنني فقدت كل ذكرياتي..منها ما كان في السجون أو الزنزانات، أو في الغربة.

حسنا، إلا أهم واعون منذ اللحظة الأولى لحقيقة واحدة هي أنني لا أستطيع أن أفتح الباب وأخرج. لكن لو عاد الأمر لي لفتحت الباب كل يوم، وخرجت كلما رغبت بذلك. لأنني لا أستطيع أن أفتح الباب للعذاب الذي لم يكن أبداً مغلقاً..

مرّ أسبوع آخر.

ومنذ أكثر من ساعة وأحمد ما يزال منتظراً وعينه إلى قفل الباب وحواليه.. وقلبي ينبض بجنون. يعلم أنني سأفعل شيئاً غير مفهوم. أعلم أنني سأفتح الباب، وأعلم أن ما أفعله هو جنون. فتحت الباب بهدوء تام، نازلاً جانب الحفرة، وأصبر بعذاب كي لا أركض. حلقت شاربي، وارتديت بذلة إسماعيل القديمة للشغل. غيرت معالم وجهي قليلاً ظناً مني أنني الآن أشبه طباخاً أو ما شابه. ذهبت عبر الشارع حوالي ربع الساعة. اتكأت على باص يقف في زاوية ميتة. مررت قرب شرفة مرتفعة قليلاً، جدرانها حجرية. وعلى الشرفة مظلة وشخصان، وعلقت في الظل أوراق دخان. كانت تحت الشرفة مغسلة، ثنيت ركبتي قليلاً وألصقت شفتي على القسطل. شربت ماء حتى ارتويت. ثم استويت ومسحت فمي بكمي الأيمن، وقد ارتطمت ساقي اليسرى بقطعة حديدية. تلفت ونظرت فإذا كلب أبيض، مكلوب وربما ليس مكلوباً، وقد اعتقدت مؤخراً أنه يسيل. ثنى الكلب الأبيض ذنبه، وبدون نباح ابتعد بعيداً.. ربما فزع عندما نظر إلى عيني.. جسست ركبتي ونظرت لأرى الصدمة: دم. وقد رأى الناس من على الشرفة ما حصل." لا تقلق، أيها الشاب ضع تبغاً عليها فوراً. ماذا به؟ ليس مؤذياً" هذا ما قالوه. أخذت بعض التبغ المشمَّس الذي أعطوني إياه، وضعته على الجرح وربطته جيداً على الصدمة.

لم يلاحظ إسماعيل تلك الليلة بأن أحمد قد حلق شاربيه. قص أحمد الفتيل بمقص الأظافر، حاول أن يخفض ذبالته فسقطت حلقته..

–لماذا حلقت شاربيك يا عزيزي؟

– هل تغيرت؟

– لم ألاحظ ذلك فوراً، لكن كانا يظهرانك رجلاً وتوجد تغيرات.. بل أنت أجمل بشارب.

– إن أنفي يبدو هكذا طويلاً، أليس كذلك؟

أخفى أحمد ما قد حصل له في ذلك اليوم عن إسماعيل."لأن ما أقدمت عليه هو غباء، وأن إخفاءه عن إسماعيل هو عيب بلا شك، لكن أخفيته".

مر أربعة أيام أيضاً.

يغط أحمد البندورة بالملح ويقضم، وهو يقرأ صحف إستانبول.

– إسماعيل!

– ماذا؟

– استمع، مما جاء في الصحف، أن الكلاب المكلوبين يتسكعون في الضواحي.

– يتسكعون، ويقال إنهم عضّوا أطفالاً، وقبل أول أمس عضّوا بواب مصنعنا.

– حسناً وماذا سوف يحصل يا إسماعيل؟

– كيف ماذا سيحصل؟ الآن أرسلوهم إلى إستانبول للمستشفى..

– وهل حصل لأحد أن مرض بالكلَب؟

– كيف لا.

– لكن هل يعاقبون أصحاب هذه الكلاب المكلوبة؟

– ومن يثبت مالك الكلب المكلوب يا عزيزي؟

– آه يا للشيطان.. لنجتمع غداً يا إسماعيل.

أوضحت له كل ما حصل.

وهكذا يا إسماعيل.

– ردد إسماعيل " وهكذا.." ثم تابع:

– الكلب هو لأولئك الذين يجففون التبغ، للذي كلمك من على الشرفة، وكم مرة شربت القهوة مع ضياء. تحت هذه المظلة. وغداً سوف أذهب لأرى إذا كان هناك. ولو كان مكلوباً لعض أحداً قبلك. ولكان المالك قضى على هذا الحيوان.

–لماذا كان يجب أن يعض أحداً قبلي؟ لماذا لا أكون أنا أول من عضه هذا الكلب؟

– وربما أنت الأول. لكن لماذا تفكر بالأسوأ يا عزيزي؟

كان الاجتماع في دار حسني أيضاً: وهي صالون في الأسفل وغرفتان علويتان. وغطاءات على الشبابيك. نخلع الأحذية في العتبة ونصعد إلى الطابق العلوي، وندخل إلى الغرفة على اليسار. وقد أدهشتني النظافة وخاصة الأرض والبلاط الذي مسح حتى اللمعان. تنبعث رائحة كصابون البحر. تشبه قسطل الماء ورطوبة المغسلة. وفي الغرفة المجاورة طفلة حسني، التي هي في الشهر السادس من العمر، تبكي. افتتح حسني الاجتماع أوضحت أنا حقيقة الأمور. وأخذ إسماعيل الكلام:

– ذهبت، فقالوا إن الباص قد دهس كلباً.

– أنا لم أجلب له عظاماً، لكنه عضني ببساطة وذلك بدافع اندهاش الكلب. وإذا كان الأمر كذلك، فعليكم فرض عقوبة بحقي بسبب اللا انضباط، لأنني غادرت البيت. وهذا ختام، فقد أحسست بضيق عميق، وصار قلبي يخفق بجنون وازدادت الآلام.

– لكن وإذا كان الكلب قد مات من الداء؟ فيعني أنه كان مصاباً حينما عضني، ويعني أنني سوف أصاب بداء الكلَب أيضاً. كدت أضحك، وأن أصاب بداء الكلَب، إن هناك شيئاً مضحكاً في هذه الكلمة، يا للمصيبة! وإذا لم أُصَب فيجب أن أعلق" سيروم" وإن أذهب إلى إستانبول.. أعرف رئيس أطباء مستشفى داء الكلَب..

تحدث حسني:

-كنا قد قررنا ألا تذهب إلى إستانبول. لكن يجب أن نغير القرار. من الممكن أن لا تقع في يد البوليس في إستانبول، وإذا كان الطبيب صديقاً لك فلن يخبر البوليس عنك،ربما...

– دخلت المرأة المغطاة بالمنديل الأبيض لتجمع فناجين القهوة وتخرج. بدأت أتكلم:

– هكذا يجب أن نحسب: الجميع فهموا الحادث، ولكني أكرره مرة أخرى عمداً. ويوجد ثلاثة احتمالات. الأول: أن الكلب كان مكلوباً، أو أنني سأعتقل في الطريق، أو أن الدكتور سيبلغ البوليس. ولن يلقح من هو مطلوب للشرطة. وأنا لست مصاباً، هذا هو الاحتمال الأول. أما ما يخص الاحتمال الثاني:- الكلب مكلوب، ولم يقبضوا علي في الطريق. والطبيب أظهر الرحمة، ومررت، ونجوت. ولنرَ الثالث: لم يكن الكلب مصاباً، وقبض عليّ في الطريق إلى إستانبول أو أبلغ الطبيب عني البوليس وبالضرورة أكون قد مثلت أمام المحكمة. وأكون قد رحت في داهية. وهناك احتمال آخر: كان الكلب مصاباً. لم أذهب إلى إستانبول للتلقيح وأصبت بالداء هنا. فهل يجب أن اذهب أم لا؟

لم يقررا. وقالا أن أذهب، تصرف.

خرج أحمد أولاً، كما العادة دوماً، ثم تبعه إسماعيل، والتقيا عند المكان الذي يسمع فيه الضجيج، سارا زحفاً.

– متى انسحبوا وأطفؤوا النور؟ قال أحمد:

– لا أذهب إلى إستانبول.

لم يحر إسماعيل جواباً، واضطجع. وجلس أحمد على بنطاله المشلوح على الكرسي. وسحب مسدسه من جيبه الخلفي، ووضعه على بزة إسماعيل التي كان قد رماها على الكرسي الآخر.

– أعطيك هذا المسدس، يا إسماعيل.

- لماذا؟

- لأنه هناك احتمال خمسين بالمئة أن أصاب بداء الكلب...

- وإذا حاولت الذهاب إلى إستانبول؟

- كلا. هناك احتمال خمسين بالمئة بأن الكلب كان مصاباً، ومئة بالمئة أن الدكتور سيبلغ عني. وهناك احتمال أن يقبض علي في الطريق. فلن أذهب إلى إستانبول... وإذا أصبت بالداء عليك أن تقتلني... ارمني في هذه الحفرة. وادفني... فلن تنبعث بعدها الرائحة... نفذ كل ما قلت "اقتلني" ارمني "في الحفرة" ولن تنبعث مني رائحة "تكلمت وكأني أحث إسماعيل قصداً".

- لا أحد يعلم أني هنا. - أضحك. - وفي كل الأحوال، فسوف أكتب رسالة. وقل بأنني انتحرت بسبب حب فاشل. - لم أرفض في حياتي هكذا الأوامر قط.. آه، زباه. - وهكذا يا إسماعيل...

- أنت جننت...

- ماذا يعني ذلك؟ أنت مجنون إذا أطلقت عليك الرصاص الآن، فسأصيبك.. نعم.

لم يجب إسماعيل.

- هل تعرف الرماية يا إسماعيل؟

- أعرف...

- أنت رامٍ جيد؟

- تقريباً...

تمشيت نازلاً صاعداً، وقفت قرب الشباك، فتحته أغلقته.

- هيا، نم، يا أخي.

- أحضر لي غداً كتاباً طبياً.

- ماذا يفيدك؟

– لاقرأ عن عوارض الكلب. وما أعرفه أن من يصاب بهذا الداء، فلا يظهر المرض فوراً... على أي حال الأزمة هنا.. وماذا أعلم كيف تتم.. قبل أن تقع، وتصاب بالكَلَب. وتجن ثم تبدأ بالكلب ومن ثم تموت...

– كيف خطر على بالك هذا الموت يا أخي؟

– شاهدت منطقة في إستانبول... كان محسن يلعب فيها. وكان القديسون أو من شاكهم، في ليلة قدسية، ليلة انقطعت فيها كل الصلات مع المرفأ، كان واحد من القديسين، أظن أنه الراهب، مصاباً بداء الكلب.. وقد هجم على الأب القديس.. ثم مات هذا الأب مكلوباً..

– هيا، قم، وأطفئ المصباح...

– لا تنسَ أن تجلب الكتاب...

– حسناً، إذا وجدته...

– كيف إذا وجدته؟ جده واحضره..

– حسناً، حسناً...

هدير المحرك، دخل إلى الغرفة هذه الليلة.

– يا إسماعيل...

– ماذا؟ من؟..

– هل نمت؟

– لم يأتني نوم.

ضوء القمر تسلل إلى الغرفة من ثقوب الباب وثقب القفل..

– بماذا تفكر يا إسماعيل؟

– ولا بشيء... – "إلا أنه كان يفكر. لكن رغبة أحمد هي أنه يجب على العالم أن يفكر في أمره وخاصة إسماعيل. الشاب على حق، فقد كان إسماعيل مشغولاً يفكر بأمه"...

الخط السادس

اندفع أحمد فوراً إلى سريره ليقرأ الكتاب الذي حمله له إسماعيل. "هل هـي أحاديث". سأل أحمد عندما أشعل سيجارة، قال:

– هل تصفحت الكتاب يا إسماعيل؟

– بلى..

– وكيف، هل الإنسان ينبح كالكلب؟

– أجل، ينبح.

– وماذا يكتب بعد؟

– اقرأ وسترى.

– أربعون يوماً...

– الأربعون أو الواحد والأربعون...

وضع أحمد الكتاب على بزته دون أن يفتحه. أطفأ المصباح. وسكتنا وقتاً من الزمن.

– على من تمثّل يا رفيق – قال إسماعيل. أشعل المصباح واقرأ.

أشعلت المصباح وقرأت حول هذا وذاك لكن لا شيء حول ما لا أعرفه حتى الآن. أولاً صداع، ثم آلام في الحلق، فوهن، ثم فقدان الشهية، ورعـب غـير متوقع، الخوف من الداء، الخوف من النار، ثم غثيان وآلام، ثم شعور بالحاجـة للعض، ثم تنحل وتسقط وتموت. وفي اليوم الأربعين أو الواحد والأربعين، تغادر الدنيا..

وقفت. وأخذت طبشورة من حقيبة الرسم. ورسمت ستة خطوط على الباب ستة خطوط بيضاء.

– ما هذا يا أحمد؟

– اليوم هو السادس يا إسماعيل.

– أهكذا يا ربي، أنت مجنون يا رفيق... – أشعل سيجارة، ورمى واحدة لأحمد. – لم ترق له هذه الحياة وهو يعلم بأنه سوف لن يصاب، لكن ستقضي هذه الأربعون يوماً على هذا الشاب...

أطفأ إسماعيل المصباح. وأحمد يظهر الخطوط البيضاء الستة على الباب.

"ذكرتني الخطوط التي رسمتها على الباب خيال آنوشكا التي رأت اليوم السابع".

– ما هذا يا أحمد؟

– يومنا السابع. هذا ما سأقوله: بقي لنا ثلاثة عشر يوماً يا آنوشكا.

– حسناً، وبعدها؟

– لتعلم أن أجلي يدنو. نهايتي. سنرجع إلى موسكو...

– يا أحمد...

– ماذا؟

– لقد تكلمت اليوم في نومك وكأن هناك من يخنقك.. وهذا من جراء الإرهاق..

– على كل حال ليس هو من الكلب. إذ لم يبدأ الصراع بعد. وهذا يحدث لي مرة في السنة أو مرتين. في المرة التالية أوقظني بهدوء وهذا كافٍ... لقد رغبت أن أستيقظ لكني لم أتمكن، للقرد... أعرف أين أنا موجود، عادة ما يحدث لي ذلك فأعتقد بأنني في مكان آخر. وغداً لما أستيقظ فوراً يخيل لي بأنني سوف أموت. ومرة قلت لآنوشكا.. لا تخافي وقلت لها، المسي يدي، بهدوء تام، وهذا يكفي...

خرج إسماعيل هذا الصباح، لكنه لم يأخذ مسدسه.

– غداً احمل مسدسك يا إسماعيل...

لم يجب إسماعيل. لقد نام.

"باطوم" هي المدينة التي تذكرني بلوحة الشطرنج. وإذا هطل المطر في باطوم أربعين يوماً وأربعين ليلة، وبعد أن تشرق الشمس تجف الشوارع في الحال.

جلست إلى طاولة في فندق "فرنسا" في باطوم... وفيها يوجد كـــل أنـــواع الأشجار والأزهار. وفي جنائن باطوم في "يشيلبورو" أستطيع أن أشاهد وألمـــس وأشم. وعلى البلاج في باطوم هذا الصيف ١٩٢٢م، كانت النساء والرجـــال معاً، الواحد إلى الآخر، عراة تماماً، وبدون ملابس السباحة، كما ولدهم أمهاتهم، أما أنا فقد قدمت إلى هذا البلاج من الأناضول، أين كنت أرى الأيدي العارية، وأقدام النساء وعيونهن فقط.. وهذا في سوق الخضار فقط...

ولكن في بعض الأحيان كنت ألتقي بالعيون تنظر من خلال غطاء المـــلاءة، فكان يبدو لي كأنني أرى امرأة عارية من شعرها حتى أخمص قدميها، بل وأكثر من هذا... لكن بسرعة يتعود المرء على العري وعلى كل شـــيء بتمامـــه، لأن التخيل لا يلعب بعد... لم يمضِ وقت طويل في باطوم حـــتى لم أعـــد أكتـــرث بملاحظة النساء العاريات اللواتي يضطجعن على البلاج.

جلست إلى الطاولة، في غرفتي بفندق "فرنسا" في باطوم. عـــبرت الشـــارع أفراس حمراء. والخيالة تعبون، نصف شبعين ونصف جائعين، لكن الدنيا لهم... في مساء اليوم سوف يعقد اجتماع، وسأذهب في شوارع باطوم حيث تسمع دوماً وقع أكعاب الأحذية تريك– تراك، تريك– تراك.

– جلست إلى الطاولة في فندق "فرنسا"، إني جائع، جائع.. اشتريت خبـــزاً بربع ليرة، وصحني شوربة خضر، ثم كأسين من الشاي المغلي جداً.. ورأسين من السمك تسبحان، ليس في الشاي، بل في الشوربة. ومنذ زمن بعـــت حـــذائي الطري. اشتراه مني شاب فلاح من آدجار. أقام عرسه فاشترى مـــني الحـــذاء كهدية للعرس. ولكم من ملايين الروبلات بحاجة لها المرء هنا؟..

سألت على ظهر السفينة التركية التي حملتني من "ترابـــزون" إلى "بـــاطوم". سألت الكابتن والقبطان: "هل تستعمل النقود في بـــاطوم؟ فهنـــاك في النظـــام الشيوعي لا يستعمل النقد". وهذا ما "اعتقده"...– قالوا: "الفلوس تســـتعمل عند المنشفيك... أما عند البولشفيك؟...". كان معي خمسون لـــيرة تركيـــة.

وزعتها على طاقم السفينة. وحرصت على واحدة فقط كـــذكرى تاريخيـــة... وعادت السفينة التي نقلتني إلى باطوم عادت إلى ترابـــزون، مملـــوءة أســـلحة ومتفجرات.. وعلمت مؤخراً أن بعض البحارة والقبطان الذين قالوا لا نعرف ما هي الشيوعية، قد سرقوا من الجميع، فرداً فرداً، نقودهم بهذه الحجة.

جلست إلى الطاولة في فندق "فرنسا" في باطوم.. كانت سيقانها وهل سيقانها فقط– بل من كل جهة، سيقان الطاولات منثورة في كل الجهـــات.. وبشـــكل متقاطع.. وفي الردهة في أوسكودار، في غرفة الضيوف هناك طاولة واحدة على شكل متقاطع.. رو– كو– كو... إن هذه الرحلة من ضفاف البحر الأسود إلى أنقرة ومنها إلى بولو، استمرت خمسة وثلاثين يوماً، بل قل خمساً وثلاثين سنة من الدوران.. وقد حصل أن قمت برحلة مشياً على الأقدام أثناء الخدمة في مدرسة القصبة. وباختصار لقد تعرفوا على الأناضول من ابن الباشا وبالضبط من حفيد الباشا، الذي هو الآن في باطوم، في فندق "فرنسا" يجلس إلى الطاولة المتقاطعة، مشعثاً وثيابه ممزقة، وسخاً، ومدمى في يديه.. أحدّق.. ويأتني البكاء.. أحـــدّق فينهمر الدم في رأسي.. أنظر إلى منظري، فأخجل أن يحكى عني في أوسكودار. وأقول في نفسي: اطلب أيها الشاب... اطلب شيئاً.. الطلب وصل.. ستموت قبل أن تعود.. فتوقف ولا تتعجل أيها الشاب. لنطرح سؤالاً على هذه الطاولة: غير الأناضول ماذا يمكن أن تهب؟ وماذا تحب أن تهب؟. كل شيء، كل شيء... من أجل حريتي. أجل. وكم سنة ستكون في الزنـــزانة. من أجل حريتـــك؟ إذا لزم الأمر فسأعطي كل حياتي. حسناً، لكنك لا تحب النساء، وتحب الطعـــام – المشروبات والبزة النظيفة. ولا يليق بك أن تعبر أوربا، وآسيا، وأمريكا وإفريقيا. وأن تترك الأناضول؟. ولتجلس الآن وراء هذه الطاولة في باطوم؟.. وتذهب من "تيفليس" إلى "كارس" ومن هناك ترجع إلى أنقرة؟ علماً بأنه لن يمر أكثر مـــن خمس– ست سنوات لتصبح نائباً أو تصبح وزيراً، ومن ثم النســـاء، الطعـــام، المشروبات، الفن، والعالم.. فتجاوز ذلك... إني مستعد أن أقضي كل حياتي في

الجن.. حسناً وإذا أنا شيوعي؟ أقسم بأنهم سيعتقلونني ويعدمونني، كما أعدموا صبحي ورفاقه، وهل هذا كل ما سألت نفسي في باطوم؟ بل تساءلت أيضاً: أتخاف أن يقتلوك؟ لا أخاف... أجبت، فوراً وبدون تفكير كلا. وقد شعرت في البداية بأنني خائف لكنني الآن لا أخاف.. ثم تساءلت: إنني أوافق على أن أموت تجاه ذلك، ولو قطعوا قدميّ وأعموني، وفقؤوا عيني، أو أن أصاب بالسل، ومرض القلب، أو العمى؟ أو أن أفقد بصري؟ انتظر قليلاً هنا، أنا لم أفكر بأن الرجل يمكنه أن يفقد بصره. نهضت، أغمضت عيني، تمشيت في الغرفة.. لامساً الأثاث بيدي. تمشيت في الغرفة، في الظلمة حيث أغمضت عيني.. وصرخت مرتين، دون أن أفتح عيني.. ووقفت أخيراً بجانب الطاولة، وفتحت عيني: أوافق على العمى.. إن هذه طفولية، بل أمر مضحك.. بل هي الحقيقة... ولم تتمكن الكتب والدعايات من لف دماغي. ولم يكن مركزي الاجتماعي هو الذي قادني إلى هنا، بل الأناضول هي التي قادتني إلى حيث أنا. الأناضول التي لاحظتها عميقاً، من الضواحي.. وقلبي هو الذي قادني إلى هنا حيث أنا.... وهذا كل الأمر...

الخط السابع

كان أحمد يقظاً عندما نهض إسماعيل عند الفجر، لكنه تظاهر بالنوم وراح يراقب إسماعيل من بين مقلتيه، وأخذ إسماعيل ملابسه، وتناول مسدسه، أداره، ولفه، ثم وضعه في جيبه. وأخذ من " النملية" سجقاً وخبزاً وأكل واقفاً.. فتح الباب بهدوء ثم أغلقه خلفه. كان أحمد يراقبه بعينين نصف مغمضتين، وفجأة أحس بغربة في الداخل والخارج، في الشوارع وعلى المصطبة ذات الدلبة، على متكآت حسني. في قاعة شكري وفي الخلاء، في أزمير وموسكو في شارع تغيرسكا، وفي علّية آنوشكا على البحر، وفي اتساع الكون كله. إن شيئاً ما قد زال.. متى؟ هل عندما كان نائماً؟ لكنه ومنذ ثلاث ساعات كان مستيقظاً، وفي هذه اللحظات أحس ذلك الذي زال فجأة.. ربما منذ أن توقف هدير المحرك انقطع فجأة. وأصغى أحمد إلى الصمت، لا إلى الحفيف والوشيش.

* * *

دخل سي–يا–و إلى الغرفة، وكعادته، على رؤوس أصابعه. ولم يسبق له أن عاد متأخراً.. عند الفجر. الثلج يسقط على الشبابيك ذات الزجاج السميك "أنا أعرف من أين أتى سي–يا–و" جلس خلف الطاولة.

* * *

الطاولة كبيرة، طولها بالتأكيد متران، وعرضها ثمانون سنتمتراً. ولماذا تكمل المتر؟ يجب قياسها. ترى هل هي أطول من كوخنا الذي نحفره؟ وهل قبرك بيدك؟ يا للشياطين! تقول الأغنية الشعبية:" ليحفروا قبري على قارعة الطريق" غنتها لي المرضعة في بيتنا القائم على ساحل البحر، فيما كنت أبكي أخذ إسماعيل المسدس.

* * *

نهض سي–يا–و عن الطاولة، أخرج من الدرج إزميلاً وقطعة عاج للحفر، ثم أخذ يبرد العاج ويقطعه، ولم يخلع قبعته. لقد أعطونا هذه الغرفة منذ شهرين،

لأننا نحن الاثنين مسؤولا القسم الفني، أنا عن الطلبة الأتراك وهو عن الصينيين.

ولا يزال سي-يا-و يريني القطع العاجية التي يبردها: إنها صبايا صينية طولها عشرون سنتمتراً، وكذلك نقشت بنايات طويلة ودقيقة تلتف حول ذاتها حلزونياً، يفوق بعضها بعضاً في الجمال والرقة، لكنها ممسوحة بالكآبة، كما تمثّل رجالاً مسنين شيباً أو صلعاً وعمالقة يجلسون واضعين أرجلهم الواحدة فوق الأخرى، وكروشهم الكبير فوق ركبهم. ومنذ شهر يصر علي كي أرى هذه الوجوه العاجية، وقد تظاهرت بأني لا أرى شيئاً، لكني أعرف ما يريده من الوجوه العاجية .. المنبه يرن، دسّ سي-يا-و في جيبه ما كان يخبئه في يده. لكن متى خلع قبعته؟ يعني أنني غفوت منذ لحظات. المنبه يرن كأنه لن يتوقف البتة. لم يسبق لي أن سمعت منبه إسماعيل في الصباح، لقد كان يضعه تحت وسادته.

- هل وصلت يا سي-يا-و؟

- ماذا؟

- لأن سريرك لم يخل.

لم يجبني، لكنه كان واضحاً أنه زعلان، ولأنني أعرف أنه رغب في أن يخفي عليّ وصوله الآن، وأكثر من هذا، إنني أعرف ومع هذا سألته:

- هل كنت أيضاً مع آنوشكا؟

رمقني وكأني فعلت شيئاً سيئاً.

* * *

- أعرف بأنك تحبها.

ولم يرد، بل تابع نظراته إلي.

- أمثل هذه الأمور تخفى على الأصدقاء أيها البشري؟.. وهل تحبك هي؟

- لقد خجلت في نفسي، لكن ما الذي جعله حتى الصباح مع آنوشكا- لم يخطر على بالي أنهما تعانقا، تبادلا القبلات وما شابه..كلا، أعرف أنهما تمشيا على طول نهر موسكو، دون أن تتلامس أيديهم، هذا ما رأيته بأم عيني،- إلا أن

وجوده مع آنوشكا حتى الفجر قد جنني، ولاحظت الآن أن هذا يقودني للجنون.

– وآنوشكا تحبك أليس كذلك؟

– لا.

توقف هطول الثلج.. وهناك جلس على مقاعد في جادة تفيرسكا. صعدت نحو ساحة ستراسين.. عبرت الكلاب، هذا كلب وهذا ذئب، ليس أصفر، إنه أحمر. الكلاب ليست صفراء.. طفلة صغيرة تسير إلى جانب أرجلهم. وهذا كلب مسعور يعض.. ربما يغدركم من الخلف وبهدوء يعضكم في ربلة ساقكم اليسرى." خرج إسماعيل ولم يغلق الباب جيداً، فتخلل منه نور الصباح وصرت أرى جيداً".

... أعد مقالة عن تأثير ثورة أكتوبر في الفن بصورة عامة، والفن الروسي بشكل خاص. أجلس في مكتبة الجامعة، في صمت يشبه هدوء حديقة المنزل القائم على البحر في أوسمودار، وفي هدوء الخريف. أمامي كتب ووثائق تتعلق بالموضوع، لم افتح واحداً منها هذا المساء، ليس لدي رغبة في العمل... إن أمتع درس بالنسبة لي هو درس الاقتصاد السياسي، وقد استمعت إليه بغير رغبة هذا الصباح. في المكتبة أيضاً طالبان غيري، واحد روسي، وهو شاب صغير، فقد ذراعيه في الحرب الأهلية، ويستعين بقطعة خشبية أمسكها بأسنانه لطي صفحات الكتاب. أما الآخر فلا أعرفه، لكن يبدو من قسمات وجهه أنه منغولي.

على الطاولة الفارغة، وعلى طرفي الأيسر ألاحظ مجموعة " البرافدا" أخذت منها أحد المجلدات لعام ١٩٢٢، ومن العناوين الرئيسة في الصفحة الأولى وصايا للعام الجديد:" أيها الرفاق! لا تنسوا أنه إذا لم يبرهن العمال والفلاحون عن عطاءاتهم هذا العام فإنه سوف تنفتح قبور جديدة على طول نهر الفولغا، إن أمنياتنا في العام الجديد هي: قهر المجاعة، وانتعاش الصناعة، والمحصول الوفير من الحنطة، وانتصار الثورة البروليتارية في العالم كله". قرأت بقية الأخبار: في مصر

حرب من أجل السيادة الوطنية، الحكومة التشيكوسلوفاكية تقدم ثلاثة عشر مليون كورون إلى ضحايا المجاعة في روسيا. قلبت الصفحة: إضراب عام لعمال السكك الحديدية في ألمانيا. إضراب عمال الطباعة في الصين. في بريطانيا يستعد عمال المناجم للإضراب. العاشر من كانون الثاني: يزداد إنتاج النفط في باكو، حرب الشوارع في ايرلندا. عناوين الرابع عشر من كانون الثاني:" تذكر الجائعين عندما تقبض راتبك. وحين تطعم أطفالك لا تنس أطفال الفولغا الذين مات أهلهم من الجوع". وأخذت أبحث عن أخبار تركيا، فوجدتها، في السابع من شباط تصريح للرفيق قرونزي العائد من أنقرة: عقد اتفاق بين تركيا وأوكرايينا. الجمعية الوطنية العمومية تتمسك بالصداقة التركية – السوفييتية. وفي العاشر من شباط تصريح للرفيق قرونزي أيضاً:" إن الرعب الذي كان في عهد القيصرية الرعب من موسكو، الآتي من الشمال من خطر الإمبريالية، لعب دوراً كبيراً بين الجماهير التركية الواسعة، هذا الرعب الذي تميز بخصائصه الفكرية هو من المناطق الروسية. كما لاحظت نبأ آخر في آذار يقول:" نحن نشكر الحكومة السوفييتية لمطالبتها بأن تحضر تركيا مؤتمر جنيف".

دخل بيتروسيان، أمين خلية الحزب في الجامعة، لكنه اليوم لا يحمل وسام العلم الأحمر، ونظر من وراء كتفي إلى " البرافدا" المنشورة أمامي كالشرشف.

– جرائد من الاثنين والعشرين– تبدو للإنسان وكأنها منذ عشر سنوات وليست منذ عام، ذلك ما همسته له.

وافق بيتروسيان بهز رأسه وهمس:

– يجب أن تكون ثمة مقالة حول مشاكل السياسة الزراعية عندنا إذا مررت عليها فسجل تاريخ صدورها، في تشرين الثاني أو كانون الأول.

– حسناً.

قلت له.

ذهب بيتروسيان فهو يعد دراسة حول المشكلة الزراعية في الشرق الأوسط. وقال: " إذا عملت بجهد كبير، فسوف يستغرقني ذلك ثلاثة أعوام". وهو

مصاب بالسرطان، ويعرف جيدا أنه لن يعيش سوى ثمانية أو تسعة أشهر أو سنة على الأكثر.

ولقد أعطت إيران ثلاثمئة صاعاً من الأرز، واثنين وعشرين صاعاً من الزبيب للأطفال الذين يعانون المجاعة في الفولغا، وأرسلت الولايات المتحدة الأمريكية سبع سفن محملة بالذرة، وقرر مجلس الوزراء البريطاني تقديم مساعدة مالية لروسيا نقداً. ووصلت إلى الخامس عشر من آذار، وهنا أيضاً عناوين:" على كل منظمة وكل مواطن أن يسأل نفسه: هل فعل شيئاً لنجدة ضحايا المجاعة، ينبغي الرد على هذا السؤال ضمائرياً، إن الذين سدوا آذانهم حتى الآن عن أنين جميع الذين يموتون جوعاً يجب أن يوصموا بالعار، ويوسموا بوشم المجرمين" الشيوعيون السويديون أرسلوا ألفاً وخمسمئة وستين صاعاً من الدقيق والأسماك، وكذلك عشرين ألف كورون. لينين يتحدث في المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الروسي، الديكتاتورية الفاشية في إيطاليا، وأيضاً نبأ من عندنا: الشيوعيون الأتراك يرسلون برقية تهنئة بمناسبة تحرير فلاديستفوك من قبل قوات الجيش الأحمر، والجمعية الوطنية تصدر بياناً تعلن فيه حل حكومة إستانبول.

من خلال النوافذ يرى الثلج يتساقط بنتف كبيرة في إحدى أمسيات موسكو، والشاب المقطوع الذراعين يطوي صفحات كتابه بسرعة بطرف عصاة صغيرة يضعها بين أسنانه.

عناوين السابع من تشرين الثاني:" تحية أيها العامل في الغرب، أنت الذي تدعم جمهورية العمال الروس. وسلاماً خاصاً عليكم أنتم يا عمال المناجم الشيوعيين في ألمانيا، يا من أطحتم بغليوم، وعليكم اليوم أن تطيحوا بعرش "سيتينس" الدموي." وفي نفس العدد كلمة لينين بمناسبة العيد الخامس للثورة: "أيها الرفاق الأعزاء، أحييكم بمناسبة الذكرى الخامسة لثورة أكتوبر، وأتمنى عليكم هنا: أن تكون انتصاراتنا كبيرة في الأعوام الخمسة القادمة، وأن تحرزوا هذه الانتصارات بالسلام لا بالسلاح. صديقكم لينين".

وفي العدد نفسه:" أيها الشباب خذوا أمكنتكم بين الرجال، مكان الرجـــال الذين قضوا".

– متى جئت إلى غرفتي؟

– لقد أعجبتني لوحة كثيراً، كثيراً، وأيضاً لوحة أخرى، واثنتان أخريـــان.. وهكذا.. لكني لم أحب البقية البتة..

لماذا أخفى سي–يا–و علي بأن آنوشكا قد أتت إلى الغرفة؟ ومتى كان ذلك؟ وماذا فعلا في الغرفة؟ حسبت أن قلبي سيقفز. ثم خجلت كثيراً لمبـــالغتي فينـــا تصورته... ولكن ماذا إذا كان سي–يا–و نذلاً فوق كل هذا؟

– لماذا لا تتكلمي؟

– إن سي–يا–و يصنع تمثالاً صغيراً لك من العاج، أليس كذلك؟

–لست أدري... لقد رجوته مراراً أن ينحت لي قطة.. إنني أعبد القطـــط، لكنه لم يفعل، يبدو أنه لا يعرف أن ينحت القطط.

–أحضري لي قطة، وسوف أرسمها لك بالزيتي..

– ولكن ليس لدي قطة.

–حسناً، سوف أرسم قطة من ذاكرتي، قطة أنقرية ضخمة.

دخلنا إلى حديقة معبد سياستيل الذي يطل على نهر موسكو، وهذه أول مرة أجيء إلى هنا ليلاً، وفي الشتاء.

كانت المقاعد الخشبية المكسوة بالثلج مشغولة، وجلسنا على طرف بعيـــد، وفي مكان نظيف.

– آنوشكا، أنت تعتبرينني شخصاً سيئاً قليل التربية، أليس كذلك؟

–كلا، بل أرجو ألا تبالغوا في فظاظاتكم إذا نسيتم أنكم حفيد باشا.

– هل سمعت هذا من الطلبة الأتراك؟ إنني أعرف جيدا من الذي حـــدثك بهذا.

– لم يقل لي أحد شيئاً، لكنني قرأت ذلك في إضبارتك.

– هل تقرئين اضابير جميع الطلبة؟

– كلا، بل قرأت إضبارتك.

لم أسألها لماذا، ولو سألتها لكانت أعطتني جواباً ممكنـــاً ولكـــني تصـــورت الإجابات الجنونية في الحال..

وفجأة دوت صفارات.. صفارات البوليس، وعلا صراخ، وشخص يركض.

– هذا زوج هنا أيضاً.

لم يكن الوقت كافياً ليفهم أحمد وآنوشكا ما يحدث لهما.

أحد رجال البوليس ذو شاربين ثخينين اقترب منهما وأمرهما:

– تقدما.

ثم لاحظ أحمد الجماعة الصغيرة من الرجال والنساء الـــتي أخرجـــت مـــن الحديقة. ولم يسبق له أن حدث معه ذلك، لكن أصدقاء حدثوه عن ذلك..ففهم الآن، ولم يترك رجل البوليس ذراع آنوشكا.

–اتركها فنحن طلاب.. قال له أحمد..

– أنا لست طالبة، أنا ضاربة آلة كاتبة في الجامعة.

– سوف تشرحان الأمر في قسم الشرطة..

وصفر، مرة بعد الأخرى، ووصل عضو آخر في البوليس، وهـــذا بـــدون شاربين.

– ها هما اثنان.

– نحن لا نلعب، ماذا يحدث؟ ماذا تريدون منا؟ ولماذا نذهب إلى القسم؟ نحن لا نفهم شيئاً.

– ماذا كنتما تفعلان هنا؟

– كنا نجلس على المقعد.

– يعني كنتما جالسين، أليس كذلك؟

قال أحمد: نعم.

- وكأخ وأخت؟

وأعاد أحمد نفس عبارة رجل البوليس:" وكأخ وأخت".

- أنت لا تبدو لي أنك كنت جالساً بهدوء، هل أنت جيورجياني؟

- كلا أنا تركي، لاجئ سياسي، كومونيست.

ثم فحص ذو الشاربين الأوراق والوثائق الثبوتية التي مدها أحمد بقرب المصباح الكهربائي، ثم سأل الآخر: هل ضبطتهما يفعلان شيئاً؟

- كلا.. ولكن ماذا يفعل شاب وفتاة هنا؟ لا بد أنهما كانا يعملان شيئاً.

وقالت آنوشكا: نحن لا نعلم بأن هذا المكان سيئ السمعة هكذا.

الآن أصبحتما تعلمان..

- لن نعود إلى هنا أبداً.

- حسناً، بإمكانكما أن تجلسا، إذا أردتما، ولكن لو كنت مكانكما لذهبت فوراً..

وخرج أحمد وآنوشكا من الحديقة، وكانا يبتسمان باللاشعور.

لم يتحدثا، ولديهما، وخاصة لدى أحمد، شعور غريب، وخجل وحرارة قليلة. وفي ظلمة سقيفة في باحة بيت آنوشكا، قبلها فجأة، ولم تمنعه آنوشكا" لقد استسلمت لشفتي.. وضربني نور في قلبي، لمع فيّ من رأسي حتى قدمي. أما آنوشكا فلا تعرف التقبيل، وأخذت رأسها بين كفي".

- انظري إلى عيني، يا صغيرتي.. إن أحداً لم يقبلك قبلي أليس كذلك؟

- أجل.

- أنت تكذبين.

- اتركني.

أردت أن أقبلها مجدداً، لكنها رفضت، وهذا المساء أريد أن أرسم قطة..

دخل صديقنا حسن، تظاهر بأنه لا يراني، وجلس إلى طاولة بعيداً عني إلى اليسار. كان حسن صف ضابط في الجيش العثماني، وقد أسرته القوات القيصرية

في القفقاس، وأرسل إلى سيبيريا للأشغال الشاقة، وفي علم ١٩١٨ انضم إلى البلاشفة، وفي عام ١٩١٩ تعرف على مصطفى صبحي، ما من شك بأنه لا توجد جبهة لم يقاتل فيها حسن ضد البغيضين: لقد قاتل ضد الكولتشاك، والتشيكيين، وضد فرانغيل، ومع الفيلق الأحمر الذي شكله مصطفى صبحي، وحارب ضد الطاشناق، والمناشفة الجيورجيين، أما الآن فهو طالب يدرس الفلسفة في الجامعة. وكانت رغبته أن يصبح مهندساً، وهو لا يطيقني، وأعتقد لأنني تمكنت من أن أصل بسهولة إلى جامعة موسكو، دون أن أطلق رصاصة واحدة ضد الإمبرياليين والرأسماليين وضد الأعداء الطبقيين، ثم إنه لن يغفر لي كوني حفيد باشا) وفي عام ١٩٣٢ أصبح حسن مهندساً، وقد أُعدم رمياً بالرصاص عام ١٩٣٧، وأعيد إليه اعتباره بعد المؤتمر العشرين). وعدت إلى أعداد" البرافدا". عدد السابع من تشرين الثاني ١٩٢٢.

" إننا نجتاز جدران السجون وحدودها، لنحيي في الذكرى الخامسة لانتصار البروليتاريا، الرفاق الذين أعدموا وعذبوا ونفوا وطردوا بسبب الخدمات الجليلة التي قدموها للشيوعية، الرفاق الذي سجنتهم الجندرما البورجوازية، وأولئك الذين يعانون الألم في السجون".

دخلت آنوشكا فيما كنت أعكف على قراءة " البرافدا" لكني أرمق بطرف عيني تحركات الفتاة، رأتني.. أظهرت حركة أنها سوف تتجاوزني وتعبر، لكنها توقفت، شعرت بأنها جلست خلفي إلى طاولة قرب الباب، كتبت البرافدا: "يجب تنظيف سيبيريا من اليابانيين".

" يجب العمل بحزم ضد الرأسمال الدولي"." يجب إيجاد لغة مشتركة بين العمال في أمريكا"، "يجب ضمان توازن الميزانية"." يجب اجتناب أن تعمل المصانع على الفارغ". هذا ما تقوله البرافدا. لقد عثرت على العقالة التي يبحث عنها بيتروسيان:" القضايا التي تواجه سياستنا الزراعية" في الواحد والعشرين من كانون الأول ١٩٢٢، نهضت، فوجدت أن آنوشكا فعلاً جلست إلى طاولة قرب الباب، ورائي كما اعتقدت.

- تعالي قليلاً لنخرج.

خرجت إلى الرواق ـــ وتبعتني.

- ماذا تريدون؟

هذه الليلة تنــزهت مع سي- يا-و على طول نهر موسكو، أليس كذلك؟

- وما علاقتكم بذلك؟

- هذا الشاب يحبك بجنون..

لم تحر جواباً، واسودت زرقة عينيها.

-وأنت أيضاً تحبين سي- يا- و.

- ولماذا لا أحبه؟ ماذا تريدون مني؟ ولماذا دعوتموني؟

- ماذا تقرئين الآن؟

ابتسمت فظهرت غمازة في خدها اليمن.. الأيمن فقط.

-أقرأ بيسنيين.. هل لديكم أسئلة أخرى تطرحونها؟

- كلا.

* * *

- كلا، كلا يا إسماعيل.. لم تعرف الحقيقة أبداً.. إن الفتاة لم تكن تنظــر إلي بتكبر، لقد فكرت في كل شيء، وفي جميع الاحتمالات ولكـــن لـــيس في أنهـــا تلعب..ولو كان ثمة أدنى شك في تصرفاتها للاحظته، ولماذا تريد أن تخلب لـــبي؟ على كل حال إن جميع الطلبة في الجامعة يلفون حولها.. وهي حميمة سي- يا-و - ومع الآخرين تمزح وتضحك، ترقص، وتتمشى، وهذا كل شيء، وما مـــن أحد تخطى ذلك.. ولعله يفكر بذلك لكنه لم يتجاسر.. وإنها لفضيحة كبيرة لـــو علم الناس بما كان يدور في رأسي، وغن تجاوز هذا الحد من التفكير هو كالنشوة التي يفعلها الأفيون في الإنسان.. نحن لا نعرف مما تتكون هذه النشوة، ولعله لم يسبق لأحد أن تحدث عنها، ولكن لو كنا نعرف ذلك، ولو سكرنا وصحونا من الأفيون، فإن الناس سوف يسخرون منا أليس كذلك؟ إن الأمر متشابه هنا.

هذا المساء يحتفل الصينيون بذكرى واقعة مجيدة لحركتهم الثورية، وقبل افتتاح الأبواب دخل سي-يا-و وآنوشكا إلى قاعة مسرح نادي الجامعة، وكانت حول خشبة المسرح أكاليل من الزهور.

- أين وجدت كل هذه الأزهار في الشتاء؟

كانت الأزهار من الورق، ووضع سي- يا-و في راحة أحمد بتلة بلون الشاي، وعلى البتلة حشرة حمراء،فيها نقاط بيضاء من الورق.

- ولكن من الذي سيلاحظ هذه الحشرة يا سي- يا-و؟

- الذين يبحثون عنها..أو إذا كنا نريد أن نبرهن عن براعتنا..

وعلى الجدران من أعلى إلى أسفل كانت ألواح من القماش الأحمر مزخرفة بالحروف الصينية، وأنا أعرف أن أكتب اسمي بالحروف الصينية، دخل الطلبة المدعوون إلى القاعة يضحكون، يتدافعون، ولم يلفت الصينيون ولا اليابانيون ولا حتى الزنوج الانتباه هنا، بل طلبة القفقاس وآسيا الوسطى، والأمر يعود للملابس الخاصة التي يرتدونها بلا شك، فهم يخطرون بأزيائهم تلك، مع مسدساتهم وخناجرهم في شوارع المدينة، وفتيان آسيا الوسطى أجمل من الفتيات، وعلى خشبة المسرح فوق منصة الرئاسة، صور ماركس وأنجلس كما أطرتا بإطارين من الزهر، فدوّى التصفيق :" لقد انتخبنا عشرين عضو شرف لهيئة الرئاسة، اختيروا من بين زعماء الحركة الشيوعية العالمية، وأعطى بيتروسيان الكلمة إلى ليو، وهو شاب هائل الجسم، والذين لم يكونوا يفهمون اللغة الصينية، وهم الأكثرية، كانوا ينظرون إلى الصينيين وهم يقاطعون خطاب ليو بالتصفيق، وأعتقد أنني رأيت كرة أرضية مربوطة بقيود، وعاملاً، أكبر بمرات ثلاث من الكرة على الأقل، يهوي بهراوته على القيود، وسمعت بعدها قرقعة الحلقات الضخمة الصدئة التي تتحطم وتنسحق، ولاحظت أمامي إلى اليسار آنوشكا تجلس بين طالب هندي وآخر إنكليزي مسنّ يعمل في الكومنتيرن، وقد جرت ترجمة خطاب ليو إلى اللغة الروسية. إن كل ما قاله أومن به أنا أيضاً. لقد علل الرأسمال العالمي على أنه

خيوط عنكبوت ضخمة مع رأس خنـزير ملبد في الخيوط المؤلفة من دخان المصانع، وأصابعه السميكة القصيرة مكسوة بالخواتم، بينما يخفي العنكبوت أصابعه في كدسة من الذهب المكوم أمامه. وأدارت آنوشكا رأسها والتقت عيوننا، فابتسمت من طرف شفتيها المليئتين. إن أذني آنوشكا أكثر فتوة منها، إذ لا يزيد عمرهما عن أربعة عشر عاماً، وعلى خشبة المسرح تتكلم شابة أوكرانية باللغة الأوكرانية، وتنفش آنوشكا شعرها بيدها على رقبتها، لقد عرفت اسم الفتاة الأوكرانية، إنه لينا وكنيتها بورتشينكو، لينا بورتشينكو، وهي ذات شعر كستنائي، وتبدو غمازتي خديها حين تتكلم على الخدين، وليس على الخد الأيمن مثل آنوشكا، شيء ما فيها يذكرني بفتيات إستانبول، كما لم يسبق لي أن رأيت أحلى من هاتين الساقين، وأنا أفهم ما تقوله الفتاة الأوكرانية، على الجدار تكتب يد: الأممية الثالثة.. وينهال الرأسمال الدولي مرتعباً، ويتدحرج إلى أسفل الجدار مع قبعته العالية وكرشه الضخم.. وأنشدنا جميعنا النشيد الأممي بصوت واحد، وكل بلغته الخاصة. إن كلمة الأممية وحدها لم تترجم، فالصينيون يقولونها بالصينية.

وفي القاعة سألت آنوشكا:

– هل تبقين للحفلة الموسيقية؟

– كلا بل سأذهب الآن.

– أتريدين أن أوصلك إلى المنـزل؟

كان الليل حالكاً، ولم يكن وميض الجليد لينير الطريق، ولم يكن الطقس بارداً، وكنا نسير باتجاه نهر الموسكو عبر الشوارع، وقالت آنوشكا:

– لقد قتلوا أبي أمام ناظري.

– إن قاتله كولتشاك أليس كذلك؟

– لقد قرعوا الباب، فتحت أمي، فدخلوا إلى غرفة والدي، وكنت هناك، كانا ضابطين، أحدهما أشقر ذو عينين زرقاوين واسعتين، أخرج مسدسه وسدد إلى رأس أبي وأطلق ثلاث مرات...

" حسنا، ولكن بعد ذلك، ماذا فعلوا بكم؟ وكيف أمكن أن تأتوا من سيبيريا إلى هنا؟ وأين ماتت والدتك بالتيفوس؟ هذا السؤال لم أطرحه عليها..

– أنا أرسم.. إنني رسام...

أعرف هذا، رأيت ذلك في غرفتكم...

وخلال ثلاثة أشهر رسمت القطة الثامنة أو التاسعة..

أمطار الربيع تهطل في موسكو

قال لي سي – يا– و.

– إن آنوشكا تحبك.

– أين وجدت هذا؟ أسألتها.

– هي وحدها قالت لي ذلك.

* * *

وضجة المحرك درن– درن– درن– درن.

– أطفئ المصباح يا أحمد.

وقبل أن يطفئ المصباح رسم خطاً سابعاً على الباب.

– يا إسماعيل، قل للرفاق إنني ذهبت.. ومن الأفضل أن لا يعرفوا بأني هنا.

– حسناً، حسناً، ثم...

وهدير المحرك درن درن– درن– درن.

الخط الرابع عشر

لم ينتظر أحمد المساء، وخطّ على الباب، بعد خروج إسماعيل بساعتين– ثلاث– وبالرغم من أنه يعرف جيداً أنه الخط الرابع عشر، لكن قام بالتعداد: واحد وأربعون ناقص أربعة عشر يبقى سبعة وعشرون.

ووضع عينه على ثقب الباب، ثم تراجع بسرعة. ونظر مجدداً، رأى امرأة شابة سمراء، حافية القدمين، تلبس سروالاً منتفخاً في رجليه، ومئزراً أصفر على رأسها. جاءت تنشر غسيلها على الخشب، ومعها غلام صغير، تعرى حتى سرته. ونظر الصغير نحو الكوخ، وتراجع أحمد، كأنما كان يمكن رؤيته عبر الباب، لابد أنهم من الغجر– والغلام يلح: "أريد أن أدخل إلى الكوخ" صاحت به المرأة: "مستحيل ألا ترى القفل؟" أجاب الغلام "سوف أفتحه".

ثم أخذ يعبث بالقفل، وتراجع أحمد إلى زاوية في الكوخ. ثم تطلع الغلام من شقوق ألواح الباب. وقال: "المصباح مضاء". وراح أحمد يحملق في ذاته وبالغلام والمصباح ووحدته. حاول الغلام تحطيم القفل فصاحت به المرأة. وشاهد أحمد من شقوق الباب كيف كانا يتحركان ويتصايحان.

أخذ الغلام يصرخ، لكنه نال صفعة على ما يبدو. المرأة والغلام يبتعدان. ولا يزال أحمد بلا حراك في زاويته ربما عشر دقائق وربما ساعتين. "وها أنا أسير على رؤوس أصابعي– هل أنا مجنون، وهل يسمع صوت قدمي الحافيتين، واقتربت من الزاوية، وقرفصت المرأة واضطجع الغلام على صدره، فتراجعت إلى زاويتي، سحبت كرسياً وجلست. وشبكت يدي على صدري. أخذت المرأة تغني. لديها صوت دافئ. ويقال أن الغجريات حاميات. نضب زيت المصباح.. للشيطان..".

نهض أحمد واتجه نحو صفيحة الكاز، فتذكر فجأة بأنه لم يعد هناك كاز وسيجلب إسماعيل كازاً في المساء وعاد إلى كرسيه. الغلام يتحدث مع رجل ما. قال الغلام كيف يضيء المصباح في الكوخ، فقال الرجل: "ممكن أن صاحب

البيت نسيه عندما خرج". ثم اقتربا من الباب وراحا ينظران. اهتز لهب القنديل ثم انطفأ. قال الغلام: "لقد أطفئ المصباح". فصاحت به المرأة: "اترك هذا المصباح". الغلام يلح: "إن في الكوخ أشباحاً".

تلاشت الضجة. نهض أحمد ونظر خارجاً، لا يوجد أحد، ولا حتى غسيل، وسد شقوق الباب بورق جرائد. ثم تمدد على ظهره فوق السرير. "لا ترى الإصبع أمام العينين من شدة الظلام. والموت ليس ظلاماً، ولا الصداع، والرعب، والزمجرات والتشنجات، ولا الريق الذي يسيل، ولا إسماعيل الذي سيلهب دماغي بالمسدس. إنني أحس كآبة ليست هي الظلمة. والموت ليس هو الكآبة، يا للشيطان..".

عاد إسماعيل. "لقد نصبوا خيامهم على الجانب الآخر من القلعة. كان ضياء يعبد الغجريات. وكان يقول دوماً: لو لم أكن قد أقسمت بأنني لن أتزوج أبداً، لتزوجت غجرية". تناولا طعامهما في الكوخ دون أن يفتحا الباب.

– يجب اكتشاف حبوب ضد داء الكلب، دون اللجوء إلى الحقن. أليس كذلك. وسينتهي الأمر بالعثور عليها، وسترى ذلك يوماً من الأيام... قال لي إسماعيل.

– لا تقرب الحمار من الخضار.. قال أحمد. ولم يضحك لأنه كان خجلاً من هذه النكتة الحمقاء. قال إسماعيل: لن يحدث لك شيء أبداً. ونظر إلى الباب وعليه الخطوط.

– هذه هي الرابعة عشرة– قال أحمد.

وحوالي منتصف الليل، خيل لأحمد أن أحداً يدق الباب، فنهض واقفاً فوق السرير. وفتح الباب.

مسح أحمد جبهته بيده، ونظر نحو باب الكوخ: "أهي الشرطة؟ "ثم أصغى "لا شيء سوى هدير المحرك درن– درن– درن...".

– فتحت الباب. العام ١٩٢١. ومنذ أربعة أيام وثلاث ليال ونحن في أينيبولو. رجلان مجهولان يقفان أمام غرفتنا في الفندق. وأسمع هدير البحر

الأسود. وأمام غرفتنا في الفندق يقف رجلان بالقلبق والبنطال ظهرهما مضاءان بنور مصباح الكاز المضاء في نهاية الرواق.

سليمان وتوفيق جلسا في سريريهما. فيما قال ذو القلبق:

– ارتدوا ملابسكم، أيها السادة.

سأله توفيق:

– ما الأمر؟

– وخذوا حقائبكم.

سأل سليمان:

– وأنا أيضاً؟

– وأنت.

كنا نستضيء بقنديل نصف مضاء. سأل توفيق:

– من أنتم؟

– من ب. ع. (أي البوليس العسكري– المترجم).

واستدار أحد المجهولين نحوي:

– أنت، ابق هنا، يا سيد.

– وأضاء الآخر مصباح الكاز.

– هدوء.

ولم يتكلم معي، بل مع سليمان وتوفيق.

يدا سليمان ترتجفان وهو يعد حقيبته.

مررهما الأول أمامه. وذهبا. واستدار الثاني إلي:

– لا تخرجوا غداً قبل أن أصل إليكم.

– حسناً، ولكن...

– سنرجع السيد إلى إستانبول خلال ساعة بحراً. ابقوا في أمان الله.

وخرج. وفجأة أخذت أمعن في الأمر. فسليمان وتوفيق غادرا ولم يقولا لي وداعاً. إن ذلك لغريب جداً...

منذ أربعة أيام ذهب جدي إلى صلاة الصبح في جامع أسكيلي في أوسكودار، وهربنا أنا وتوفيق وسليمان من إستانبول إلى إينيبولو.

عبرت القوات الوطنية من إستانبول إلى الأناضول تحت احتلال الحلفاء وكان ذلك على طريقتين: عبر بينديك براً، وعبر البحر الأسود. كان أحد قادة المنظمة التي كلف مصطفى كمال بنقل الأسلحة من إستانبول قريباً لسليمان. أمن لنا ثلاث بطاقات مرور ووثائق مزيفة. وأخذنا الباخرة من سيركيجي. باخرة سوداء، ضيقة، مسطحة تشبه المكواة. دخلنا إلى الغرفة الصغيرة، جدرانها مرتع للذباب، كانت ضيقة وملتهبة كجهنم. أسند توفيق جبهته على النافذة وتكلم عبر الدموع: "هل هي المرة الأخيرة التي نرى فيها إستانبول؟ ونغادر بغير رجعة؟".

عندما بدأت السفينة بالإقلاع سمعت هديرها، صعدت إلى المتن. وقد قال لنا قريب سليمان: "لا تخرجوا من الغرفة قبل الاقتراب من البحر الأسود". لكن هدير المروحة شجعني. وبالحقيقة لم أكن قادراً على مغادرة إستانبول دون أن أجيل الطرف عميقاً ولآخر مرة، في مبنى السراي والجسر والقبب المغطاة بالزنك، والمآذن وأحجار الثكنة...

ومررنا قرب دراعة أميركية ذات أبراج صغيرة فولاذية. وكان من الصعب التقدم حول كيزكولا، قرب بيشيكتاشا، أو في حوافي البوسفور لأن البحر كان يعج بالطرادات وقاذفات الطوربيد والسفن التجارية. وجلت الطرف في هذه الكتل الفولاذية المعادية، بقلب منكمش. في حين أنظر إليها الآن بثقة. ولا أكترث لبحر إستانبول الآن، فالبحر تكثر فيه الغواصات في العمق أكثر من أسماك الطون والقرش وغيرها. وهذا كله لا يهمني. فأنا أسبح نحو الأناضول، نحو مصطفى كمال– باشا.

أنا في مقدمة السفينة. بين بالات الأمتعة وصناديق المسافرين، وبين مجموع البائسين من الرجال والنساء والأطفال، أتأمل مدينتي. لا أنظر لاتساع البحر

ولزاوية المدينة، بل أنظر إليه بمجمله. وأعلم: إن السكوتلنديين والنيوزيلنديين والهنود يقومون بالحراسة في هذه اللحظات، أمام الثكنة والمستودعات، اثنين، اثنين. وكالدمى ذات الحركات الإيقاعية، يقترب أحدهما من الآخر ثم يبتعدان ثم يقتربان وجهاً لوجه.. أعرف: إن هذه الطريقة من الحراسة تتناسب معنا. فما إن يدير الحارس ظهره حتى يرتمي رجالنا عليه ويضربوه ويدخلوه إلى مستودعات الأسلحة. وإذا كان الحراس من الهنود، وخاصة من السلمية، فلا حاجة لاستعمال السكين؛ إذ يستسلم هؤلاء الناس الطيبون دون أي احتجاج، بل أحياناً ما يساعدوننا. أنا أعرف :" أنا نقتل أولئك البحارة والمدافعين، والفرنسيين، والإنكليز، والأمريكان، والطليان واليونانيين، والمدغشقريين، والأستراليين، عندما يكسرون لنا نافذة، أو يضربون أطفالنا، أو يهاجمون نساءنا".

خرجت إلى الشارع من حديقة – غولهانا– كان الظلام ينشر خيوطه. والشوارع خالية تماماً، والعابرون هنا وهناك. توقفت في مكان ما صرير عجلات الترام، ولما خطوت خطوتين– ثلاثاً رأيت امرأة بملاءة تعدو إلى الجانب الآخر من الشارع، وهذه هي أول مرة أرى فيها امرأة مغطاة تركض، من المحتمل أنها هاربة، مطرودة، لم تصرخ، وتغطي وجهها، كانت تلبس حذاء في رجل واحدة، ولذا فهي تعرج. نظرت بعينين تعودتا تقدير الأمور، ومن خلال الغطاء والملاءة عرفت أن المرأة مسنة. تقدم الموظف الذي ركض إلى الجهة المقابلة– وأستطيع أن أعرف هذا الموظف، إنه موظف في المالية– محاسب. تقدمت المرأة مني ووقفت بعد أن صارت أمام الموظف:

– أنقذوني يا أخي – هكذا قالت المرأة أو ما شابه، لكني متأكد بأنني سمعتها تقول:" يا أخي" و" أنقذوني".

وفي الجهة الأخرى من الشارع جنديان فرنسيان، يبدو أنهما من مخيم الأجانب، ركضا وهما يحركان أيديهما بقوة، فانهارت المرأة عند قدمي، ومر بنا المحاسب، وفي نهاية الشارع وفي زاوية معينة عاد والتفت ثم توقف وتجمد، ثم

اقترب الجنديان الفرنسيان، فوقفت جانب المرأة، ولكمني أحدهما على أذني فترنحت- على ما أظن ذلك- وغاب صوابي، وأغمضت عيني، لكني لم أسمع أصواتاً:

- أمسك هذا الوغد من يساره يا شيفاسي..

- أجل سأفعل.

نظرت، فرأيت هذين الجنديين الفارعي الطول قد تمددا على الرصيف.

- اهرب بسرعة أيها الشاب (هذه الكلمات موجهة لي).

- اتكئي على ذراعي، أختاه (كانت الكلمات موجهة للمرأة).

- واهربوا أنتم يا سيد أيضاً (للمحاسب).

كانوا ثلاثة فتيان، وليسوا الثلاثة فتياناً، هكذا تراءى لي، رأيت سكاكينهم، مسح واحد منهم سكينه ووضعه في حزامه، ثم أخذ ذراع المرأة ودخلا إلى الحديقة.

إننا نقتلهم، وهم يخافون أن يمروا ليس في الليل فقط، بل وفي وضح النهار، وليس في شوارع إستانبول، بل في شوارع بيفلو، أعرف: إن هذا الخوف يجعلهم أكثر حقداً، فهم يتعاونون مع شرطة السلطة، ويفتشون منازلنا، ويعذبون رجالنا في مراكز شرطتهم والذين لا يموتون تحت التعذيب يرسلونهم إلى صحارى إفريقية، أو إلى جزر المحيط النائية. أجل، أنا أعرف أنهم سيصبحون أكثر حقداً، ونحن سنقتلهم وننزع أسلحتهم، ولكني لست من الذين يقتلونهم أو ينتزعون سلاحهم، فأنا لست قادراً على القتل والانتزاع، ولهذا اغتبطت عندما اقترح علي سليمان- الذي أعمل معه في نفس الجريدة- أن أرسم لهم كاريكاتوراً من وقت لآخر، اقترح أن أذهب إلى الأناضول.

وصلنا إلى إينيبولو بعد خمس وسبعين ساعة.

وفي إينيبولو لا يوجد رصيف للمرفأ، ولا ممر، وتلقي السفن المراسي في عرض البحر، ثم تنزل ركابها في قوارب للصيد، أما إذا هاج البحر تمر السفن دون أن تفرغ حمولتها أو تتوقف قرب إينيبولو.

كانت إينيبولو أول بلد أراها من الأناضول، وأرى هنا لأول مـــرة أيضـــاً الفلاحات الأناضوليات – وذلك في السوق– حيث جلسن القرفصـــاء دون أن يضعن حمل الحطب عن ظهورهن.. ورأيت أقدامهن التي تشبه السلحفاة الـــتي خرجت من قوقعتها، كما رأيت أيديهن وهي تمسك بحبل الحطب المحزوم بقوة، كأنها تمسك بساطور، وبصبر مقرون بمحبة تهزه وكأنها تهز سرير طفل.

ثلاث ليال وأربعة أيام صار علينا، أنا وتوفيق وسليمان، وتوفيق هو شاعر، وقد منحه السلطان في العام المنصرم وساماً لإحدى قصائده، وكان يردد طوال الطريق:" لعلها لن تجر علي هذه الجائزة المتاعب".

أصغي إلى هدير البحر الأسود الذي تميز مياهـــه في أوســـكودوار، وأمـــام المنـــزل بعذوبة أكثر وصخباً أكبر، سمعت صفارة إحدى السفن شديدة، كانت صفارة السفينة التي تقل توفيق وسليمان، هل سجنوهما في كابينة الســـفينة، أم ألقي بهما في قاع السفينة؟ آه يا للعثرة.. شيء من اليأس أخذ يلفني حتى بلغ حد الخجل وبسرعة. وبدا لي أنني لم أفِ بوعدي، ولم أخفّ لمساعدتهما وأعاونهما، إن ما سمح لي به الوقت أن أفعله هو أن أنعت نفسي جباناً. نهضت مـــن فراشـــي، وكان المصباح مضاء بعد.

ونهض ثم اتجه إلي وانحنى هامساً بنفس الصوت المهدج اللامبـــالي، ودسّ في جيبي مئة ليرة واعتدل، ثم راحت أصابع يده مجدداً تضرب على الطاولة.

نهضت وسقطت النقود على الأرض في الغرفة، فانحنيت ولملمتها، وفركـــت الأوراق المالية بيدي ثم أودعتها جيب بنطالي، وملأ قلبي قرف ممزوج بـــالحزن، ربما لأنني رفعتها من الأرض مضطراً، أو لأنني لم يسبق أن تلقيت نقوداً من أحد دون أن أبادله بشيء– باستثناء النقود من جدي أيام العيد– وهـــل لأن هـــذا الغريب صاحب الصوت المبحوح قد وضع النقود على ركبتي، أو بدافع أسباب غامضة لم أتمكن من معرفتها، وخرجت بدون تحية أو وداع.

وفي مقهى دخلت إليه، وعندما طلبت الشاي، فإن أول كلمة دخلت أذني– ولم أعرف مَن قائلها– كانت:

– إن الأشخاص الذين اختطفوا في السفينة البارحة مساءً سوف يلقى بهم في الماء في عرض كيريمبه.. هذا هو الأمر الذي تلقوه من أنقرة..

– وخرجت كالمجنون، وانتصبت، وأنا ألهث، أمام رئيس الشرطة العسكرية:

– يقال إنه سوف يلقي بسليمان وتوفيق في الماء.

– من أي شخص أنتم عرفتم هذا؟

– هكذا كان يحكي في المقهى..

– ممن؟

– لا أعرف.

– لا تفزع أيها الشاب، إن رفاقك سوف يبقون أحياء وسيصلون إلى إستانبول بسلامة..

لفظ هذه الكلمات بصوت محايد ومتهدج متعب، حتى إن كلمته" أيها الشاب" لم تثر غضبي وصدّقته..

وكان ذلك صحيحاً فقد أعادوا إلى إستانبول سليمان فعلاً وتوفيق فعلاً سليمين كاملين.. والأول منهما، سليمان، بقي هارباً من الدائنين، أما الثاني توفيق، فقد كتب قصيدة جديدة أهداها إلى سلطان، وبعد إعلان الجمهورية عملا في جريدة أصدرتها وزارة الداخلية، والآن هما نائبان في المجلس الوطني الكبير.

تناول أحمد، من تحت وسادته، علبة سجائره وكبريتة، وأشعل سيجارة، بينما إسماعيل يشخر شخيراً هادئاً.

في اليوم التالي ساعدني صاحب نـزل في استئجار حمار، وسرنا قبل الفجر باتجاه إستانبول في طرق جبلية.

لقد قالوا لي إن البرد سيزداد في طريقنا الصاعد جبلياً، ومعطفي ذو بطانة رقيقة، فنصحوني بوضع جرائد على صدري، وفي ظهري، وداخل حذائي، وهذا ما فعلته لوحدي، واشتريت قبعة من الاسترخان الرمادي، لكن الحمار كان

عاجزاً عن حملي أنا وحقيبتي، وعلى كل حال فعزتي لا تقبل السفر على ظهر حمار.

تركنا إينيبولو منذ ثلاثة أرباع الساعة صعوداً في المسالك الجبلية، ومن الطريق الذي كنا نتقدم فيه رأيت إلى الأسفل وإلى اليسار بلدتي، القصبة، والبحر الأسود، وعن يميني السهل، ومن أمامي القمم المكسوة بالثلوج، وكان على البحر صيف، وفي السهول ربيع، أما في الجبال فشتاء قارس.

توقفت:

– إيه يا بلادي، موطني، ومسقط رأسي، أناضولي الغالية.

وقد لاحظت أنني أصرخ وأشير بيدي اليمنى.

كان الحمار ينظر إلي شزراً، تمالكت نفسي، ابتسمت بحيرة لكن البسمة تلاشت فيما بعد، وقلت للحمار، باللهجة السابقة، ولكن دون أن أشير بيدي اليمنى هذه المرة:

–" أنا في سويسرا شاهدت مثل هذه المناظر على صور الشوكولا (كوبلر)".

إلا أن الحمار لم يجبني.

– دي.. يا أسود.. قلت للحمار.

كنت بين الفينة والأخرى أدير رأسي دوماً، يمنة ويسرة، وأتأمل المناظر مردداً:

" هل هناك أحد أسعد مني على وجه الأرض؟ " لكني لم أصرخ كلما خطر ببالي شيء، لأن الحمار يثير خجلي، ولست أدري لماذا.

لقد قطعنا الطريق تقريباً ، ولم نتعد نرى إينيبولو ولا البحر الأسود، وفي أحد الممرات شاهدت تسعة أشخاص، كانوا جميعهم شباناً، ومن خلال ملابسهم بدا لي أنهم جميعهم من إستانبول. كانوا يحملون على ظهورهم أشياء شبيهة بالحقائب، أو الأكياس، وكانوا جميعهم يدخنون، ثم حصل بيننا تعارف، كانوا ضباط احتياط. وقد حارب بعضهم في تشاناك– كالي، وبعضهم حارب في

فلسطين العربية المحتلة أو في ماليزيا، وبعد الهزيمة عادوا إلى إستانبول. ومنهم من كان أسيراً في الهند، كما كانوا في غالبيتهم معلمين، وقد وصلوا إلى إينيبولو قبل أسبوع، وهم في طريقهم الآن إلى أنقرة، ومنها سيتوجهون إلى الجبهة الغربية.

– كم عمرك؟ سألوني.

– تسعة عشر عاماً.

– إذاً سنلتقي قريباً في الجبهة.

وتابعنا المسير سوية، كان أحد عناصر هذه المجموعة مريضاً، فهو عائد من الأسر، وضعنا حقيبته على الحمار.

حل المساء، ونحن في جبال (إيلغاز) فدخلنا إلى مقصف " أجود" الواقع بين السفوح العظيمة والتضاريس الضخمة، ويقال إن في هذا المقصف يوجد عسل طبيعي وزبدة، وعندما أرخيت نفسي على المقعد طلبت عسلاً مع الزبدة لي ولحماري أيضاً. كانت الفطيرة ساخنة فسالت الزبدة حتى جبلت بالعسل.. لم أذق ألذ من هذه الفطيرة في حياتي، وفيما كنت أشرب العيران، لاحظت رفاق السفر يأكلون الجبنة والخبز اللذين يحملونهما في حقائبهم.

– لماذا لا تأكلون العسل والزبدة؟ سألتهم.

ولم يجيبوني، وقد عرضت عليهم عسلاً طبيعياً مع الزبدة، فلم يأخذ أحد مني إياه.. ولم يكن لدي الوقت لأفكر بما يمر في مخيلتي وقلت:

– ألم يعطوكم مصروفاً للطريق؟

– أجل أعطونا

– كم؟

– عشر ليرات للفرد.

في البداية أظهرت تعجبي، ثم خجلت، وقلت:

– لقد أعطوني مئة ليرة.. وأنتم تذهبون إلى الجبهة وأنا أتسكع، ولأن قريبي نائب في أنقرة منحوني مئة ليرة.." واسطة" ورجائي لكم أن تقبلوا مني ونأكل سوية هذه القطعة.

وبين قبول ورفض وخجل، جلب صاحب المقصف للجميع فطيراً، عسلاً وزبدة، فيما كنت أذوب في ثيابي من الخجل.. لقد كنت كقاطع الطريق الذي يستضيف فقيراً..

يا للشيطان.. أهكذا تفكيري؟ أم أن أفكاري الآن قادتني إلى هذه العبرة؟

جلس أحمد في العتمة على سرير لُفّ فراشه، كان هدير المحرك يبعث الحنين في نفسه، ويقفز به إلى مكان ما.. لقد حركه الحنين إلى مكان بعيد.. " أي مرفأ تعبر هذه السفينة بآلاف الأشرعة؟".

وعندما وصلنا إلى" قسطمون" أشار الحمار وكأنه يقول:

– ألا تريد الذهاب إلى عاهرة يا سيدي؟ إن العواهر هنا لا يحتجن إلا لغمزة بسيطة.

في هذه اللحظة فكرت في الأمر ملياً، فكرت في أن أذهب إلى عاهرة، لقد تملكتني الرغبة في النوم مع امرأة.. أية امرأة من الأناضول، حتى ولو كانت عاهرة. لكني تذكرت الزهري– السفلس– في قسطمون، لقد كنت أرتعد من السفلس، وكأني أصبت به في الحال..

– لا أريد– قلت له– لكن هل تريد أنت الذهاب إلى هناك؟

– حتى الآن، لا أريد، لكن في العودة، إن شاء الله تعالى، فسوف أذهب.

في قسطمون حضرت المحاكمة المستقلة " الخاصة".

– كم سنة سيحكم على جماعتنا؟

" على أية حال لن يعدموهم يا عزيزي، قال إسماعيل ذات مرة".

– وحتى الآن لا أدري إذا كان الحكم من محكمة قسطمون.

لقد حكمت محكمة قسطمون على رجل، وأمام ناظري– بخمسة عشر عاماً، وكان، هذا الرجل، إما فلاحاً أو عاملاً، حكمت بخمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة لأنه صنع العرق، ففي الأناضول يحرم الخمر.

وفي اليوم التالي لوصولي إلى أنقرة، أقام قريب لي فيها، حفلة عشاء لأصدقائه النواب، وعندما رأيت الزجاجات على الطاولة، سألت، لا عجباً ولا عنتاً ولا عن قصد، لكن هذا خطر ببالي:

– أليس العرق محرماً؟ ففي قسطمون حكموا على رجل خمسة عشر عاماً لأنه صنع عرقاً.

فابتسم قريبي:

– إن التحريم لا يجري علينا.

– لكن القانون يحرم ذلك.

– إذا كان القانون سيطال كل إنسان فإن العالم سينهار إذن..

وإنني أتذكر كل ذلك الحديث حرفياً، فقد قال قريبي:

– إن التحريم لا يعنينا، وإذا كان القانون سيطال كل إنسان، فإن العالم سينهار إذن..

وقد شربت العرق، ولم أفكر قط بألا أشربه، وليس في تلك الليلة فحسب..

أثناء العشاء، كان أحد النواب المشهورين– كما علمت مؤخراً– وهو رجل سمين الخدين، كان يراقبني:

– يا أحمد! لقد سمعت بأنك رسام ماهر، – وممن سمع ذلك؟ من قريبي بلا شك– فكبر صورة زيتية عن هذه الصورة لمصطفى كمال وسأطلب لك من الباشا خمسين ليرة ذهبية، خمسين ليرة ذهبية لامعة..

ولم أرسم صورة مكبرة لمصطفى كمال باشا، وفكرت بالخمسين اللامعة تلك، التي سيطلبها لي النائب من الباشا، لكن لو لم تكن هذه الخمسون، فهل كنت سأرسمها وبطيب خاطر؟

– ثم– وردد أحمد بصوت عال– ثم؟

وفجأة لاحظ كم استمرت هذه الـ " ثم" فأحس بحزن غريب.. ربما تذكر يوم رشح نفسه في مكتب مصطفى كمال، في مكتبه في البرلمان.

" إن قلبي يخفق، فقد رأيت العينين الزرقاوين، ثم الشعر الأصفر– الذهبي–، ثم اليدين البيضاوين، إنهما يدان جميلتان، وكم تشبهان أيدي النساء، ربما تـــرك انطباعاً، هكذا، في ذاكرتي، ربما لم تكونا جميلتين إلى هذا الحد، لكن عيني هكذا رأتاهما فيما كان شعره، هكذا، أصفر ذهبياً".

جماعتنا أمام المحكمة المستقلة، حكم عليهم بخمس عشرة سنة، وبـــالنفي إلى سورمينيا، في عمق البحر الأسود..

التهب أحمد وانطفأ وراء الطاولة، التي رصت– إصبعه– حنقاً.

* * *

... هدير المحرك، درن،درن، درن، درن.

حاول أن يسمع تنفس إسماعيل، عبر هذه الضجة، فسمعه، إنه ينام بهدوء." هل أتيت له من الحلم؟" لأسبَّ عليه كما هاجمني؟" أشعل أحمد سيجارة أخرى، وحاول ألا يفكر ثانية بإسماعيل.

وفي الطريق ما بين إينيبولو وأنقرة، وصلنا إلى نهر ما، ليس بعيداً عن الجسر، شمرت أنا ورفعت " بنطلوني" حتى الخصر، وقد رغبنا بأن نقطع النهر.. فقفزنـــا. وخلال عبوري النهر نظرت إلى الجهة المقابلة فلاحظت فلاحاً، ليس مسناً، ولا أظنه تجاوز الأربعين، وبدون لحية، قد ركب على ظهر فلاحة لتوصله إلى الضفة، من المؤكد أنه مقعد.. نـــزل عن ظهر المرأة وتابع سيره، مشياً.

– ما هذا؟ سألت دليلي.

– إنها زوجته– أجاب– وإنه قطع النهر على ظهر زوجته، إنها امرأة قوية.

ابتسم أحمد، وقد حكى ذلك لآنوشكا.

حل الظلام، قبل قسطمونا أو بعدها، فعجباً، كيف لم أعد أذكر.. من المحتمل أنني سوف أخلط، ولكن لنترك الآن هذه الحكاية، فسأذكر جيداً أن ذلك قـــد حصل بعد قسطمونا.

إذن بعد قسطمونا حل الظلام، الليل، ولا زالت تحدوني الرغبة في السير.. في صحراء الله الواسعة، الخالية من أي شجر، أو حطب، أو من أي حشرة تدب.. أرض عارية تتسع متناهية في الجهات الأربع.

– هل هناك بعد مسافة كبيرة حتى القرية؟

– لقد وصلنا إلى القرية، يا سيدي.

– وأين هي؟

– إنها تحت أقدامنا

ومن خلال القمة لاحظت بعض الحفر والمستنقعات التي يخرج البخار منها، وكذلك نباح الكلاب وكأنها آتية من جوف الأرض.

– نحن الآن في الأعلى من بيوت القرية، يا سيدي.

تكاد " السقوف" أن تتساوى مع الأرض.. سرنا قليلاً، ثم نـــزلنا باتجـاه القرية، عبر حظيرة ماعز.

في هذه القرية شاهدت بعض الجرحى، وقد وضعوا في بناية البلدية على أرض تضيئها النار، كان الواحد بجانب الآخر، وبعضهم ملقى على ظهره، وبعضـهم ملقى على صدره، وبأعداد لا تحصى، ألبستهم الممزقة تبدو من تحت الأغطيـة القذرة، مبللة بالدم، كانوا هكذا بدون عناية..

قال لي مختار القرية.

– لقد وصلوا قبل أربعة أيام في حلك الظلام، ويقال إنهـم سـيخرجونهم صباحاً، وهم لا يتمكنون من المشي، وقد مات منهم اثنان، إنهم أُبقوا هنا أمانـة في عنقي، فذهبت إلى المدينة وأخبرت عنهم، فقالوا لي هناك إننا سنهتم بـالأمر، لكن أحداً لم يأتِ بعد ليسأل عنهم.

– وهل الطريق الخلاص أمامهم طويل بعد ؟

– كل شيء يذهب في الاتجاه المعاكس.

– وأين الجرحى؟

- ومن يعلم أين هم؟ فهذه هي الحرب مع اليونانيين.. هكذا قال لي المختار "فهذه هي الحرب مع اليونانيين.." وكأنه قام بنقل خبر لي لا يعرفه أحد، أو كأن الأمر لا يهمه.

اقتربت من الجرحى، سلّمت عليهم، ورغبت في أن أتحدث معهم، لكن أحداً منهم لم يستطع الإجابة.

- اتركهم، يا سيد، فحالتهم سيئة، قال الدليل، ثم أمسك رأس واحد منهم وأداره صوب النار:

- لقد انتهى، فلا حراك به- قال.

ولم يهمس هذه العبارة همساً، فقد نطقها بعالي صوته، وأدار إلي الجريح الذي يمسك رأسه بكفيه.

أما الجريح المعصوب الرأس، برباط بدا أسود من اختلاط الدم بالوحل، فقد أفلت رأسه من بين يدي الدليل، محاولاً أن ينهض، لكنه لم ينجح فساعدته.

واتكأ إلى الجدار وقال:

- إن الله وحده يعلم- قال هذا بصوت خافت، ليس همساً بل بصوت خافت.

- أجل إن الله وحده الذي يعلم، قال الدليل.- لقد كنت أثناء التعبئة العامة أعمل في مستشفى عسكري بولوني في جبهة" تشاناك كالي" فأنا أعلم، وليغفر لي الله، إنك لن تنتظر حتى الفجر.

- سأنتظر، سأنتظر...

ولم ينتظر، فعندما بدأت الضجة والحركة في الخارج، ونباح الكلاب، وصراخ النسوة، وثرثرة الدليل،، مات وهو لم يزل يلقي ظهره إلى الجدار، وهكذا أكون قد رأيت الموت لأول مرة..

خرجنا، لكن قبل الخروج سأل أحد الجرحى:

- انظروا إلى عيني، هل أبقى حياً حتى المساء؟

نظر الدليل إلى الرجل، إلى عينيه، بهدوء وقال:

– لا أرى شبح الموت في عينيك والله يعلم، لكن أنا لا أرى شبح الموت في عينيك.

وفي الطريق سألت الدليل:

– هل فعلاً لم تر شبح الموت في عيني هذا الجريح لأم انك قلت ذلك لتعزيته؟

– ولِمَ أعزّه؟ فسيدنا يعلم وحده، بالطبع، لكن الرجل لن يموت..

في هذه الطريق لاحظت حبل الغسيل.. بذلات القرويين القائمة هنا وهناك والتعاسة التي تفوق تعاسة فقراء إستانبول.

وكذلك لاحظت كيف أن الحمير والبقر ضعيفة وصغيرة.

أما الأطفال فكانوا حفاة..

ولم أر قروية واحدة حافية..

... في أنقرة أنزلني قريبي في فندق " طحشان" فهو قصر أنقرة " بيرا بالاس" كانت أرضه حجرية، والشبابيك حديدية، وبدأت، وبدأت أحسب لقد دفعت ثلاثة أرباع دراهمي أجرة، وهذا ما بقي لي من مصروف الطريق.. وحسبت أن صاحب " طحشان" سيصبح مليونيراً خلال سنة أو سنتين.. لقد أذهلني ذلك، فقد كرهت هذا الشخص.

في مقهى " كوبول" التقيت شاعراً من أرض روم وهو الذي تعرفت عليه في إستانبول، فقد عمل ككاتب في البلدية.

تقوم مدينة أنقرة على شكل مدرجات، وفي سفح جبل يقع في نهاية المدرجات، دون أي ترتيب منطقي، وفي أعلى الجبل تقوم قلعة، عندما أنظر إليها في الليل، تبدو وكأنها النجم الآتي من البحر والمرتمي على الأرض بهذا الشكل الضخم..

وإذا أخذنا بعين الاعتبار بعض الأبنية كبناء المجلس الشعبي الأعلى، والمدرج، وبعض الجوامع، وكذلك" طحشان" فإن مجمل البيوت في أنقرة هي من الخشب والطين، كما أن لأغلبيتها مهدمة.

ذات يوم، في " كتويول" تحدثت إلى الشاعر من أرض روم حول الألهيين في أنقرة، فقال لي إنه في كثير من القرى والقصبات وسط الأناضول، يعيش ألهويون تقليديون بأنماط متعددة.

-فالألهويون- كما قال لي- كانوا قد أسسوا نوعاً من الجمهورية الآسنافية القروية، التي تشبه، نوعاً"ما" النمط البلشفي.

وفجأة صمت، وتلفت حوله ثم همس لي:

- إن البلشفيين يعطونا السلاح، والذهب، وجماعتنا يخشون البلشفيين.

في تلك الليلة، أخذت بالتجوال في شوارع أنقـرة ومنعطفاتهـا وحاراتهـا الضيقة، وقد بدا لي أنني أسمع وقع المطارق والأزاميل على النحاس، في أكـوار هؤلاء البلشفيين الألوهيين، من خياطين ونحاسين ونجارين، وكذلك دعـاء الله، الذي كان يردد اجتماعاتهم. وقد علمت هنا أن البلشفيين- هؤلاء- هم أعداء الأغنياء وأصدقاء الفقراء، كانت صحف إستانبول مليئة بحكايـات الطـراطير المخفيين المشهورين، الذين أخضعوهم للقبائل الروسية، من جنـرالات وتجـار أغنياء، ومن استطاع منهم أن ينجو من السيف الروسي فقد هرب إلى إستانبول، ولا يمكن تصور كيف جُلب هذا العدد من الطراطير، فنساؤهم فاجرات تعملن في التبصير، ورجالهم نصابون، يفتحون البارات والمقـامر، ويبيعـون النسـاء الشقراوات، النحيلات منهن والسمينات، كما ينظمون اليانصيب.

وقد سمعت بأن قوى الحلفاء عدوة للبلشفيك. كما سمعت باسم لينين، وقد رأيت صورته في الصحف، حتى إني قمت برسم صورة له، لا لمحبتي له فحسب، بل إعجاباً بصلعته الكبيرة، وبعينيه اللتين تشعان ذكاء وفطنة وثقافة. وكـذلك بلحيته.

ذات مساء، ذهبت أنا والشاعر من أرض روم إلى مسرح كامل، لقد كـــان مسرحاً جديداً، فتحت الباب، فرأيت ثريا فخمة جداً، تنشر الحزن من خـــلال الضوء الأزرق المرسل منها، وهي الثريا الوحيدة الفخمة فيه، وتابعنا.. فوجدنا المشاهدين يجلسون مصغين، وقد وضع كل منهم يديه على ركبتيـــه. علـــى أي حال إن المسرح الشعبي- سواء عندما عرض شيخزاد- باش أم كوشديلي- فإن المسرح الشعبي في إستانبول، من الداخل أو من الخـــارج- يشـــبه الســـوق، فالمشاهدون لا يلبثون أن يتعارفوا ويتصادقوا فيما بينهم، كمـــا يبـــاع هنـــاك الشراب والبذور والمياه المعدنية والبوظة السادة والمشكلة، وعندما يجلب البائع البضاعة إلى الزبائن ينادي بأعلى صوته.. وعند الدخول تســـمع، مـــن بدايـــة المسرح، الموسيقى التي تبعثها آلات الطبلة والقانون والجمبش، فتدخل الضحك والمرح إلى داخل المسرح، وكذلك الإعلانات الخضراء، والزرقـــاء، والحمـــراء والمزركشة، وذات الألوان الخضراء الآتية من مصباح المدخل. وعندما تـــزاح الستارة، تخرج المغنية السمينة " بسرعة" وتبدأ بمطلع لأغنية فتضج القاعة بالغناء، ويقفز بعض الحضور إلى الخشبة مادين رقابهم، كالزرافات، ثم يغمزون محبوباتهم بعيونهم، فتشعر بأن الجمهور أصبح خارج نفسه.. فمثلاً سمعت صـــياح أحـــد هؤلاء يقول:" تعيش، تحيا، العمر طويل إن شاء الله، فيما كان آخـــر يصـــرخ: "ليسلم لي لسانك يا عمري" أو" أوف.. آه.. ذبحـــتني".. بعـــد هـــذا الغنـــاء والصراخ، يبدأ الحضور بالترديد والإعادة وراء المطربة، ثم يبدأ العرض، كوميدياً كان أم درامياً، ويصفرون للممثلة المليئة الصدر التي تلعب دور البطلة ويعطونها النصائح. وفي أوقات الاستراحات يبدأ نعيق الباعة كأنه النشيد المقفى فيعطـــي أنغاماً تشير إلى أن جمهورهم قد رحل إلى الداخل، إن مثل هذه المسارح الشعبية في إستانبول هي أماكن حقيقية للتسلية، أما في أنقرة فإنها تشبه بيـــوت دفـــن الموتى. ثم يدير الحضور عيونهم إلى الخشبة حيث الستارة، فتنـــزاح، وهنا يبدو بعضهم يفكر، وبعضهم يتخيل المشهد القادم، ومنهم من تغمره الدهشة بانتظار

الملاك وكأنه سيطير كالغيمة، ثم يبدأ الضرب على الطبلة. ومن السهل التمييز بين الحضور: من إستانبول أو القادمين من أنقرة أو خدم النواب، ومع ذلك فجميعهم لديهم شيء مشترك.

هنا همس لي الشاعر من أرض روم:

– رعب.. إن أنقرة هي مدينة الرعب.

إنه كامل– عطيل– أعرفه من أيام إستانبول.. فقد كان تلميذاً نجيباً للمثل الأرمني " باباسيان" وقد أسموه عطيل– كامل، لأن دور عطيل كان يؤديه أفضل من أستاذه.

أزيحت الستارة حيث تقف امرأة صغيرة نحيلة سمراء، تتحلى بقلادة ذهبية وشال يغطي كتفيها وفستان مشقق في المقدمة. كانت ارمنية من " كايسيري". وقد قال لي ذلك الشاعر من أرض روم، لأنه متيم بها، كما لاحظت.

كانت امرأة ذات شفتين جميلتين، وعينين عميقتين، مبطنتين، أي منتفختين، تظلهما رموش طويلة جذابة، تقف بدون أية حركة، فاستدرت بهدوء وأخذت أحدق:

– إنهم عمال من المؤسسة العسكرية– قال لي الشاعر:

وردَّت على تحيتهم بابتسامة وغمزة عين، ثم أنشدت بأعلى صوت حنون سمعته في العالم: " في الجزر النائية، تتحرك الضفادع الخضراء". من خلال هذا الصوت الحزين أحسست بأن جلدي ينكمش، وكأنني أعبر مرة أخرى إلى ضفة الأناضول، الأناضول "بلا أم ولا أب .. في عالم الحزن المقيم.. إلى الأناضول، مع ضباط الاحتياط من إستانبول، من أزمير مع الذين ذهبوا إلى الجبهة، مع الجرحى، الجنود الذين ماتوا في القرية القذرة، مع النساء اللواتي عبرن النهر وعلى ظهورهن أزواجهن، مع سفلس العاهرات في بيوتات الدعارة وفي قسطمونا، مع الأطفال اليتامى، والثكالى الحفاة، ومحلوقي الرؤوس، وقلاع كيروغلو في " تشامليبل" وأعواد المشانق، وأراضي الزنزانات المحفرة..."

وتابعت المرأة غناءها فأنشدت أغنيتين شعبيتين.

وأسدلت الستارة، ثم رفعت، فكانت نفس المرأة، وبنفس الشفتين، ونفس العينين، والرموش الطويلة الناعمة، ونفس القامة، بدأت ترقص على أنغام الملاعق التي وضعتها بين أصابع يديها البريئتين، رقصاً متناغماً مع وقع الطبلة. ثم أسدلت الستارة، ورفعت فوراً، والآن بدأ شكسبير.. والمرأة تلعب الآن دور " ديمونة" وقد ارتدت ملابس تشبه الملابس المرسومة على الستارة، كانت ملابس بيضاء، فيما كان لون شعرها أسود، وكان كامل أيضاً رائعاً في أداء دور عطيل، وقد برّز كل الممثلين الذين كانوا هم أيضاً رائعين، لكن كامل وياغو، هما وحدهما اللذان استطاعا المحافظة على نص شكسبير.

* * *

بعد انتهاء المشهد تعرفنا إلى رشيد الذي كان يقوم بدور " ياغو" وقد نزع الماكياج، فبدا أشقر، أجعد الشعر، قصير القامة، واسع العينين الخضراوين غير الهادئتين، ذا صوت لطيف وهادئ، وكان يتكلم خارج المسرح بصوت ياغو أيضاً، أنهى تعليمه في مدرسة- روبرت كوليج- في إستانبول، ويتقن الفرنسية والإنكليزية أيضاً:

- أنا أعرف كل مسرح شكسبير من البداية للنهاية عن ظهر قلب.

- إنه ابن سفير سابق.

وقال:- كان مسرح شكسبير أوسع من مسرحنا، لكنه يشبه مسرحنا بلا شك- وعندما أصعد إلى هذه الخشبة، هنا في أنقرة، أحسب نفسي في لندن الإليزياتبيتية، يجب أن نلتقي يا سيد أحمد، أنا أقطن في " تاش خان"- دير الحجر- أنتم لا تعرفونني، أما أنا فأعرفكم منذ زمان، فقد سمعت باسمكم في إستانبول.

دهشت لمعرفته إياي، ثم قلت ربما كان يعرفني من خلال رسومي الكاريكاتورية:

– لطفاً انتظر يا سيد أحمد، فبوسعنا أن نعود معاً إلى تاش خان.

– كما تريدون.

– استدار رشيد نحوي وقال: سنراك يا سيد أحمد.

قال الشاعر من أرض روم: سوف نعود إلى مكان آخر أيضاً، حيث ينتظرنا أصدقاء هناك.

وعلى الطريق قال لي الشاعر من أرض الروم:

– إياك ومصادقة هذا الشخص، فإنه غير معروف ما هو ومن هو؟، وعلى كل، في أنقرة، لا تتحدث للناس الذين لا تعرفهم جيداً.

كانت الطرقات مظلمة تماماً، ومررنا بدوريات مناوبة.

– أنقرة هي هي، سفينة نوح– قال لي الشاعر من أرض الروم– سفينة نوح التي تمخر عباب الإمبراطورية العثمانية التي خربها الطوفان، وستنتهي أخيراً إلى الشاطئ، على أية حال، مع الحمائم والثعابين والذئاب، والنمور والأسود والقردة والحملان، التي تعيش على ظهر السفينة معاً، وهناك ستأكل الثعابين الحمائم، والقردة الحملان، أما الأسود والنمور فستتصارع فيما بينها..

– كانت المقاهي مغلقة منذ فترة طويلة، وقد وصلنا إلى" سامان بازار" (سوق سامان).

– هنا شنقوا الجاسوس الإنكليزي مصطفى الصغير– قال لي.

وعندما وصلنا إلى أبواب " طحشان" ردد على مسامعي أيضاً:

– لا ترتبط برشيد للحيطة.. وعلى أية حال هل فهمت؟

– فهمت، بلى.

مصطفى كمال باشا يقطن خارج المدينة محروساً بحراسه اللازيين.

كانت الجبهة الغربية قريبة جداً وبعيدة أيضاً، ويحكى أن المدافع كانت تسمع أثناء المعركة الثانية في القطاع، هذه المعركة التي بدأت في ٢٣ آذار وانتهت في ٣١ منه من تلك السنة، ولست أدري فيما إذا كان ذلك صحيحاً أم كذباً؟ كما

يحكى أن الجيش اليوناني اتجه نحو أنقرة فهرب الموظفون والأغنياء في القطارات والسيارات وحتى الطنابر، ورحلوا إلى الداخل، وبعد انسحاب الجيش اليوناني عاد بعضهم، فمنهم من بقي ومنهم من وصل إلى سيفاس.

إن أخصب أراضي الأناضول وأغناها بأيدي الأعداء، فبأيديهم خمس عشرة مقاطعة وقضاء، وتسع مدن كبيرة، وسبع بحيرات، وأحد عشر نهراً، وثلاثة بحور، وست شبكات للسكك الحديدية، وملايين من المواطنين، مواطنينا.

ذهبت لأرى قريبي.

– أريد الذهاب إلى الجبهة– قلت له..

– لا يمكن، أجاب.

كنت لجوجاً.

– سوف نبحث الأمر فيما بعد– قال لي.

وحينما التقينا بعد ثلاثة أيام، لاقاني بخبر بهيج:

– لقد تحدثت في الموضوع– لم يقل مع من، ولكن يبدو مع شخص ذي منصب عال، وربما هام جداً– لا يسمحون لك بالذهاب إلى الجبهة، وسوف يجدون لك عملاً في إدارة صحيفة.

لم أسأل عن سبب عدم سماحهم لي بالذهاب إلى الجبهة– ربما كان بإمكاني الإلحاح، وأن أحصل على إذن بذلك، لكنني لم أفعل.

وقلت له: لا أرغب في العمل في إدارة الصحافة، بل أبحث عن مكان ما في مدرسة، مدرِّساً، في إحدى المقاطعات.

نظر إلي نظرة العاقل إلى الغبي، وبعد أسبوع اتجهت نحو أبولو مشياً أيضاً، ووضعت الحقيبة على حمار، وكان هذا الحمار أعرج.

الخط الخامس عشر

عاد أحمد يقرأ مجدداً كتاب القصائد الذي تركه ضياء بكامله، ولعدة مرات.. وصب الماء في أرض الكوخ، وحاول أن يعمل من الوحل تمثالاً نصفياً، وقبل كل شيء، لآنوشكا، لكنه لم يكن ذلك، بل كان قطاً، وربما لا.

ثم شرع في كتابة الأشعار، ولم يعرف ماذا سيكتب، ولا كيف يكتب:" إنني أفهم شيئاً من قواعد التفعيلة، وعلى كل حال فهل يمكن في أيامنا هذه استخدام العروض؟" لقد جرب التفعيلة نحو:" أي مرفأ تعبر هذه السفينة بآلاف الأشرعة؟ "..لأمه.." والفراق غصن يا زنبقي، وأنت ثمرته المرة". هناك عدد من القـــوافي لكلمة " مرّة" ولكن ما من قافية واحدة أوحت له ببيت شعر واحد." وهذا مـــا قلته لآنوشكا: لو كنت شاعراً لما كتبت قصائد حب" ومنه جاءتني هذه الفكرة الآن لأكتب أشعاراً، إن هذا العالم العاهر الــ "..." ولماذا عاهر؟ العالم جميـــل.. لكن ما هو الجميل في هذا العالم، وبالنسبة لمن من أصل مئة هو جميل؟ إن أكثرية الجموع الجميعة لا تتساءل حتى عما إذا كان العالم جميلاً أم لا؟ بالرغم من أنهـــا تعيش الغبن والجوع والاضطهاد والموت، وكأن ليس على الأرض مجازر أو غبن أو اضطهاد أو موت...وكم رجلاً من أصل مئة رجل يناضلون ضـــد الظلـــم، وضد الاضطهاد، وضد الموت.. ونحن أيضاً نناضل مع جماهير البشر التي تشعل الثورات لرفع الكابوس عنها، وهل أنا لا أناضل.. وهل ليس نضالاً أن أنفجـــر ميتاً من داء الكلب وجرّاء رصاص مسدس إسماعيل؟ آه.. فالجميع للشيطان..

الخط السادس عشر

تغير المتصرف في بولو، وهنا قرر المعلمون في بولو، الذين لم يقبضوا رواتبهم منذ شهور، أن يحتجوا للمتصرف الجديد، وكلفوا أحمد بتقديم شكايتهم الخطية والاحتجاج بقوة حين الطلب، وقد اختار المعلمون أربعة ممثلين، ومر هؤلاء بعد ظهر يوم خميس إلى مقهى ليجتمعوا فيه، ويظهروا غبطتهم واتجهوا نحو دار البلدية، وخلال السوق مروا بأحمد وروميللي شعبان أفندي، مدرس التربية الدينية، وخلفهم مدرسو الرياضيات والتاريخ والأدب، كان الجو ماطراً، فساروا واحداً في الأمام وثلاثة وراءه تحت المظلات، وكان أحمد بينهم بدون مظلة، وكان أصحاب الحوانيت يحيون باحترام هذا الحشد المظلل بالغضب أيضاً، إذ كان للمعلمين- ولأحمد أيضاً- ديون في ذمة الناس- أقساط التعليم، وقد كان أصحاب السوق يعلمون غاية هذه المظاهرة المتظلمة المتجهة إلى المتصرف.

وعند منعطف في إحدى الزوايا اتجه الحشد نحو اليمين، تضاعف المطر بغزارة، التفت أحمد للخلف فكانت ثلاث مظلات تظلل اثنين.

- أين هو الأديب؟

قال مدرس التاريخ:

- بقي في السوق ليشتري سجائر، سيلحق بنا..

- زمجر مدرس التربية الدينية شعبان أفندي ضجراً:

-... لا حول إلا بالله... لقد اختار متى يشتري السجائر؟

مظلة في المقدمة، اثنتان في الخلف، دخلوا حي البساتين، فالتقتهم امرأة بمئزر أسود وكشفت عن وجهها، وقد بللت بالماء حتى الجلد، رأت القادمين الذكور، فجلست على زاوية في الطريق مقرفصة، تاركة الطريق حتى يمروا.. تجاوزوا الحدائق في طريق موحل، والتفت أحمد مرة أخرى فرأى من المظلتين واحدة فقط.

– أين هو مدرس التاريخ؟

فأجاب مدرس الرياضيات:

–ذهب ليتبوّل.

أما مدرس التربية الدينية فقد تمتم هامساً:

– كيف لا يحس أعضاء حزب الائتلاف بحاجاهم إلا في اللحظة الحرجة–

هذا ما قاله شعبان أفندي العضو القديم في حزب الائتلاف، وكذلك مدرس الرياضيات.

المطر ينهمر كأنه ينسكب من إبريق الآن، احتمى أحمد تحت مظلة شعبان أفندي مدرس التربية الدينية، وأمام السراي توقف شعبان أفندي وقد أغلق مظلته، حيث لم تبق وراءه مظلة واحدة واستدار غاضباً بهمس:

– هذه غلطتك يا أحمد، وهل مع مثل هؤلاء يخرج الإنسان لأعمال مهمة؟.

وعند باب المتصرف قال أحمد للحاجب الذي جلس أمام باب سميك كبير كباب الجامع:

– أبلغ سيدك أن الأساتذة قد وصلوا.

دخل الحاجب إلى المكتب وعاد:

– تفضلوا بالدخول.

أزاح أحمد الستارة الثقيلة ونفذ إلى الغرفة، كان المتصرف جالساً وراء طاولته ثخيناً، وقوياً، وذا عينين سوداوين، وقلبق أسود، وبدأ أحمد بالكلام:

– نحن– مدرس التربية الدينية شعبان أفندي، وأنا، كم...

رفع المتصرف يده وقطع حديث أحمد:

– أنت أراك، لكن أين هو مدرس التربية الدينية؟

واستدار أحمد فلم يجد لشعبان أثراً، فاحمر من الغضب:

– لا بد أنه توقف على الباب، أو أنه في الرواق، أبلغوا الحاجب لينادي عليه.

- لا حاجة لذلك.

- لقد توجهنا إلى هنا خمسة، أنا..

- أنا بحاجة إليك، اجلس.

- وبالنسبة لرواتبنا؟

- أعطيت أمراً بهذا الخصوص.. وستقبضونها في غضون شهر...

- حسناً، لكن نحن...

وقاطع المتصرف أحمد مجدداً وبحركة من يده، ضغط على الجرس، وطلب له شاياً من خادمه، ولما حضر الخادم أبلغه المتصرف :" لينتظر من يراجع"، ونهض منتصباً أمام أحمد:

يا سيد أحمد، أنا أعرف من أنت، وأعلم آراءك، وأنا على علم أيضاً بنشاطك في المدينة وفي القرى، وأعرف أصدقاءك أيضاً.. من القاضي يوسف بك حتى المحاسب عثمان، ومن يؤيدونك بالفكر.

وصمت، ثم وضع يده على ركبة احمد وعاد يتحدث ببطء.

- القوات اليونانية تزحف باتجاه أنقرة...

- ماذا تقول؟ أللمرة الثانية؟

- ويمكن أن تسقط أنقرة..

- أمن المعقول أن تسقط أنقرة؟ وإذا سقطت أنقرة؟

- حينئذ تعلن هنا البلشفية...

- البلشفية؟

- تعينونني رئيساً للجمهورية، وسيزيد الروس من مساعدتهم لنا بصدق وثقة أكبر، وسنكون جيشاً أحمر، ونحرر أنقرة، فجهز أنت وأصدقاؤك فكرة حول هذا، لكن لا تحدثهم حتى الآن عني...

بدت الحيرة على وجه أحمد، وكأن المتصرف صعقه بلكمة على رأسه، فقد فهم شيئاً، وشيء لم يفهمه.. ولا تزال يد المتصرف على ركبة أحمد الذي تابع يقول:

– تحدث مع يوسف بك وعثمان بك عن اقتراحي... وستتولى وزارة الداخلية أنت، وسيتولى عثمان بك المالية، أما يوسف بك فسيكون رئيساً للوزراء...– زالت حيرة أحمد فجأة، كان يصغي إلى حديث المتصرف بهدوء وفهم كل شيء. أحضر الحاجب الشاي وخرج، وحرك المتصرف الشاي بملعقته وهو يتحدث عن رئيس الشرطة ومدير البوليس، فالأول يمكن الوثوق به، أما الثاني فمن المستحيل الثقة به.

وحين ترك أحمد المتصرف، خطر بباله أولئك الأصدقاء الذين بدأ يستعرضهم بخاطره، وهو ينزل الدرج، من الأساتذة الشباب: أستاذ الأدب والرياضة، والفيزياء والكيمياء... أما من بين الشباب: مهندس المنطقة وأصدقاؤه، أما في القرى.. وابتسم... في القرى الفقراء والحرفيون.. أما في القصبة فرحات النحاس وأصدقاؤه.

توقف المطر عن الهطول، رحت أبحث عن عثمان ويوسف، لكني لم أجدهما في مكان عملهما، أين ذهبا؟ يا للشيطان! ذهبت إلى المقهى، فمر بي المدرسون مضطربين، حيارى– سنقبض الرواتب– قلت لهم: – لكن هذا خلال شهر من الزمن، ومضيت بسرعة دون أن أسألهم:" لماذا تخليتم عني في الطريق يا ناس؟" عثمان ويوسف لم يأتيا إلى البيت بعد، لكني أتيتهما، يا للشيطان!.

يوسف هو القاضي المنطقي لمحكمة بولو، أما باقي القضاة، في الجنايات والنيابة العامة فهم كسالى مسنون لا عمل لهم، ويقود يوسف محكمة الجنايات بكاملها، وأنا، أنا معلم الرسم في بولو، وعثمان، السيد عثمان عليانالك، هو محاسب في المصرف الزراعي، وقد عاش بين عامي ١٩١٥ و١٩٣٩ في ألمانيا، وهو أول من حدثني عن ماركس، قال لي أولاً اسمه فقط، ثم " يا عمال العالم! اتحدوا" وبعد " التاريخ هو صراع الطبقات" في حين أنهم علمونا التاريخ في المدارس على أنه حكاية عن السلاطين والملوك، وقد فهمت فيما بعد عبارة ماركس على أن التاريخ صراع بين الملوك والسلاطين يصفّي الواحد منهم

الآخر، والشعوب هي التي تدفع ثمن هذا النـــزاع، إلا أن التاريخ سوف يتغير، وسوف نلغي الحروب مع الملوك والسلاطين، وبدا هذا لي صحيحاً تماماً.

وللحقيقة فأعضاء محكمة الجنايات في بولو الفعليون هم شخصان: يوســف وعثمان، أما النائب العام فهو أنا، وطريقة المحاكمات في هذه المحكمة هي الحكاية والحديث، أما القرارات فتتخذ في غرفتي، في الخان، فوق الإسطبل. وكنا نبحث فيما إذا كان المتهم فقيراً أم غنياً؟ فإذا كان فقيراً نعفو عنه، وإذا كان غنياً نحكمه حتى لو كان بريئاً.

وكذلك اشتهر يوسف في المدينة والقرى على أنه يتدبر أمر الفقير لإلغــاء ديون الفلاحين أو تخفيفها. وأنا كنت أضع الطلاب الفقراء في المقدمة، وأوزع عليهم العلامات الجيدة، سواء كانوا يعرفون الرسم أم لا يعرفونه، أما في نادي الشبيبة فقد حظينا بمكانة كبيرة فيه.

وفي غرفتي بالخان، فوق الإسطبل، وسط رائحة السماد والزبالـــة، وعلــى صليل السلاسل وصهيل الخيول، وفي ضوء مصباح الزيت، نقلت إلى يوســف وعثمان اقتراحات المتصرف، وقررنا بالإجماع: حين تسقط أنقرة نعلن نحــن في بولو البلشفية مباشرة، وقد تحدثنا مع المتصرف مرتين، وجهزنا خططاً مفصـــلة، لكن أنقرة لم تسقط، فدعانا المتصرف إليه، وقال: "هنا لم يعد بمســتطاعكم أن تعملوا، لا تجروني إلى المتاعب، فاذهبوا واهربوا". وعندها كان يوسف قد تلقى برقية لكنه لم يفصح عن الجهة المرسلة، لكنه قال لنا:" أرسلوا ورائي لترابــزون بشأن عمل معين، وحان الوقت أن تذهبوا أنتم أيضاً، ومن هناك سنذهب معاً إلى روسيا، وفيها نتعلم البلشفية في بلدها".

وافقنا على فكرة يوسف، وقد ذهب هو بينما عاد عثمان إلى إستانبول وأنا تحركت إلى ترابزون، لم أجد يوسف في المكان الذي أعطوني عنوانه، وقد دلـــني بعض المواطنين إلى المقهى:" إنه يذهب دوماً إلى هناك ليلعب الطاولة، وهناك يأتي أيضاً حافظ أحد المشاهير في لعبة الطاولة". قالوا لي هذا وذهبــوا. ســرت إلى

المقهى، قال لي صاحب المقهى:- " أوه... منذ وقت طويل لم يأت يوســف إلى هنا". وعدت إلى الفندق، لم أتمكن من النوم، نــزلت عمداً لأتمشى في الحديقة فصادفت صاحب الفندق.

- إلى أين يا سيد؟

- لا أستطيع النوم.

- إنها ساعة متأخرة من الليل والمقاهي مقفلة.

- لا أفكر في الذهاب إلى المقهى، سأتمشى، وأستنشق الهواء.

- أنتم تعلمون الأفضل، لكن الوقت متأخر..

لقد ارتعدت لهذا.

- هل يختلسون؟ هل الشوارع خطرة ليلاً؟

- كلا، بل...

- بل ماذا؟

- أنت اليوم وصلت إلى " ترابزون" وأنت غريب هنا..

- وإذا؟

- لا شيء..لكن بعد ذلك الحادث، يُخشى من السرقات.

- أي حادث؟

لم يحر صاحب الفندق جواباً، وكان واضحاً بأنه ندم لإعلانه عن ذلك.

- أي حادث؟

إذا كنت راغباً في التمشي، اذهب أيها السيد، فإنك محبب لدي.. وعلى أية حال فأنت أبصر بالأمر...

عدت إلى الغرفة، رفعت الستارة الحريرية ونظرت إلى الخارج، كان الظلام يخيم على هذه المدينة الأناضولية بعد صلاة العشاء.

في صبيحة اليوم التالي نهضت وخرجت من الفندق، وذهبــت إلى مقهــى الأمس، كان قشر الجزر منثوراً قرب المقهى، وفي الداخل يوجــد شــخص أو شخصان / زبونان/. لقد عرفني النادل:

– أمس، وما أن ذهبت حتى جاء السيد يوسف، وقد قلت له إن شاباً، شاباً يلبس قلبقاً قد سأل عنك، لكنك لم تذكر لي اسمك– تابع– ويشبه الإستانبوليين، طويل القامة، وهكذا..

– لكن ماذا قال يوسف؟

– في البدء لم يعرفكم، ثم قال :" آه أعرفه".

– ثم ماذا بعد؟

– لم يقل شيئاً أكثر من ذلك.

– كيف لم يقل شيئاً أكثر من ذلك؟ ألم يقل بأن أعود غداً وأنتظره هنا؟

– كلا لم يقل ذلك، ولتنتظر إذا أردت، اليوم سوف يأتي ملـك الطاولـة حافظ، وإن يوسف أفندي سيأتي بالتأكيد.

لم أفهم شيئاً، ولم يكن عندي خيار آخر غير الانتظار.

– هل هناك سفينة تذهب دوماً إلى باطوم.

نظر النادل إلي مستغرباً.

– أجل أحياناً.

– وهل يوجد قارب بمحرك؟

– بالطبع، وكيف لا يوجد؟...

ذهب النادل وجلب لي شاياً بالقرفة وجبنة.

– هل أنت ذاهب إلى باطوم؟

–بل إلى " كارس" عبر " باطوم وتيفليس".

لقد كان مخططنا على النحو التالي، الذهاب إلى كارس في الوقـت الـذي نذهب فيه إلى ترابزون بطريقين، طريق ملتو والآخر بحراً إلى باطوم، ومنـها إلى تيفليس، ومن ثم إلى كارس، وسنبقى في باطوم قبل أن نتابع إلى ما بعدها.

– وهل لديك تصريح بالذهاب إلى ما بعد باطوم؟

– أجل...

لقد حصلت على تصريح بالسفر من المدير العام في بولو:..." مهمة السفر إلى كارس عبر باطوم– تيفليس".

– وهل لديك تصريح بالسفر من المدير العام في بولو:..." مهمة للسفر إلى كارس عبر باطوم – تيفليس".

– حسناً، إذاً، لكن الطريق الملتوي متعب وطويل... وهل أعطوك تصريحاً من هنا؟

–كلا.

– في أنقرة؟

– في بولو.

– لكن هنا لا يصلح التصريح من بولو، ويجب عليك أن تحصل على رخصة من هناك.

– ألن يسمحوا لي؟

– الله وحده يعلم.

ذهب النادل، ولاحظت أن الزبائن قد أصغوا بهدوء إلى حديثنا، ومن ثم أخذوا يهمسون فيما بينهم.

طلبت شاياً آخر، وقد جلبه صاحب المقهى وليس الشاب العامل..

– أصغ إلي، هنا حدث شيء– قلت له.

– وما الذي حصل؟

– لا أدري..

– هذا ما أجابني به صاحب الفندق.

– وفي أي فندق تنزل؟

لست أدري السبب الذي جعلني لا أخبره باسم الفندق الذي أنزل فيه، وقد قلت له اسم فندق كنت مررت بجانبه في الطريق إلى المقهى..

إذاً أنت لا تعرف ماذا حدث هنا؟

– ليس لدي فكرة.

وكان في الحقيقة يعرف.

بقيت أنتظر يوسف طوال النهار حتى ساعة متأخرة من الليل، ولم يأت. وفي صباح اليوم التالي ذهبت أيضاً إلى المقهى.

– هل أتى؟

– لقد ذهب حينما كنا نغلق المقهى.

– وماذا؟

– قال أن تنتظره في الصباح.

وبعد قليل دخل يوسف إلى المقهى، تعانقنا، بل أفضل القول بأنني عانقته.

– هيا بنا– قال.

خرجنا.

– يوسف! إن ما فعلته...

– اسكت... وسوف أشرح لك كل شيء..

– ما بك يا هذا؟

– لقد قلت لك اسكت.

ذهبنا بسرعة، وكان يوسف يتلفت طوال الطريق، خرجنا بسرعة.

دخلنا في أزقة ضيقة، كنت أعلم بها، أعلم بأنها أمكنة لمجالس الدراويش، ثم أبطأ السير.

– هيا حدثني يا يوسف.

– يجب أن أرحل.

– حسناً، لكن لماذا لم تقل للرجل أين يمكنني أن أجدك؟

– هذا ما كان يجب..

– ما معنى هذا ما كان يجب، فكيف لي أن أجدك في ترابزون الضخمة؟.

– وأخيراً وجدتني، وهكذا.. وهل تحدثت شيئاً للنادل؟

– وماذا أحدثه؟

– وماذا أدري؟ أن تقول شيئاً يفترض ألا تقوله، فأنت رجل غير صبور وثرثار.

– لقد سألته هل هناك قوارب تذهب إلى باطوم.

– حسناً، بل غباءً، فعلت..

– لماذا؟

– أنت لا تستطيع السفر بتصريح من بولو، وماذا قلت بعد للنادل؟

– لا شيء آخر.

– هل فتش عنك رجال المخابرات العسكرية؟

– كلا.. حسناً، وكيف لنا أن نعبر إلى باطوم؟– وقد خطر ببالي على الفور.– يا هذا، هنا معلم، وهو واحد من أصدقاء جدي، لنذهب إليه لعله يساعدنا في الحصول على تصريح.

فكر يوسف.

– ليست فكرة سيئة.

وإلى ذلك الحين لم أسأل يوسف عما يعمله هنا في ترابزون.

– اطلب تصريحاً لنفسك فقط يا أحمد، فسيكون الحصول على تصريحين أمراً مشبوهاً، وسأجد طريقاً– خلال ثلاثة أو أربعة أشهر– للذهاب، وما عدا ذلك، فليس هناك من ضرورة كي نلتقي هنا بعد.

– ولأي سبب؟

– وهل تحدثت هنا لأحد حول المدير العام، أو محكمتنا في بول؟

– ومن رأيت كي...

– ليس مؤكداً أيها الثرثار، فكما هي عادتك إن...

– ومن أين لك هذه المعلومة بأنني ثرثار فأنت تخاف من اللاشيء يا يوسف؟ وهل أنت مشبوه بشيء هنا؟ دعنا من هذا، إن شيئاً قد حصل هنا.

– من قال لك هذا؟

– صاحب الفندق.. وقد سألت النادل أيضاً.

– غباء كبير فعلت...

تلفت حواليه..

– لم تحملق؟

– أتأكد هل يلاحقوننا.

– ولم يلاحقونا؟

– هل تظن بأن المخابرات العسكرية ليس لديها علم بنشاطاتنا في بولو؟ اسمعني جيداً يا أحمد، لقد ذهب الصوت، إن مصطفى صبحي ورفاقه قد أعدموا.

– ومن يكون مصطفى صبحي هذا ورفاقه؟

– بلشفيون أتراك.

– أين وكيف قتلوهم؟ ولِمَ قتلوهم؟

– لأنهم كانوا بلشفيين.

وصلنا إلى مكان آمن، قال يوسف:

– لقد دعا مصطفى كمال الموجودين في روسيا، وبقي صبحي في روسيا كأسير حرب، وخلال هذا العقد من الزمن، دخل في البلشفية، وكان من بين الذين قدموا من إستانبول، وحين عقد المؤتمر في باكو، ذهبوا ليشاركوا فيه.

– ثم ماذا بعد؟

وعندما تبلغوا دعوة مصطفى كمال أتوا إلى الحدود، كان ينتظرهم قاسم قارا– باقر– باشا.

جلسنا تحت سروة، كان الجو رائعاً، وبدأت النسائم الطرية تهب علينا من البحر الأسود.

– في " أرض روم" أسّس المشايخ والخواجات والكلاب "جمعية الرفق بالحيوان" أو شيئاً من هذا!!.. ثم أخذوا يرمون باب سيارة صبحي بالحجارة

ويصرخون " واع" من اجل جامعنا سنربط الحمير، سنغطي نساءنا، سوف تهدمنا الطاقيات" وما كان من أرا باقر إلا أن نـزع السلاح من الجماعة من جماعة صبحي وأرسلهم إلى ترابزون".

البحر الأسود يتمدد تحتنا، شمالاً ويميناً، وعلى مد النظر، كل شيء خال، فلا قوارب ولا دخان سفن..

– كان الجميع هنا، في " ديجير ميندر" مساء، وضعوا في قارب كان ذلك في ٢٨ كانون الثاني، وكان واحد يدعى يحيى كاخيا، مسؤول القوارب البحرية، ولم يكن هذا الكلب أعلى رتبة، فهو مستزلم " المجرم" عثمان، آمر فصيلة مصطفى كمال، ولما أبحر القارب المقل لصبحي قام يحيى كاخيا بمرافقة هؤلاء المواطنين بواسطة قارب آخر، وهم الآن جميعاً في عرض البحر قرب سرمينيا، ثم التقى بالقارب الذي يقل هؤلاء الخمسة عشر مواطناً وكان صبحي يقوده، وكان قد اصطحب امرأة روسية، ويقال إن عملية الخنق استمرت ساعتين، وفي وقت ما، سحب صبحي بندقيته، وفي اللحظة التي أراد أن يطلق النار، استل فايق، النذل، مسدسه وصرعه من الخلف، أما الآخرون فقد قتلوا ذبحاً بالسكاكين، وقبل أن يلقوهم في البحر ربطوهم بالصخور من أرجلهم، ثم رموهم في البحر، واقتادوا الروسية إلى ترابزون، ويقولون إنها جميلة جداً، وهي الآن مسجونة في دار يحيى، والآن، يخشى أن يحدث شيء في أنقرة بسبب هذا الحادث.

– هل يوجد شيوعيون في ترابزون؟

– لا أدري؟ اسأل الأمن العسكري.

البحر الأسود مستمر بالانشراح والامتداد.

انتظر أحمد يوسف في باطوم ليس ثلاثة أشهر بل ستة، ولم يأتِ، فقد عاد إلى إستانبول عام ١٩٢٤ ليعمل في التجارة، وقد أثرى نوعاً ما، وأودع في البنك ثروة بسيطة. ثم بدأ يعمل في التهريب، وفي عام ١٩٣٤، في وضح النهار، وفي أحد الشوارع رأيت صورة مصطفى صبحي لأول مرة في باطوم، وقمت برسمها

في موسكو مرتين- ثلاثاً بالفحم، كان ذا شاربين ويلبس نظارات، إنه واحد من الناس الذين أحترمهم في هذا العالم، والذين أحببت وهذا المهم.

أنا في باطوم، أتمشى عبر الحدائق العامة، ومعي حوالي مليون روبل، وحقيبة بعتها في الأسبوع الماضي، ظننت أنها مصنوعة من الجلد لكنها كانت من الشمع، أحتسي الشاي، في مقهى قرب سينما، شاياً بالسكر الحقيقي وليس التقليـــدي، بكل سعادة وانتعاش، أصغي إلى هدير البحر، كـــان يضـــايقني أن أذهـــب إلى الشاطئ، لأرى كيف تضطجع النساء عاريات.

والبارحة كنت على الشاطئ، كان منظراً مشوشاً، في المساء كـــان البحـــر هادئاً، والقمر يلمع فيه، بدون انقطاع، كنت أفكر طيلة الوقت بمذبحة صـــبحي ورفاقه، وبالعبور قرب سرمينيا، بالقارب الذي نقلني إلى بـــاطوم، نظـــرت إلى الضفة الأخرى: غابات خضراء، مرتفعات، بيوت صغيرة، والضفة التي تقع بين ضفافنا على البحر الأسود. لقد مر قارب صبحي ورفاقه من هنا ليلاً، قرب هذه الضفاف، ورأوا لآخر مرة الغروب هناك، وربما لم يروه، ربما كان الثلج يتساقط آنذاك، هل كان البحر آنذاك هادئاً أم هائجا؟ إن طاقم القارب كان يعلم بـــأن هؤلاء المسافرين سوف يقتلون، لكن هل كانوا يعلمون؟ وهل تحدثوا معهم وكأن شيئاً لن يحدث؟ ربما ضيفوهم سجائر، وربما كانوا يشـــعلون الســـيجارة مـــن السيجارة ، وحول ماذا كان هؤلاء الناس يتحدثون فيما بينهم؟ وهـــل كـــانوا يفترضون أو يتصورون بأن المذبحة ستحصل؟ أم أنهم صمتوا؟ ومـــتى؟ عنـــدما أخذوا منهم مسدساتهم في أرض روم؟ ربما شكّوا عندما بدؤوا يرشقون سيارتهم بالحجارة في شوارع أرض روم، وكيف سمح قاسم قارا- باقر لنفسه بأن يعـــد موت هؤلاء عندما كان يخاطب رجاله بأنه خطة حربية؟ والآن أعرف بأن الباشا هزم الطاشناق الأرمنيين بمساعدة الانتفاضة الحمراء التي قادها صبحي ورجالـــه من الأتراك الأسرى في روسيا، هذه الهزيمة ستظل تلاحقه حتى الممات، لقد كان الباشا مديناً لصبحي ورفاقه ورجالهم الذين أرسلهم إلى ترابزون كي يـــذبحوا...

هل كان رجال صبحي سجناء عند عودتهم إلى ترابزون؟ وماذا قالوا عندما قادوهم إلى القارب الذي حملهم في عرض البحر عند سرمينيا؟ هل قالوا إنه سيذهب إلى باطوم لجلب القنابل، أم كان لمفاجأة غير متوقعة؟ لكن بالتأكيد سمعوا هديره، وربما لم يسمعوه، بسبب الأمواج العالية وهدير محركه، لكن لو سمعوه، فهل ظنوا " أنه جاء أمر من أنقرة بالعفو ويدعوننا" أم بالتالي، إنهم فهموا بأن الموت قادم! لقد كان هؤلاء الرجال القدوة التي يعتز بها شعبي، كانوا العقلاء والشجعان والأفضل من بين الأتراك، ومن أحبهم شعبنا وبلدنا، ذلك الشعب الذي يعيش في بلده نصف جائع، نصف شبعان، تهدده الملاريا، وتعميه التراخوما، المشتت على أربع جهات، يهرق دمه لينتقل من جبهة إلى جبهة جديدة يحارب عليها، ومن مثلهم آمن بالمستقبل، وبكل شيء حسن وأفضل وبالإنسان؟، أستطيع أن أتذكر وجه صبحي، فقط وجهه، أما وجوه رفاقه فأذكرها كالخيال، أتذكر صدورهم، رقابهم، وظهور أولئك الذين أعدموا، لكن صورة وجوههم فهي مشوشة، أتذكر أيدي القتلة، بنادقهم، مسدساتهم، سكاكينهم، حتى شفاههم تحت شواربهم... ويشخص أمام ناظري مسدس كلب ترابزون " فايق" وأرى وجه فايق، أسمر، ومنخاره المعقوف، أرى يده كيف تضغط على زناد المسدس لتقتل صبحي، وأرى البندقية التي سقطت من يد صبحي، وكيف قلب صبحي من القارب إلى عمق البحر، وربما أنه لم يسقط في البحر، بل سقط على الصخور وربط بالسلاسل من قدميه ثم رموه في البحر.. شَخَصَ كل ذلك أمامي... وغيره... أعرف رسم أحدهم:" نجاة" وهو من إستانبول، يعمل معلماً، وهل توقفت ماكينة محرك القارب أم لا؟ إن الإنسان لا يستطيع تذكر كل هذا، أو الحرب التي استمرت ساعتين في جوف القارب، حرب ساعتين ضد أيد عزلاء، لا تعرف القتل، فيما كان الآخرون مدججين بالبنادق والمسدسات والسكاكين، أنا لا أتذكر وجه" نجاة" من إستانبول، أذكر رقبته، وقد ربطوا عنقه إلى الصخرة...

بينما كنت أجلس في روضة في باطوم، حيث تتلألأ الشمس في غدير الروضة بين الأشجار، امتدت يد إلى كتفي، فذهلت، إنه رشيد، قفز يعانقني، رشيد الذي كان يقوم بدور عطيل في مسرح كامل في أنقرة.

– ماذا تفعل في باطوم؟

– جئت للعمل مع البلاشفة، إن العالم كله سوف يصبح بلشفياً.

لم يسألني ماذا أعمل هنا؟ ولم يندهش لرؤيتي، أعطاني عنوان الفندق الذي يقيم فيه، لكني لم أقل له إنني أقيم في فندق " فرنسا". وبعد أسبوع رأيته يدخل إلى غرفتي، وأعلن أنه يعمل في إحدى الصحف، قدمته إلى أعضاء مكتب الحزب الشيوعي التركي. ذهب ثم عاد بعد شهر وقال: لقد أصبحت رئيس تحرير الجريدة.

(باطوم) هي عاصمة الجمهورية الأجارية الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتي، وأغلب سكانها من المسلمين، ويتكلمون اللغة التركية، وتصدر فيها جريدة باللغة التركية، رئيس تحريرها هو رشيد. ونحن أيضاً نصدر مجلة "النقابة الحمراء" "كيزيل سينديكاتا" وكنا نجهزها في الأناضول وإستانبول ثم نرسلها مع البحارة اللازينيين.

في تلك الليلة التي زارنا فيها رشيد، لآخر مرة، اختفى الختم من المكتب. كان الختم في درج الطاولة وكان الدرج مقفلاً، وقد حطم القفل وسرق الختم.. خرجت مع رشيد، ولم أعد إلا بعد ثلاث أو أربع ساعات. وإذ بالشباك المطل على "البلكون" قد خلع وترك مفتوحاً.

أعلمنا قسم البوليس /التشيكا/.. وفي اليوم التالي استدعيت إلى هناك كان يجلس وراء الطاولة الخشبية، رجل أسود الشاربين، بنظارتين يتكلم باللغة التركية– الأذربيجانية.

– أنت لم تسرق الختم بالطبع، ولا داعي لأن تسرقه أنت، فهو منك لك، لكن بمن تشك؟

- لا أشك بأحد.

- إن جدك باشا، وأباك موظف كبير. لكن هذا ليس مهماً.. فأنجلز كان ابن صناعي.. ووالد مصطفى صبحي كان باشا.

- إنك تشبه مصطفى صبحي- قلت له..

- يعني أنني أشبه رجلاً طيباً- أجاب مبتسماً.

لو قال: إنني أشبه ثائراً كبيراً، ورفيقاً سقط شهيداً وبشجاعة، أو بطلاً بلشفياً، لفهمت الأمر. لكنه قال بأنني أشبه رجلاً طيباً، وهذا ما يدهش.

هطل على موسكو أمطار الربيع وأنا أرسم القطة العاشرة أو الثامنة عشرة.

أعلمني سي- يا- و بأن آنوشكا ستأتي هذا المساء لتحتسي الشاي معنا. فسألته عما إذا كان معه نقود لأشتري ما يلزم.. معه لكن لا يكفي لشراء قطعتين من الكاتو. ولم أكن أملك قرشين. لقد استدنت من البواب شيئاً كقرضة.- ذهب سي- يا- و ليشتري شيئاً للطعام.

بالنظر لكوننا وآنوشكا نحب بعضنا لم نكن لنشك في سي- يا- و قيد شعرة ولعلاقتي المتينة معه. لكن لو كنت مكانه لذهبت دون أن أراها..

دخل رشيد الغرفة، يحمل تحت إبطه حقيبة جلدية محشوة حشواً ثخيناً ويلبس البزة التي يلبسها العمال الروس. وقد بان من تحت سترته، حزام قفقاسي مطرز بالفضة. وقال: "لقد جئت إلى المؤتمر في موسكو، مؤتمر العاملين في التعليم" إذ صار مفوضاً للتعليم ففي جمهورية "آدجار".

وصلت آنوشكا. عرّفتها إلى رشيد. أعجبتها قططي.

- يكفي، فلم يعد ممكناً التحرك في غرفتي من كثرة القطط.. فهمت؟

جهزنا الشاي. وبعد خروج رشيد ذهبت وآنوشكا خارجاً. توقف هطول المطر. وضعت آنوشكا يدها تحت ذراعي. طلبت منها النوم عندها تلك الليلة فرفضت.

- لماذا قبلت البارحة وترفضين اليوم؟

– لا أعلم.. لكن هكذا..

قبلتها. عانقتها عند البوابة. وقبل الفراق قالت لي:

"لم يعجبني مدير التربية في آدجار".

– لماذا؟

– لا أدري، لكن هناك أشخاصاً تتعاطف القطط معهم وبعضهم لا تتعاطف معها. فهكذا قلب القطة.

– لكن أنت لست قطة، عند الإنسان يوجد عقل ووعي، وخصوصاً لدى الشيوعيين.. ولو كنت شاعراً لما استعملت كلمة قلب:

– وهل أنت تحب بعقلك؟

– لو كنت شاعراً لما كتبت قصيدة غزلية واحدة.

قبيل عودته إلى الوطن منذ شهرين، ألقوا برشيد في السجن كجاسوس إنكليزي، ألقوا القبض عليه أمام دار السفارة التركية التي أراد الاختفاء فيها. تذكر هنا أحمد حادثة الختم في باطوم.

لم يحدث آنوشكا عن حبس رشيد الذي أرسلوه إلى سيبيريا. وهناك هرب منها عائداً إلى إستانبول عام /١٩٢٩م/ وكتب وقتها في الصحف مقالاً بعنوان: "كيف أصبحت مفوضاً بلشفياً للتعليم".. أجل لقد كان يعمل في أمن الدولة.

الخط العشرون

استيقظ أحمد مصاباً بالصداع. وقد ترك إسماعيل الباب نصف مفتوح عندما خرج. كان أحمد يقفز من سريره بين الفينة والأخرى ليغلق البـــاب ويضـــيء القنديل "النفطي". لكنه لم يغادر المكان هذا الصباح. وتخللت أشعة الشمس من منافذ الباب. أما هدير المحرك فقد فج دماغه.

– هل ابتدأ الداء؟ هل ذلك الصداع هو الهدير؟ إنه اليوم العشرون.

مد ذراعه وتناول كتاباً من على الكرسي.. لم يُكتب فيه حول اليوم الـــذي يبدأ فيه الصداع. أشعل عود ثقاب وقربه من عينيه حتى كاد أن يحرق حاجبيه.

إنه يستطيع أن يحدق في اللهب، لكن الوقت ما زال مبكراً. والخوف مـــن الضياء لا يبدأ في اليوم العشرين.. نظر في الكتاب. لم يسجل فيه بتاتاً متى يبدأ. نهض واقفاً وابتلع حبة من "الأسبرين". لم يكن جائعاً، لقد فقد الشهية للطعـــام. غلى شيئاً من الشاي، وشربه بشهية فائقة. لقد كان مسروراً جداً، لكن الصداع يؤلمه وكأنه سيشق له رأسه. ثم بلع حبة أخرى من "الأسبرين". أغلـــق البـــاب وأشعل المصباح، وفرك رأس أنفه. رتب الفراش، كالمعتاد، بشكل طبيعي. نظـــر إلى شقوق الباب "نفس المسافات وبنفس العمق". تمنى أن يُسجل الخط العشرين، لكنه أرجأه. إنه ينتظر المساء.. ليعرف لِمَ هذه الضجة؟ رسم علـــى صـــفحات بعض الجرائد صورة قطة. ثم مزقها ورماها. كان يردد دوماً: "إلى أي مرفأ تعبر هذه السفينة بجثات الأشرعة؟".

"لنبدأ لعبتنا، وسوف لن نلعب بعدها؟ ستكون هذه المرة هـــي الأخـــيرة. جلست على الكرسي عارياً، كما المفكر "رودين"، لكني لست عارياً". حاول أن يتذكر كل ما مر في خاطره. "إن الخواطر تمر، أرادها الرجل أم لم يردها، فهـــي تتداعى الواحدة مع الأخرى، الواحدة بجانب التالية.. سمينة ونحيلة، وطويلـــة، وقصيرة، وربما تتوالد الخاطرة من الأخرى. وأحياناً تلد فكرة وربما ليس لها من

قريب أو بعيد علاقة مع الباطن، وتتسع طولاً وعرضاً وعمقاً، وتتكاثر. لكن كيف يعزف الرجل عن هذه الأفكار لوحده، وكيف يمكنه أن يزيلها من ذهنه؟. الفكرة الصحيحة هي أن ينطق عالياً بهذه الألعاب الفكرية، فيمكن له أن يحفظها ويتذكرها.. وإن ما تبقى له هو: الحفظ والذاكرة.. لكن أحلامنا التي تحفز طموحاتنا لا تستمر أكثر من ثوان، بالحقيقة– هل قرأت هذا في مكان ما أم فكرت به لوحدي؟ رأسي يؤلمني قليلاً الآن، إنني هلع كالكلب. يجب أن أفقد الوعي، ثم.. لا شيء".

"يجب التفكير. إني أفكر في خط آخر.. وبماذا غيره أفكر؟ أنا أقول بأن أفكر بخط آخر. أنا أفكر بذلك الذي أفكر به. أفكر بكل ما يمر في خاطري. ولا أفكر في شيء آخر. الوريقات في شقوق الباب، والمسدس. لكن أين وضع إسماعيل المسدس؟ وأين مصطفى صبحي؟ والمسدس الذي على الخزانة؟. لا يزال الصداع يؤلمني. هناك شامة صغيرة على فخذ آنوشكا الأيسر، وفي فتيل المصباح... لماذا لم أفتش عن يوسف في إستانبول؟ ولماذا أفتش عنه؟ لقد التقيت بعثمان علياناك في "بيوغل" وجهاً لوجه، فأدار رأسه وعبر. هل يؤلمني رأسي أم لا؟ من الممكن أن يكون رشيد قد مات في سيبيريا".

استيقظ أحمد. بدأ يقرأ رواية كان إسماعيل قد جلبها معه أمس. نظر إلى الساعة.. هناك عشر دقائق للغذاء بعد. يجب الأكل تمام الثانية عشرة والربع بالضبط..

الخط الواحد والعشرون

– لقد أتت أمي، يا أحمد...

– متى؟ وأين هي؟

– أثناء فرصة الظهر، حدقت، وإذ بها تنتظرني أمام الباب، وقد أسكنتها في الفندق، وجئت لأبلغك كي لا تقلق وسأعود خلال ساعتين أو ثلاث. وقلت لها إنني أنام في غرفة كبرى مع أصدقاء. أمي العزيزة، وكم أحب لو تراها.. لكن هذا مستحيل، وعلى أية حال، أتمنى أن ترى أمي العزيزة. وأمي هي واحدة من أمهات الروايات والحكايا وسأروي لك عنها فيما بعد. وقد ذهبت، فور خروجي من العمل، لرؤيتها في الفندق، وقلت لها سأعود متأخراً..

– لا تدعها تنتظر.. هيّا..

– لم يسبق أبداً أن حدثتك عنها، إنني لا أحدث أحداً عنها. حتى لو أحببت امرأة، فلن أحدثها أبداً عنها أيضاً.

– وهل هذه إشارة لي؟

– كلا يا رفيقي، بل لكل طبيعته وعاداته.

– هيا دع الحكاية تنطلق..

– أمي أم من الكتب والروايات.. وقد كدّت من أجلي، فعملت خادمة في بيوت الناس، غسلت ثيابهم القذرة، قامت بالخياطة للجيش لكي تمكنني من إنهاء الثانوية الصناعية..

"من كان أبوه؟ ولماذا قامت أمه وحيدة بتربيته؟ وماذا حدث لأبيه؟" لم يطرح أحمد هذه الأسئلة على إسماعيل.

– اذهب لا تدع هذه الإنسانة تنتظر.

– إنني ذاهب.. ذاهب.. آه لو رأيتها.. فهي صغيرة، نحيلة..

"لماذا جاءت أمه إلى هنا؟ وماذا تعمل الآن؟ وعند من تسكن؟" وهذه الأسئلة لم يطرحها أحمد أيضاً.

– سوف تبقى ثلاثة أو أربعة أيام في آزمير، فارقد أنت ولا تنتظرني...

– حسناً، وهيا اذهب..

فعل إسماعيل شيئاً لم يفعله من قبل، فقد عانق أحمد بحرارة وتعانق الاثنان طويلاً. أطفأ أحمد المصباح، وترك الباب منفرجاً، ليلاحظ النجوم.. وتمتم أحمد في نفسه، كيف لم يفكر في أمه ولو مرة واحدة منذ أشهر. وقد أحزنه ذلك عندما حضرت أم إسماعيل.

"إن أمي لم تعمل في بيوت الناس، لم تغسل ثيابهم القذرة، ولم تكد من أجلي، لكن هل أنا أحب أمي، كما يحب إسماعيل أمه؟. وإن أمي جميلة.. جميلة.. جميلة؟!.

* * *

– يا آنوشكا، إن كل النساء، في عائلة والدتي، كلهن جميلات الواحدة أجمل من الأخرى.

– إذاً أنت تشبه أباك.

– أجل.. انتظري لأرى، أمي لديها الآن أربعون سنة.

كنا تشمسنا في ساحة ستراسين قرب تمثال بوشكين، كان يوم أحد.

– ما اسم أمك؟

– غوزيدي.

– غيزيدي؟.

– ليس غيزيدي بل غوزيدي.أنتم لا تستطيعون لفظ "أو"

– وأنت لا تستطيع لفظ " تسه"

– إن أمي تكتب الأشعار بالفرنسية.

– أشعار غزل؟.

– ماذا يخطر ببالك..إنها متزوجة.. وهل هذا لامرأة في سنها؟

– ولم لا؟

– كيف لم لا؟ وهل تكتب أشعار الحب لوالدي؟

– ولم فقط لوالدك؟

– ولمن أيضاً؟.. أمي تعزف سيمفونية بيتهوفن على البيانو، أما والدي فإنه يحب الموسيقا الشرقية فقط، وذات مرة، عندما كنت صغيراً في المدرسة الداخلية مرضت، ونقلت إلى المستوصف، جاءت أمي إلي، وأزاحت الملاءة، وقد كان الطبيب هناك ومدرس التاريخ:" غطّ وجهك" صحت بها، كنت غيوراً.. وذلك منذ الطفولة.

مر أمين الخلية الحزبية " بيتروسيان" قربنا، كان مغرقاً في التفكير، ويأكل البذور ويبصق قشرها، وقد رأى أحمد وآنوشكا.

– مرحباً أيها الصغار، اسمع ما سأقوله لك يا أحمد، يلزمني مراجع عن الإقطاع في تركيا، وقد وجدت شيئاً منها وأريد منك أن..

– لا ليس لدي أي مرجع..

– ألم تذهب قط إلى الريف؟

– بلى ذهبت..

– ألم تسأل عن ذلك في القرية؟

–كلا.

– ولم يصدر حزبكم شيئاً عن ذلك؟

– لا أعتقد.

ألقى بيتروسيان نظرة استهزاء وحزن على أحمد.

– وهل لك أن تحدثني شيئاً مما رأيته في القرية.

أعطى آنوشكا حفنة من البذور، وقف قليلاً، وكأن لديه شيئاً يقوله بعد، ثم ذهب وهو يدندن باللغة الأرمنية.

– إن باستطاعتي عشق هذا الـ" بيتروسيان" قالت آنوشكا.

– لم يبق لك إلا هذا..ولِمَ لم تعشقيه حتى الآن؟ وهل باستطاعتك أن تعشقيه؟ أتقولين إنه جميل؟ إن الرجال الذين يرونهن النساء جميلين، لا يراهم كذلك الرجال، وبالعكس.

– ليس لأن بيتروسيان جميل، وبالرغم من أنه كذلك، ليس لهذا السبب، بل لأنه حيوي وكأنه لا يريد أن يموت يوماً، وهو يعلم أنه لم يبق له سوى بضعة شهور في الحياة، لهذا أعشقه.

– وبعد أن يموت لن تنظري إلى غيره؟

– أعتقد بأنني لن أفعل... لكن من يعلم ربما كان باستطاعتي.

وقفا. وسأل أحمد:

– أين نذهب الآن يا آنوشكا؟

– سأذهب إلى البيت لأغسل الثياب.

– هل أستطيع الذهاب معك؟

– تفضل إذا رغبت.

– هل تريدين غداً مساء أن نذهب معاً إلى مسرح ميرخولد؟

– غداً سأذهب إلى حفلة موسيقية مع سي–يا–و.

– كلا.

– لماذا؟

– لأننا نريد الذهاب وحدنا نحن الاثنين.

بعد ذلك لم يتحدث بشيء، وفي منتصف الطريق انفصل عن آنوشكا:

تذكرت الآن بأن لدي شيئاً يجب أن أكمله، حيث إن مجموعة فنية تركية ستشترك في حفلة أحد المعامل، ويجب أن نبدأ بالإعداد لها.

عندما عاد إسماعيل وجد أحمد لا يزال نائماً، كان بدون غطاء، فغطاه،" يا إسماعيل، قال له ضياء مرة إن والدتك ليست أماً بل إنها قوة طبيعية، ولكنها ليست ضخمة كقوة البحر مثلاً، أو الريح أو النار، وليست هكذا مرئية، بل إنها شفافة كالذرة، أصل كل شيء، وهذه حقيقة".

في عام ١٩٤٠ تموت أم إسماعيل، وهذا حدث أمام حارس السجن بورصالي، يشبه الألماني كثيراً، وفي مساء كان، عندما يغلق أبواب السجن ويضع الأقفال في

الحديد من الخارج، كان يردد:" ليخلصكم الإله"، ثم يتكئ على شباك غرفة إسماعيل ويناديه: " تعال أيها المعلم! إن هتلر يقصف لندن مرة أخرى، وسينتصر الألمان في الحرب، فلا تكن عنيداً، واعترف بأنهم سينتصرون في الحرب أيها المعلم". كلا لن ينتصروا" كان إسماعيل يجيبه: إيه، والله أنت الذي تعرف". وهكذا يتحدثان كل ليلة حيث يكون فيها هذا الحارس مناوباً، وهكذا، وأمام قدمي ذلك البورصاني، تموت أم إسماعيل، في غرفة الزيارات، حيث يجلب الزوار المؤونة للمساجين:" جلبت لك يبرقاً بورق العنب، يا إسماعيل، وقد حملته لك من مانيسا إلى هنا، ولا تنسَ أن تعطي منهم السيد الحارس يا ولدي.." قالت ذلك وسقطت قدام قدمي الحارس.

كان إسماعيل يصغي إلى هدير المحرك، ثم قفز " لقد تعطل فيه شيء" هكذا ظن، ثم عاد ونام.

الخط الثاني والعشرون

عندي ضيوف: منهم من يجلس على الأرض، ومنهم من يجلس على الكراسي، وواحد منهم وقف ملقياً ظهره على الحائط قرب النملية، وواحد آخر يقف إلى يسار الباب، وأنا أقف على رجلي، يسار الباب قرب النملية، مسنداً ظهري إلى الحائط.. ثم جلست على الأرض، ثم جلست على السرير، ثم على الكرسي، ثم أخذت أتمشى في أرض الغرفة، ووجوه ضيوفي تلمع من ضوء القنديل الزيتي، فمنهم من كان وجهه يُرى من الأعلى، أو من الأسفل، أو من الخلف، وآنوشكا تدخل وتخرج دون أن تفتح الباب أو تغلقه، تخرج وتدخل من الحفرة التي حفرناها، ربما كانت تخرج من الفتيل، أو من لهب الفتيل. ومن بين ضيوفي هناك من أحبه من أعماق قلبي، وهناك من تقرفني رؤيته، لكن لا أفرق في صداقتي لهم فأنا لا أضمر الحقد لأحد، ما عدا أولئك الذين قتلوا أو أمروا بقتل مصطفى صبحي، وللطبقة المستغِلّة في كل العالم، والفاشيين والإمبرياليين، والمرأة التي جرحت لينين، والكولاك، والاينيكيك، والضابط الأشقر الشعر الذي قتل والد آنوشكا وهو من الاشتراكيين الديموقراطيين، وكذلك الملك اليوناني قسطنطين، وأفيروفا، والجيش اليوناني الذي أحرق أزمير، وأسطول الحلفاء الذي جعلنا نهرب من إستانبول إلى الأناضول، وأظن أن هؤلاء هم كل من أكرههم.. ربما نسيت أحداً، أجل محكمة الأمن القومي التي سجنت رفاقنا والتي أمرت بالقبض علي.. على أية حال إن هؤلاء الذين عددتهم هم الذين يكرهونني والذين يعلمون أنني باق، لكن الإمبريالية على سبيل المثال لا تعلم حول ذلك شيئاً بعد، لكن أنا لدي أعداء بدون سبب، لماذا؟ " هكذا".. هذا ما تقوله آنوشكا " هكذا".. فهناك أعداء لي، لكني لست كذلك، إنه لمن المضحك أن تعرفوا أن هناك من يكرهونكم وأنتم لا تضمرون كراهية أو سوءاً تجاههم، أو أن ترغموا أنفسكم على التفكير هكذا.. "وأنا أيضاً يجب أن أكرهه" وتنسون

فيما ببعد، هذا مضحك... إن هذه الكلمات لا تعبر تماما عن المشاعر، لكن هذا ما خطر ببالي قوله.

عندي ضيوف: من كل المدن التي أعرفها، مثل أولئك الذين أعرفهم من خلال الصور والكتب، أو كل الأحياء، والممرات الجبلية والغابات والشوارع، والليل والنهار، والنهر الذي ينبع من قرب قرية " كيريزيلي" والخليج الصغير "كلاميش" في إستانبول، وشارع تفيرسكا في موسكو المرصوف من الخشب، والمقهى ذي المرايا في بولو، حيث يرى المرء نفسه في المرايا، كما المرآة التي في بيت العم علي حيث كنت أرى نفسي وكأن على رأسي قلبقاً، والمراعي المملوءة بالأغنام.

إني أتمنى أن أخسر عشر سنوات من عمري ولا أبدو أكبر سناً..

في المرآة، كنت أرى ذلك النذل الذي كان يراقبني، لكن كيف كان يراقبني؟ من خلال عمامته المبطنة القذرة، وكان ذا لحية مدورة، وعيناه مكحلتين، التفت إليه، فاستدار فرميته بحصوة كانت قربي، في بولو كانوا يسمونني " المعلم المجنون"، وأعتقد أنني بهذا النعت قد حظيت باحترام كبير من الجميع، لم يكن لدى جواد عمامة مبطنة، ولا لحية مدورة، ولم يكن لوطياً أيضاً، لكن كان يلغز عليه في بولو، وهو قريب رشيد الذي أصبح مديراً للتربية في " آجار" وكان ممثلاً هاوياً، وكذلك كان جواد ممثلاً محترفاً، وكم كان يتباهى بذلك ولا أدري كيف جاء إلى روسيا، ويعمل في قسم الأمن، إنه يكرهني..لماذا؟ لست أدري.. حينما كنت أنا ورفاقي في أحد مقاهي" آربات" أتحدث لبيتروسيان حول الريف، جاء جواد وجلس إلى طاولتنا، كان ثملاً، استمع إلى حديثي وقتاً من الزمن، ثم صرخ:" اسمعني، أنت، أنت عميل لمصطفى كمال، وإن إضبارتك هي لدينا، وحياتك مرهونة بإشارة مني، وتحت رحمة أو لا رحمة رصاصة واحدة". لم يعطني بتروسيان وقتاً لأرد عليه بل نهره قائلاً:" اخرج من هنا أيها الحقير". أخرج جواد وشتمه، ثم عاد ليتابع حديثه:" الثورة كهيجان البحر، تخرج كل ما في القاع

ليطفو على السطح ثم تملأ خلجاننا". بعد ثلاثة أيام التقيت جوادا أمام سينما "شانوار"، أمسكني من يدي ثم وضع يده على كتفي:" اكتب حواراً مسرحياً ولعلك تأخذ دوراً فيه وأنا سأقوم بالإخراج" هذا ما قاله لي، إن جواداً هو عدو لي، وأنا لا أضمر له العداوة، بل إنه يقرفني وواضح بالنسبة لي أن الشعور بالعداء مهمّ عندي، أما الشعور الجدي فيجب ألا أفرِّط فيه.

تعرفت في باطوم إلى نوري جمال، كان له لحية كثة مبيضة، كان لديه خمسون سنة، أصدر في تركيا كتباً حول الصداقة وقواعد اللغة التركية، وكان منفياً في "فيزان" في إفريقيا لأنه عضو في حزب تركيا الفتاة، في زمن عبد الحميد، كما كتب قصائد للأطفال، الواحدة منها أعظم من الأخرى، وبعد سقوط القيصرية الروسية ذهب إلى باكو للعمل في التجارة، ومن خلال ذلك تعرف إلى صبحي، ودخل في الحزب، ويقال إنه أرخى لحيته كي لا ترى آثار الجرح الذي في ذقنه، ولا أدري عما إذا كان في ذقنه آثار جرح أم لا، وهو يحب النساء كما الحال لدى الرجال المسنين، وربما ليس كل الرجال المسنين هكذا، ويعرف الفرنسية والروسية واليونانية، وقد تعلمت على يديه بعض التعاليم الماركسية مثل نظرية "فضل القيمة" ولم يكن يحب الاستحمام كثيراً، مثلي، أي لم يحب الاستحمام بشكل كثير.. في باطوم، وفي فندق " فرنسا" كنا سوية في الغرفة، كان فيها سرير ملوكي، ليس لوجود الشرشف والمخدة، بل لم يكن عليه شرشف أو مخدة، لم يكن عليه سوى بطانية واحدة، لكن لكونه مريحاً بمفرشه، إنه بالفعل ملوكي، وكان في الغرفة أيضاً ديوان، وكم كنت أردد:" أنا سأنام على الديوان، أما أنت فنم على السرير"، لكنه لم يقبل:" غداً أو بعد غد سنعود إلى البلاد، يا أحمد، وهناك ينتظرنا العذاب، فسيسجنوننا، وإذا عودت نفسي أنا العجوز النوم على السرير الملوكي، فسيكون صعباً علي بعدها النوم على أرض السجن القاسية". وهكذا نام على الديوان وغطى نفسه بمعطف إلى ما فوق رأسه، وكان قد شرب الشاي بدون سكر، وقد ذهبنا معاً إلى موسكو، وعيّن هناك مدرس جامعة، وقد

عرّفته إلى آنوشكا، ولم يمضِ وقت طويل حتى قالت لي الفتـــاة:" إن صـــديقك الأستاذ عرض علي الحب بعبارات جميلة".

– هل بمقدورك أن تحبي رجلاً أكبر منك يا آنوشكا؟

– وماذا يعني أكبر؟

– خمس وثلاثون، أربعون..؟

– بمقدوري أن أحبه، حتى لو كان أكبر من ذلك.

– وهل صحيح ما تقولينه؟

– صحيح.

– أليس هذا عادياً؟

– لماذا، إذا أحبّت امرأة متقدمة في السن شاباً صغيراً، يقال إنه ليس عادياً. وربما ليس الأمر هكذا، وهل يوجد عادي وغير عادي في علاقات الحب؟

عاد أستاذنا نوري جمال إلى تركيا عام ١٩٢٨، وعمل في معهـــد اللغـــات التركي، ثم أصبح نائباً، ومات في الثانية والسبعين من عمره.

في تلك الليلة التي كانت ستذهب فيها آنوشكا مع سي – يا – و إلى حفلة موسيقية، ذهبت إلى غرفتها، قبل ساعة من بدء الحفلة، وكان ســـي– يـــا– و هناك.

– انظر– قالت آنوشكا– لقد قلت بأن لديك عملاً.

– لقد أنهيته.

أخذنا نتنقل بالحديث من فكرة إلى فكرة، وأنشد سي– يا– و بعض الأغاني الصينية، أنشدها أولاً بالصينية، ثم ترجمها إلى الروسية، وعنـــدما جـــاء وقـــت الانطلاق قالت آنوشكا:

– نحن سنذهب.

– أنا سأبقى هنا، أجبتها.

ابقَ– قالت– لكن بشرط واحد، أن تستحم، تغلي الماء في المطبخ، لكن إياك أن تزعج الجيران، وعندما يخرج الجيران، تستحم في زاوية من المطبخ، وأرجو ألا

توسّخ حواليك، خذ منشفة الحمام من الخزانة، أو يستحسن أن تذهب إلى البيت وتجلب ملابس نظيفة.. هل تعدني بذلك؟

- أعطيك كلمة بذلك..

لقد ذهبا.. إن هذا سي- يا- و يدهشني فعلاً، فهو يعلم بعلاقتي مع آنوشكا، ومع هذا لا ينكر أنه يعشق هذه الفتاة، كيف هذا؟ ذهبت لأحضر ثياباً نظيفة.. كل الطريق وأنا أفكر بسي- يا- و، وقليلاً قليلاً أخذت أفكر بسي- يا- و وآنوشكا، لقد سيطرا بشكل كامل على تفكيري، وضعت على موقد الكاز وعاء الماء وعدت إلى الغرفة، خلعت بزتي، ثم عدت إلى الديوان، عندما كانت آنوشكا تسمع موسيقا كانت تضع يدها على رقبتي، أما الآن فإنها تضعها على رقبة سي-يا-و، وماذا سيحصل بعد ذلك؟ كيف ماذا سيحصل؟ سيعودان مشياً من الحفلة، وسيمشي الواحد مهما ملتصقاً بالآخر في الشوارع الخالية.. وهل هذا يفسر رغبتها بأن لا أذهب معهما إلى الحفلة؟ فما الذي حصل؟ آه.. يا للقرود.

غلب علي النعاس، ثم استيقظت كالمجنون، حيث أن المياه الساخنة طفت وسالت على رأسي .. آنوشكا تقف قرب الديوان وفي يدها دلو.

- هل جننت يا هذه؟

- لماذا لم تستحم؟

بذلتي، الديوان، وكل شيء من حولي مبلل، وقد احمرّ وجهي من الغضب.

- هذا نتاج ما فعلت..

- لا ترفع صوتك فتوقظ الجيران..

- لا زلت تتسكعين مع سي- يا-و..

- ماذا قلت؟

-لقد سمعت ما قلته؟

- هنا ثيابك، البسها واخرج.

مر أسبوع بكامله ولم نحيي بعضنا.

عملت معرضاً لرسوماتي على كل مساحة الغرفة من الباب إلى الباب وعلى ارتفاع نصف متر، وقد شاهدها كريم مع آنوشكا، فيما وقفت مع سي- يا- و جانباً. وكانت الرسومات تمثل الشيوعية البدائية في عصر العبودية، ثم الإقطاع، فالرأسمالية، ومن الجانب الأيسر للباب تمثل التنظيم الاجتماعي الأمثل: الشيوعية العالمية، وحدة الأعراق في عالم واحد دون حدود، دون حكومة، دون طبقات، إنسان المذهب الواحد في العالم، والشعب الواحد، إنسان المذهب الشيوعي والشعوب.

قالت آنوشكا:

- دائماً أفكر بأمر، وهو متى سيتكلم الناس في النظام الشيوعي العالمي لغة واحدة موحدة، وما هي هذه اللغة؟ وهل هي الروسية؟ ولِمَ تكون الروسية؟ لم لا تكون الصينية مثلاً؟

- ربما قال سي- يا- و.

ابتسمت آنوشكا.

- أوه، إنك دائماً متعصب قومياً، ربما تكون لغة مختلطة، ربما إنكليزية، أو أية لغة أخرى مغايرة، لكن إذا لم تكن هذه اللغة هي الروسية، إذن فكيف بإمكان الناس أن يتمتعوا بأعمال بوشكين؟

وهنا أجاب كريم وهو لم يزل يحدق في اللوحات، بعينيه العسليتين ذات الحاجبين السوداوين:

-أنا لم أقرأ لبوشكين، وهذا عيب أو ذلك لعدم معرفتي الروسية جيداً، ولم تترجم أعماله إلى التركية، لذا فماذا أعمل ولا أظن أن هذه اللغة العالمية التي تقولون ستكون التركية، وأعتقد أن عدداً من اللغات العالمية ستبقى. لكن اللغة ليست هي المسألة أو السؤال: بل أن لا يبقى رجل واحد جائعاً، ولا عاطلاً عن العمل، ولا أمياً، ولا رب عمل وعاملاً أجيراً، أو عاملاً زراعياً مضطهداً ولا

شرطياً، حتى ولا شرطة كي لا يبقى أحد يرتعد من الخوف، بل ليعمل بقدر ما يريد.. آه، يا أماه، ليحصل ذلك، لكن بسرعة. إن هذا الشكل التام لن نراه، لكننا سنرى الثورة العالمية وهذه كافية، إن الجميع ينتظر انتفاضة البروليتاريا الألمانية، لكن أنا أعتقد أن البروليتاريا الفرنسية سوف تبدأ بالانتفاضة. كان معلم ديكور هو " سيفي" يعمل في المؤسسة العسكرية في أنقرة، وكان قد عمل في مارسيليا عشر سنوات، كان يقول دوماً:" سترون ماذا سيفعل العمال الفرنسيون، وإن كومونة باريس مستمرة..".

لقد وظفت منظمة أنقرة " كريم" في الجامعة، وهو أعز أصدقائي في موسكو، وهو يكره شيئين بشدة: التدخين، والكذب، ولم يسمح لي بأن أدخن وهو معي:" إن الإنسان باستطاعته أن يكذب على العدو، وليس رجلاً ذلك الذي يكذب على المرأة، حتى لو كان يمازحها" وقد تعرف، ذات مرة، إلى إحدى صديقات آنوشكا، وقد اتفقا جيداً، لكن الفتاة لم تفلح ولو مرة واحدة في أن تجعله يقول لها:" أحبك كثيراً يا ماروسيا".

– يعني أنك لا تحبني يا كريم؟

– لكنني أحبك.

– وهل تحبني كثيراً؟..

– ليس كثيراً...

– ولماذا ليس كثيراً.

– لست أدري، أحبك لكن ليس كثيراً، ولو كنت أحبك كثيراً لقلت لك، فحتى الآن لم أحبك كثيراً.

– درجة الحرارة ثلاثون تحت الصفر، ذهبت أنا وكريم متأخرين إلى الحمام، الواقع في أحد أركان شارع تفيرسكا، وقد استحممنا محاولين أن لا يرى الواحد منا الآخر، ووضع كل منا وعاءً كبيراً تحته، لأننا لم نعتد على التعري، وفي الحمام لا نستعمل المنشفة أو ما شابهها، وخرجنا إلى الشارع، كان الوقت متأخراً،

كانت قناديل الشارع مضاءة، وبلور الترام متجلداً، وكذلك واجهات المحـــال، حتى إن البصقة تكاد تتجمد قبل أن تصل إلى الأرض، وهناك مثل في الأناضول يقول:" البرد القارس يحول أوراق الشجر إلى نحاس"، هكذا كان البرد شديداً، كان المشاة يمرون ركضاً، غالبيتهم يرتجفون، وقد عبرت امرأة بجانبنا ثم تزحلقت فرفعناها، وقد تجمدنا من شدة البرد تحت معاطفنا وقبعاتنا " الإلهيـــة" ومـــا أن وصلنا إلى الباب حتى تمسكنا به ولذنا، وفي هذا البرد كانت ضجة المدينة مـــا تزال على أشدها. أشرت لكريم إلى فتاة كانت تأتي إلينا ونلتقيها:" انظر إلى هذه الفتاة، كم هي جميلة، خداها متوردان، متوردان" فأجاب: " لقد احمر خداها من الصقيع، وأنفها صار كالخندق".

وعاشت المدينة أيضاً ليلة أخرى باردة، ولا أدري ماذا ســيحدث بعـــدها، وليس موسكو وحدها في هذه الحالة، بـــل وبـــاريس، نيويـــورك، إســـتانبول، سنغافورة، وبكين، وكل المدن الواقعة على الكرة الأرضية، ففي بعضـــها الآن نهار، وفي بعضها فترة الشفق، وفي بعضها الآخر قيظ، وكل منها تحيا همومهـــا، أفراحها، آمالها، آلامها، سياراتها، فقرها وغناها، معاملها، ومستودعاتها، بيوتهـــا الحجرية والخشبية والورقية، وكذلك أولئك الـــذين يـــذهبون إلى العمـــل، أو العائدون إلى البيت، أو العاطلون عن العمل يتسكعون، أو يجلسون في المقاهي، أو يقبّلون في الحدائق، ودور السينما المليئة بالمشاهدين، وأولئك الذين يولدون، والذين يموتون، غير نفر قليل من الناس يعلم بأن العالم، بعد قليل، بالضبط بعد قليل، سوف ينهار..

وصلنا قرب سينما" شنوار" وهناك فتح الباب إحدى الحدائق فجأة، بـــاب عالٍ خشبي كبير وضخم، ولم أعلم هل كان الباب أمامنا أو إلى جانبنا أم مقابلنا، وبدأ الناس ينـــزلون من سيارات الشحن ويدخلون بسرعة عبر هذا الباب، ثم سمعت ضجة كبرى، لقد كان عدد من الرجال يصيحون سوية وبصوت واحد، وكنت أسمع أصواتهم كأنه الرعد، وقد ميزت صوت رجل واحد صاح قويـــاً،

أقوى من عمق الشارع، والبرق وطلق الولادة، وأقوى من الليل ومن الصقيع، صاح: " مات لينين" فما الذي حصل بعد ذلك؟ أرى بعض ذلك، لكن ليس بشكل واضح، بل مختلطاً، هذا كل ما سمعته، وهذا ما سمعت فعلاً، الصحف تنزع من بين أيدي حامليه من قبل أولئك الذين يعبرون من الباب الخشبي، وبجانبي توقفت حافلة أفرغ ركابها، وهكذا بقية الحافلات الأخرى، لم أسمع شيئاً، رجل عجوز كان يبكي، وقد خلع قبعته وضغط على صدره، كان أصلع، وينهنه، ثم أفرغت دور السينما، حيث هرع المشاهدون إلى الشارع، وكأن حريقاً شب في السينما، وكذلك المطاعم، والبيوت، وكل شيء خال في الشارع، وامتلأ شارع تفيرسكا بالناس الذين تجمعوا واحتشدوا حول بائع الصحف، وبقربي سائق يبكي، ثم جلس على خط الحافلة، والفتاة الموردة الخدين التي رأيناها، كانت تبكي، وكريم بيده الجريدة، أما أنا، أنا لا أسمع شيئاً، وكأن كل ما يحصل يحدث ككابوس، أحدهم سقط مغمياً عليه، ثم آخر، والناس كان الواحد منهم يرتمي على الآخر يعانقه، لكني لم أسمع صوتاً لهم، أحدهم يدفعني من الخلف، التفتّ وإذ بها امرأة عجوز قصيرة القامة، مزملة بصوف غنم، ورأسها مغطى بشال.. أمسكتني من يدي وقالت شيئاً لكني لم أفهمه نظراً لعدم وجود أسنان في فمها، أشرت لها برأسي، وسألتني بصوت طفلة في السادسة- السابعة من عمرها، " هل حقاً مات لينين؟" أشرت لها برأسي:" يقال إنه مات" واعتقدت بأنها سوف تستعوذ بإشارة الصليب لكنها لم تفعل، وتركت يدي" يا لمصيبتنا" وأعادت :" أماه يا للمصيبة... يا للمصيبة... يا للمصيبة.. يا لمصيبتنا" ثم اتسع الصوت، اتسع، اتسع، في كل اتجاه، كالصدى، ثم توقف فجأة، ثم سمعت الصوت الحقيقي، عندما توفي جدي سمعت عشرة أشخاص ربما أكثر يصيحون سوية دفعة واحدة، هل يمكن أن تتصور عشرين شخصاً يصيحون سوية، فما بالك إذا كانت المدينة كلها تصيح سوية وبصوت واحد، إنه الرعد الذي لا يمكن أن تسمعه خمس أو عشر دقائق، وعليك أن تسمعه، لكن الغريزة تدفعك كي لا تسمعه كي لا تصاب بالجنون، أو تفقد أعصابك وعقلك.

وعندما عدنا قالوا لنا بأن الشيوعيين سوف يقومون بالحراسة، لم أستطع البقاء في الغرفة مع سي-يا-و، ولم نتمكن من الحفاظ على وحدانيتنا في الغرفة، حيث غصت بالناس، ذهبنا إلى غرفة واسعة، كان الجميع يجلسون على الأسرّة، ولا أحد منهم ينبس ببنت شفة، لكن واحداً أخذ يقطّع ثيابه، نظرنا إليه، لا بحقد أو كراهية، بل بدهشة صامتة، أخذنا نراقبه كيف أظهر نقطة ضعفه، ثم نام، بعد أن غطى نفسه بالبطانية إلى ما فوق رأسه، كنا جميعاً نراقبه.

عند الفجر قمت بدوري في المناوبة على الباب الخارجي، من جهة الشارع لكن من الداخل، وفي يدي بندقية، ولعمري لم أكن أعرف كيف تستعمل البندقية.

وضعوا لينين في قاعة الأعمدة.

وقد نقلت القطارات البشر من الجهات الأربع للبلاد إلى موسكو، ليلقوا نظرة الوداع على لينين، وكان نهر البشر يمر من مدخل مؤد إلى القاعة التي سجي فيها لينين، عابراً قربه، ثم يخرج من الباب الآخر إلى خارج المدينة، وبقي هذا النهر يجري ليلاً نهاراً، وهو يلف حول لينين ويعبر خارجاً، وقد بقيت سيارات الإسعاف تنقل الناس الذين يسقطون من الحزن أو البرد إلى المستشفيات. في مساء اليوم التالي جاء إليّ بتروسيان وقال:" البس بسرعة يا أحمد" صعدنا إلى إحدى الشاحنات، وبقوة متناهية تمكنت الشاحنة من العبور بين صفوف الناس الذين تجمعوا حول النيران التي أضرموها ليتدفؤوا، وتوقفنا عند البوابة الخلفية لقاعة الأعمدة، وعند العبور قال لي بتروسيان:" أنت ستقوم بالحراسة لمدة خمس دقائق عند ضريح لينين ممثلاً عن الجامعة".

إن القاعة التي يسمونها قاعة الأعمدة، كانت نادياً للضباط، زمن القيصرية، أما اليوم فأظن أنها نادٍ للنقابات، صعدت على الدرج الأخير حيث تسمع، من جهة ما، موسيقا جنائزية، دخلت إلى أحد الممرات المرصعة بسالمرمر والذهب والأحجار الكريمة، كان ضباط وصف ضباط من الجيش الأحمر، وعمال،

وفلاحون ملتحون وحليقون، ونساء من جميع الأعمار، ومن جميع الفئـــات... الموسيقا الجنائزية.. ويبدو أن أكثر من فرقة موسيقية كانت تقوم بالعزف، وليس فرقة واحدة فقط، ولا أحد يتكلم، وكم من الوقت انتظرت؟ ثم جاءني أحدهم وهمس في أذني:" تعال"، فتح باباً، فصعقتني الموسيقا الجنائزية، انفجرت في وجهي كالبحر الهائج، كما بهرني الضوء الساطع بشكل غير محتمل، ولم أرَ مثل هـــذه الثريات إلا في الكرملين، وتحت هذه الثريات يجري نهر البشر والدموع، دخلت مع الرجل الذي جذبني من يدي، فرأيت أول ما رأيت " كروبسكا" تقف تحت الثريات الضخمة، شعرها أشيب من وسطه، وفستانها كان طويلاً، وذراعاها إلى جانبها.. وعيناها العائمتان مفتوحتان على اتساعهما ومثبتتان على نقطة واحدة. وهنا رأيت لينين. جبهته، جبهته الصفراء، واسعة بصورة لا تُصـــدّق، مقوّســـة كفسحة الأرض البيضوية. كان لينين ممدداً على ظهره، ويداه مشتبكتان علـــى ظهره الذي رأيت عليه وسام الراية الحمراء أيضاً. كان لينين راقـــداً في نعـــش مكشوف بين الأزهار والورود. كان يحرسه اثنان من جهتين، من جهـــة رأســـه الأصلع، ومن جهة قدميه، وقد قمت بالحراسة عن شخص من آسيا الوســـطى، لقد قال لي شيئاً عندما كلفني بالحراسة، ولم أُجبه... أقف وبنـــدقيتي في يـــدي، وبدون أية حركة قرب رأس لينين، أرى كروبسكايا، أرى صلعة لينين، والنـــهر البشري، بصفوف أربعة، يجري بلا انقطاع، اثنان من كل جهة، والأكثريـــة لا تبكي الآن، إلا الذين كانوا يصلون إلى ارتفاع لينين، أو الذين يمـــرون أمامـــه، كانوا يتوقفون بغتة، كما لو كانوا يسيرون معصوبي الأعين وقد اصطدموا بعقبة ما.. ثم يتقدمون تحت ضغط الذين خلفهم. وحتى اللحظة التي يخرجون فيها من القاعة، كانوا ينظرون إلى الوراء، حتى يبتعدوا ولا يعودون قادرين على الرؤية، أرى كروبسكا، أرى صلعة لينين، ومن الجهة اليسرى دخل بحارة، ظننتهم بحارة " كرونشتات". من المحتمل أنهم لم يكونوا من كرونشتات، لكن هذا ما ظننتـــه، كانوا بلا معاطف وصدورهم عارية، في الخارج كان يتساقط الثلج، فقد كانت

كنـــزاهم وأكتافهم وشعر صدورهم بيضاء ومبللة، كانوا شباناً طوال القامـــة وأقوياء، تقدموا في صفوف مكثفة، يقودهم آمر الفصيلة، الذي وصل حتى نعش لينين، حيا وصاح:" آه..يا أمي"... وسقط على الأرض، ولم يُحدث ذلـــك أي إرباك في الجوار، رفع البحارة قائدهم ومروا نسقاً واحداً والدموع مغرورقة في أعينهم الزرقاء، خيِّل إلي أنهم قدموا من البحر ولن يعودوا إليه أبداً، ثم لاحظت بعدها أنهم ينهضون أولئك الذين يغمى عليهم في الصفوف ويخرجـــونهم، أرى رأس لينين إنها صلعته الضخمة بالضبط...أسمع المارش الجنائزي ... نهر البشـــر بأربعة صفوف يجري بدون انقطاع... لكن شيئاً لم يعد يهمني أكثر.. أرى لينين وأريد أن أصرخ .." آنوشكا، هل يسمحون بالبكـــاء وقـــت الحراســـة، أم لا يسمحون، أنا لا أمزح بل أرغب في البكاء، لكني لا أستطيع".

" ماذا تفعلين هذا المساء؟ ولم أسأل آنوشكا ذلك؟".

عندي ضيوف: لقد أتوا من أبعد أصقاع حياتي.. وابتسم أحمد:" كم هـــي حياتي طويلة حتى يكون فيها هذا البعد أو القرب". لكنه فكر" لكني لم أعـــش سوى جزء صغير من الحياة". ولم يفكر بعد اليوم بأنه يمكن أن يموت برصاصة من إسماعيل." وبالحقيقة الرصاصة والمسدس هما لي لكنه هو الذي ســـيطلق.. الآن ماذا تعملين يا عزيزتي آنوشكا؟ ماذا تفعلين الآن؟ في هذه اللحظة التي أســـأل فيها، ماذا تفعلين؟ أسمع بشكل مفاجئ وهدير المحرك، لقد نسيته طيلـــة هـــذه الفترة، لأنه حينما يسمع المرء نفس الهدير، فلا يعود يسمعه، وإني سعيد لسماعه مرة أخرى، وكأني التقيت صديقاً قديماً لم أره منذ زمن بعيد. أصغيت إليه طويلاً، طويلاً، ثم نسيت هدير المحرك مرة أخرى.

... عينا كريم العسليتان تحت حاجبيه الأسودين الكثيفين... إنه كريم بحاله.. فقد عدنا من موسكو معاً، كريم وأنا.

نحن في إستانبول، على الجسر، الطقس غائم، ستمطر، بدأنا ببيع أول عـــدد من " المطرقة والمنجل" وقد اتفقنا أن نبيع العدد في جهتين مختلفتين، أنـــا علـــى

الجسر، وكريم في قاسم باشا، قرب المستوصف الفني، ولكن عندما التقينا على الجسر قلت: " ماذا كان لو وقفت بجانبي، خمس أو عشر دقائق".

– هل تخاف؟

– أي خوف هذا؟ كلا يبدو لي أنني غير قادر على الصياح" المطرقة والمنجل" صدرت المطرقة والمنجل اليوم[1]..

– أنت خجلان.

– أجل شيء من هذا، ولعمري لم أبع شيئاً.

– وهل تظن أنني بعت قبلاً؟ أو أن أبي كان بائعاً في الشوارع؟

– لا تغضب، فلا أعرف كيف سيكون صوتي حين أصيح..

– يا بني! أنت أرستقراطي، وابن باشا.

سحب كريم عدداً من الرزمة التي يحملها تحت إبطه، وبدأ يصيح ويلوح بالجريدة:

–" المنجل والمطرقة، وآخر الأخبار".

الناس الذين يمرون بجانبنا لم يعيرونا انتباهاً، حتى إنهم لم يديروا رؤوسهم نحونا..

بدأت تمطر بغزارة.

–" المنجل والمطرقة" عدد جديد.

وسحبت، أنا، عدداً، فيما كان كريم يدس الجريدة قرب أنوف المارة الذين يعبرون بسرعة كي لا يتبللون.

" المطرقة والمنجل، المطرقة والمنجل..."

ولم يشتر أحد، غير أن بعضهم كانوا ينظرون إلى ملابس كريم التي لا تشبه ملابس بائع جرائد في الشوارع، وربما لذلك لم ينتهروه، فكانوا يقولون له: لا نريد.. ويعبرون.

---

[1] هي جريدة الحزب الشيوعي التركي المشروعة، صدرت حتى ١٩٥٥، ثم منعت.

..." لأمه..." هل لا يمر فوق هذا الجسر ناس محترمون؟ " المنجل والمطرقة" إيه.. لن نبيع عدداً واحداً فوق هذا الجسر الحقير؟ لكنه في قاسم باشا، سوف ننفق بضاعتنا.

ألقيت نظرة على العنوان الذي تحمله الجريدة التي أحملها في يدي:" يا عمال جميع بلدان العالم اتحدوا" وصحت بملء صوتي فجأة، وكأن شيئاً يؤلمني، وأدهشني صياحي:

– يا عمال جميع بلدان العالم اتحدوا... يا عمال جميع بلـدان... " المنجل والمطرقة".

– صرخت، وكأني أنادي النجدة. – اتحدوا..." المنجل والمطرقة".

– هات لنرَ كيف سيتّحد جميع بروليتاريي العالم... وكدت أعانق ذلك السيد الذي طلب مني الجريدة لشدة فرحتي.. قدمت لها الجريدة:" خذ النقود يا ولدي" لاحظت أنه يمد لي نقوداً بالفعل، وبعد هذه الكلمات التي قالها، تبسم:

– عندما كنت شاباً، كنت في باريس، وكان الاشتراكيون هناك يبيعون مثلك جرائدهم".

وفي ذلك اليوم بعت / ٤٥/ عدداً على جسر غالات، أما كريم فقد باع في قاسم باشا /٢٢٥/ عدداً.

* تقدمنا بسهولة فائقة نحو الساحة الحمراء، أمامنا، خلفنا، الجمهور، رايات، أعلام، صور، أناشيد، كانت مجموعتنا تنشد:" نشيد أول أيار" أول أيـار، أول أيار طموحنا الأول" انضمت إلينا آنوشكا:" أتخاف أن تهرب" قال لي كـريم" لا أدري، ودوماً يلاحقني خوف بأني سأفقدها، وتصبح كالـدخان، أو ستطير كالعصفور" هل أنت جاد بما تقول؟ أم تمزح؟ " بل جاد" . " كنت أظن أن مثل هذه الأمور لا تجدها إلا في الروايات".

أبطأنا السير، ثم توقفنا تماماً، كان يسير خلفنا قفقازيون، وسرعان ما كونوا حلقة، ثم أخرجوا شاباً إلى وسط الحلة، وأخذوا يرقصون رقصة الشيخ تشاميل[1].

---

[1] الشيخ تشاميل أو كامل أحد كبار المناضلين الشركس، ورمز وطني معروف ببطولاته التي بقيت مضرب المثل لدى شعوب القفقاز.

وأخذ الشاب يرقص، كان من داغستان، وفي الوسط كان يرقص شـــاب هـــو أحلى شباب الجامعة، تركت آنوشكا ذراعي وراحت تتفرج على الـــرقص، ثم تبعتها، وقد أخذ الشاب يقلد في رقصاته الصلاة، لأن الشيخ تشاميل كان يصلي قبل أن ينبري لقتال جيش القيصر، وتؤدى هذه الرقصة ببطء الصلاة، ثم يتغير اللحن فجأة، فيقفز تشاميل ويستل خنجره، ومن وقت لآخر يقف على رؤوس قدميه ويلف كالبلبل، ويقاتل، كان الشاب لامعاً كالبرق، وقد تألمت من جراء هذه الرقصة، إنني أحترم الشيخ تشاميل، بل وأحبه، لكن كيف تفوتني مثل هذه الرقصات ســـواء أداهـــا القفقاســـيون أم الأذربيجـــانيون، أو الأرمنيـــون أو الجيورجيون أم الداغستانيون، وتمر هذه الرقصات دون أن يدخلوا إلى وســـط الحلقة ويرقصون...

شابان أو ثلاثة، وفتاتان أو ثلاث، يمسكون بذراع الشاب الراقص وعلـــى الجوانب يلمسون بعضهم بالأيدي:" هل تروق لك هـــذه الرقصـــة؟" ســـألت آنوشكا، " أجل، وباستطاعتي أن أتأملها طويلاً، دون ملل" " أم يـــروق لـــك الداغستاني؟" " ولنفرض أنه الداغستاني، فماذا؟".

عاودنا السير... وفي الشوارع الجانبية تنتظر جماعات ستنضـــم للتظـــاهرة، وهتف كريم :" إنهم خبازونا" وفي شارع آخر كان شبابنا من البحر الأســـود، بسراويلهم السوداء الضيقة، وقبعاتهم، وراياتهم الحمر ذات الهلال والنجمـــة، وبعضها من دون هلال ونجمة، وقد كتبت شعاراتها باللغة الأم، التركية، وكان يسير معنا عمال موسكو وموظفوها رجالاً ونساء، وأطفالهم علـــى أكتـــافهم، حاملين راياتهم وشعارات أحيائهم ومصانعهم ومؤسساتهم، في سنة ١٩١٧ كانوا قد حولوا موسكو المدينة البيضاء إلى مدينة حمراء بتجارها وقياصـــرها، ومنـــها جدران الكرملين الساحة الحمراء، أمسك بذراع آنوشكا.

ابتسم أحمد كآبة، إنه يتذكر على الدوام أنه يمسك بذراع آنوشكا في كـــل مناسبة.

ولاحظ فجأة أن موعد الغداء قد مضى، وأن الوقت هو الثانية بعد الظهر، واليوم سيأكل شيئاً ساخناً، لأنه يشتهي أن يأكل شيئاً ساخناً منذ زمـــن بعيـــد، فاصولياء مع المخللات، في ذلك اليوم عاد إسماعيل في وقت متأخر أيضاً، وضع الجرائد على ملابس أحمد الملقاة- كما العادة- على الكرسي، وراح يصغي إلى هدير المحرك.

- لقد حان الوقت.

أخذ يخلع ملابسه، دمدم أحمد شيئاً، كان يحلم.

لقد اعتقل إسماعيـــل، ولأول مـــرة، ثلاثـــة أعـــوام بعـــد تلـــك الليلـــة ١٩٢٨/٣/٢٣، وحكم عليه في أزمير، وأرسل للسجن في ديار بكر. مكث في السجن سنتين وأطلق سراحه ١٩٣١ ثم سجن مرة أخرى، حاكموه ثم أرسلوه إلى حبس " بورصة" وهناك تعرف إلى ناريمان ١٩٣٢ في مهجـــع المقـــابلات- المواجهة ومن وراء الشعرية، وكانت قد جاءت لزيارة أخيها السجين عثمـــان، موظف المصرف الذي سجن بتهمة الاختلاس، وكان إسماعيل يتحدث مع أمـــه الواقفة بجانب الفتاة الشابة، وكان عليه أن يصرخ لكي تسمعه، وكان الجميـــع يصرخون بعالي الصوت، وقدم عثمان ناريمان لإسماعيل.

- تعرف إلى شقيقتي، ابتسمت ناريمان، وعيناها السوداوان كانا يحملان شيئاً طفولياً. حياها إسماعيل بيده، صاحت أم إسماعيل بأقصى ما تستطيع:" لقد أتينـــا معاً من إستانبول في نفس " الباص" أنا والآنسة، وقـــد ســـاعدتني كـــثيراً في "الباص" كان الله بعونها، وابتسمت ناريمان، وصاح إسماعيل:

- شكراً جزيلاً لك يا آنسة ناريمان.

- كذلك فإننا ننـــزل في نفس الفندق في غرفة واحدة.

ابتسم إسماعيل لناريمان.

وصاح عثمان:

– سأطلب من المدير أن يسمح لنا بالمقابلة في غرفة الحرس، في المرة القادمة.
وظل إسماعيل وناريمان يتبادلان النظرات الخفية من خلال الشعرية طيلة فترة الزيارة.

ينام إسماعيل وعثمان في نفس الغرفة، كانا يأكلان المآكل التي تحضرها ناريمان ووالدة إسماعيل، راحة ممسكة من عند " الحاج بكر".

– هذا ما جلبته ناريمان، المقانق والباذنجان المحشو بالزيت " المكدوس" من عند أم إسماعيل.

وفي هذه الليلة راح عثمان يتحدث عن أحمد وهو يلتهم الباذنجان المحشو.

– إن أحمد يعبد الأكل.

–(هذا زيف من عثمان لأنه لا يدري بأن إسماعيل يعرف أحمد).

– في بولو، لم يكن، حينها مطاعم، حتى ولا مطعم رديء، كان أحمد يشكو على الدوام:" في إستانبول يقولون إن الطباخين القادمين من بولو هم أشهر الطباخين في العالم". وذات مساء في غرفتنا فوق الإسطبل، كانت المحكمة قد حكمت على أحد الأغوات بالسجن لمدة عشر سنوات، وقد فاجأهم بطبخه ورق العنب (يبرق بالزيت) أعددتها بنفسي في النهار،" وكاد يغمى على يوسف وعلى أحمد من الفرح...

هذه الذكريات من بولو كان يسمعها من (أمد في الماضي) في أزمير والآن حين يسمع عثمان يرويها يحس بكآبة لا يستطيع تفسيرها.

وبعد ستة أيام، التقوا مع بعضهم في غرفة رئيس الحرس العام، وكانت مؤثثة بسرير حديدي قماشته المشمعة ممزقة وملطخة بالحبر الأزرق، وفي الغرفة ثلاثة كراسي وعلى الجدار اتكأ الحارس.

كانت ناريمان ووالدة إسماعيل تجلسان على كرسيين، بينما جلس إسماعيل وعثمان على السرير، وقد منحوا ساعة للمقابلة، أخذ عثمان يسرد عليهم قصصاً مختلفة:" عندما كنت في ألمانيا، في برلين، وفي حفلة للسبارتاكيين، ذات

مساء" " سأل ناريمان عن أعمالها في المدرسة، وناريمان معلمة في مدرسة ابتدائية في إستانبول، وقد بدأت أم إسماعيل بامتداح إسماعيل:" أنـا أعـرف هـؤلاء الشيوعيين جيداً، وكنت فيما مضى أتغاضى هذه القضايا، إنهم شباب محترمون، وكوني صبورة يا خالة وسوف ينتصر حزبهم، يوماً ما، طال هذا اليوم أم قصر، فهكذا كانوا يقولون لي".

تحدثت ناريمان قليلاً جداً، كان صوتها أجش نوعاً ما، ولم يتوافق مع عينيهـا اللتين لم تفقدا بعد نظرتهما الطفولية، وراق عثمان لوالدة إسماعيل، ولم يتبـادل إسماعيل وعثمان ولو كلمة واحدة.

وبعد شهرين عادت ناريمان ليوم واحد، فدعا عثمان إسماعيـل إلى غرفـة المواجهة، وقد بادل إسماعيل ناريمان الحديث. كانت ناريمان تسأل إسماعيل عـن عمل أمه، وإسماعيل يسألها عن بدء الامتحانات في المدرسة، وقال إسماعيل إنـه سيكون هناك عفواً في الذكرى العاشرة للجمهورية..

- سوف يزورنا إسماعيل دائماً في إستانبول، وهذا يعني أنك وجدت أخـاً آخر يا ناريمان.

- وهل سوف تأتي إلى مانينسا لزيارة والدتك يا سيد إسماعيل؟

- إذا خرجت، فسأزوركم بالتأكيد، وسوف أسكن في إستانبول.

وقد حلم إسماعيل، تلك الليلة، بناريمان، فالسجين يحلم دوماً بالنساء، وأحياناً يحلم بأسوأ النساء، فأحياناً لا يكون لهن شعر ولا وجوه، ولا يمكـن النظـر إلى وجوههن.

حلم إسماعيل، بأن ناريمان مدت ذراعها تحت ذراع إسماعيل وبخطى العمالقة، دارا حول الغرفة دون أن يلامسا الأرض، واليد تحت اليد.

وعندما خرج إسماعيل من السجن / ١٩٣٣/ بفضل العفو العام، ذهب إلى أمه في مانينسا ثم منها إلى إستانبول، لم يكن لديه وقـت فـراغ إمـا بسـبب اجتماعات الخلية الحزبية، أو بسبب تلصيق المنشورات أو بسبب البحث عـن

عمل، وفي احد ايام الاحد، وبعد الغداء، استطاع ان يذهب إلى بيت عثمان الذي كان يسكن في كاديكي.

ولم يكن عثمان في المنزل، وفي قبو حجري عتيق مدبب، كان منزله الرديء، في شارع قرب سينما" ثريا" شرب القهوة التي حضرتها ناريمان، كان المنزل هادئاً، وكانت الشوارع خالية في فترة ما بعد الظهر، ثم حرك الهواء الستائر من على النوافذ، وكانت ناريمان ترتدي قميصاً قصير الأكمام، لم يتحدثا، فطن إسماعيل، بحلمه كيف دار مع ناريمان في غرفة سجنه، وراح ينظر إلى يدي الفتاة العاريتين، مستديرتان، مسمرتان، مغطاتان بزغب ذهبي، وأي شيطان قال له:" المس هذه اليد".

– أنت لا تتكلم شيئاً يا سيد إسماعيل.

– ليس لدي ما أقوله تكلمي أنت.

– كيف حال أمك؟

– شكراً إنها جيدة، وكيف أعمال عثمان؟

– جيدة، على أية حال، لا أفهم بها، ولا أسأله عنها، إذ ليس مطلوباً من النساء أن يتدخلن في أعمال الرجال.

– حول ماذا يكون هذا؟ ألا تعملين كرجل وتكسبين مالك؟

– هكذا.. ولكن، المرأة هيا المرأة، وهي تلك التي تؤمِّن خبزها.

وراح إسماعيل يتحدث عن المساواة بين المرأة والرجل، وعن تحرير المرأة العاملة ليس فقط من عبودية رأس المال، بل ومن عبودية المطبخ والغسيل، وما شابه ذلك...

أصغت ناريمان لحديث إسماعيل بإعجاب، وعيناها السوداوان لم تفقدا بعد نظراقما الطفولية لكنه لم يتمكن من إقناعها.

وبعد شهر من الزمن اعتقلوا إسماعيل مرة أخرى، وقضى ثمانية أشهر في سجن خلية سلطان احمد في زنزانة إسمنتية بشباك واحد صغير، يطل على معبر

ضيق، وهي معزولة عن سائر غرف البنـــاء تمامـــاً، وكـــان هنـــاك طابقـــان، والشيوعيون في الطابق الأول، واليوم زيارة.

* * *

إسماعيل وكريم يتحدثان عن أحمد، وتحدث كـــريم كيـــف باعـــا الجرائـــد /١٩٢٥/ على الجسر من " المنجل والمطرقة".

– دع هذا الآن– قال إسماعيل– وقل الحقيقة، كان عندك في موسكو صديقة – فتاة– وكنتما متفاهمين تماماً، لكنها لم تتمكن من أن تقودك للقول :" أحبـــك كثيراً".

بدأ كريم يحك حاجبيه الثخينين.

– ذلك لأنني كنت أكره الكذب– وسحب نفساً من سيجارته– والدخان، أما الآن فقد تعودت على الاثنين معاً، قال إسماعيل:– هات، إذا كـــان الأمـــر كذلك، لأجرب سيجارة.

فتش كريم في جيبه، وأخرج منها ثلاث سجائر، قدم واحدة منها لإسماعيل.. كسر إسماعيل واحدة، ووضع الأخرى في ميسمه الخشبي الطويل..

– كان ضياء يقول: إن شحادة السجائر هي أكره أنواع الشحادة.

– كان محقاً فيما قاله.

– أخذ إسماعيل يصفّر، عبر أسنانه، ويعزف نشيد العيد السنوي العاشـــر للجمهورية، ونـــزع الميسم من فمه:

– أتدري، يا عزيزي، أن كل الشعراء كتبوا هذا النشيد كما يلي:" خـــلال عشرة أيام خلق خمسة عشر مليون بطل" وكانوا ينشدونه:" خمسة عشر بطـــلاً" فكان يُسمع :" خمسة عشر مليونيراً" فبدلوا العبارة بـــ:" خمسة عشـــر مليـــون شاب"[1].

---

[1] - تلاعب بالألفاظ.

- فمعذرة، يا ناريمان، لقد تعودت لفظ هذه الكلمة البذيئة " يا عزيزتي".

لم يكن آنئذ زوار عديدون ولا مساجين كثيرون، لذا كـان مـن السـهل التحدث بدون صياح، أو مراقبين وضغوط، وفي الحال قال إسماعيل:

- البوليس يسجل أسماء كل من يزورنا.

- ليسجل فأنا لا أمارس السياسة...

في المساء، أعطى ما جلبته ناريمان من راحة" الحاج بكر" إلى " الكومونة" إذ شكل الشيوعيون في السجن" كومونة" فكل ما يجلب إليهم من مآكل وشراب ونقود وسجائر، يدخلونه في " الكومونة" كما يطبخون بوعاء مشترك، وعندما أدخل إسماعيل إلى الكومونة علبة راحة " الحاج بكر" أحس بفخر لا حد لـه، وكأنه أدخل ما سيدخل الفرح إلى درجة الجنون في نفوس الكومونيين.

وفي اليوم الثاني بعد خروجه من سجن السلطان أحمد، ذهب إلى " كاديكي". لم تكن ناريمان في البيت، فذهب هو وعثمان إلى محل الحلويات " الطبول" كـان عثمان يعمل وسيطاً.

- ربما تلحق صداقتي بك الضرر، يا عثمان؟

- ولم تلحق بي الضرر" فكر ثم تابع: - اسمع، لا أذكـر هـل في الرابـع والعشرين، أم في الخامس والعشرين التقيت أحمد في " تيبي باشا" وجهاً لوجـه. وقد تصنعت بأني لا أعرفه، وعبرت، آنذاك كنت مديراً في المصرف الزراعـي، أما الآن فلا أرتبط بعمل.

لأول مرة يقبّل إسماعيل فيها ناريمان، كان ذلك قرب خليج " كـالاميش". ضوء القمر ساطع، والبحر شفاف كالزيت. استأجر إسماعيل زورقاً إلى رصيف "موضة" حيث تعزف في كازينو" كالاميش" فرقة الجاز، والناس هناك يرقصون، وفي البحر تصطف زوارق كثيرة، بدأ إسماعيل يجدف بفرحة بالغة باتجاه" فـيمير باختشي". كانت المنارة في فينير باختشي تضيء وتنطفئ، أما الباخرة الذاهبـة باتجاه مرفأ " برنيتشيف" في الجانب الآخر، أضاءت مصـابيحها العاليـة، " أي

شواطئ يعبر هذا القارب بآلاف الأشرعة؟" ترك إسماعيل المجذاف وانطلق إلى الخلف وجلس قرب ناريمان:

– هل أستطيع أن أقبّلك، يا عزيزتي؟

لم تحر ناريمان جواباً.

– أتريدين القول إن هذا الأمر لا يطلب طلباً؟

قبّل ناريمان، اهتز الزورق قليلاً، من جراء الموج الذي صنعته الباخرة التي مرت إلى الجزيرة قبل قليل.

– العيش شيء رائع، يا عزيزتي..

ورددت ناريمان، بصوت بدا أثخن قليلاً بعد صمت:

– العيش شيء رائع.. يا عزيزي..

بعد خمسة شهور وجد إسماعيل نفسه، مرة أخرى، في السجن، ومكث عشرة شهور في إدارة البوليس، وكانت ناريمان تحضر له الطعام ولم يستطيعا رؤية بعضهما، وقد سألوا الفتاة: " ماذا يخصك إسماعيل؟".

– خطيبي– أجابت.

وقضى إسماعيل سنة ونصف السنة في سجن الأشغال الشاقة، كانت ناريمان تذهب باستمرار إلى سجن السلطان أحمد، وحضرت المحاكمة منذ يومها الأول، حتى لفظ الحكم، كانت تبتسم لإسماعيل كلما وقع نظره عليها، لكن عملية لفظ الحكم لم تستطع متابعتها، لأن هذه العملية كالعادة، تحصل داخل أبواب مغلقة.

خرج إسماعيل من السجن، وكان يلتقي ناريمان كل أحد.. كانا يتغازلان، يقبّل أحدهما الآخر، ليس أكثر من ذلك..

أراد إسماعيل أن تهتم ناريمان بالسياسة، بالشيوعية، لكن عبثاً، ومرة عندما حدثها عن حياة الثوار، وما قد سمعه من العائدين من موسكو وما قرأه بالروسية والماركسية في السجن– أصغت ناريمان لحديثه برغبة. خاصة ما تعلق بحياة المرأة الثائرة، كروبسكايا.

– إنها امرأة مخلصة، مضحية، فقد أعطت حياتها من أجل ذلك الرجل.

– ليس الأمر هنا يا عزيزتي، بل إن حياتها كلها أعطتها للثورة.

– بالطبع يا إسماعيل، لكن كيف ارتبطت بلينين. كامرأة، وأم، ورفيقة، انظر إلى محبة هذه المرأة.

لم يستطع إسماعيل أن يجد دوماً عملاً إذ لم يكن لديه الوقت من جراء الملاحقات والهروب. وقد حصل على النقود من أجل لقمة العيش من عمله في بعض المحال والمؤسسات. وقد استطاع مرة أن يعمل في أحد المصانع، لكن البوليس طارده بعد أسبوع واحد.

– هل ترغبين بأن تجدي نفسك في هذا القارب الذي يمر؟

نجلس على رابية في (أميرغان) تحت شجرة صنوبر. وفي الأسفل يرى البوسفور،تارة ضيقا، وأخرى متسعا. ويعبر منه قارب أسود باتجاه الأناضول، بشراع واحد، ومجداف خارجي، يزيح المياه ويحدث أمواجا متسعة.

– لا أرغب. وماذا سأفعل في هذا القارب؟ وأين يذهب؟

– من يدري ربما إلى أوديسا. ألا ترغبين الذهاب إلى أوديسا؟

إذا كان ذلك معك، فأرغب، إلا أن المكان الذي أحبه أكثر هو هنا، تحت هذه الصنوبرة.

– لكن إذا جاء ملاك الرغبات، رأسه في السماء وقدماه على الأرض، وقال: "قولي لي ماذا ترغبين أيتها الآنسة، ناريمان؟"

–ماذا أطلب؟ انتظر لأفكر قليلا...لا أطلب الكثير. هناك بعض الأشياء في هذا العالم أرغبها، أطلب قبل كل شيء: ألا يسجن إسماعيل بعد...هذا أولاً. ثم أطلب أن يكون لي منزل مع حديقة صغيرة بالطبع على رابية في "أميرغان" منزل حلو في البرية. أما الثروة فلا أرغب بها إطلاقاً. ولا الصحة، فالحمد لله أنت كالسبع ولا صحتي أيضا رديئة.

– وأنت محشوة كالكوساية.

– وهذا كل ما أطلبه.

طلبات برجوازية حقيقية صغيرة.

–كم مرة هينني بهذه التسمية، برجوازية صغيرة، يا إسماعيل فهذا أنا كما أنا...

– لا تزعلي...

– لست أزعل...

– حسناً فأنت لا يهمك هذا الشعب المسجون داخل الجدران، جائع عطش ومعذب...

– كيف لا يهمني؟ ولو كان بالإمكان لطلبت من الشبح لكل هؤلاء بيتاً جميلاً وحديقة خضراء، وأن يرغبون فيه، وألا يظل هناك أناس جائعون. وألا يظل أحد يعذب الآخرين، كما تقول.

– لا أشباح هناك. فنحن الأشباح. نحن الطبقة العاملة في هذا العالم، نحن سنضع للبشرية عالماً بدون طبقات، بلا حدود، عالم الأخوة الأحرار.

– وهكذا أنت استدرجتني إلى هذا القول لتوبخني بعدها.

– أنا لا أوبخك. بل إنه الصراع الطبقي، يا عزيزتي. ومن أجله سوف نذهب كثيراً بعد إلى السجن.

– ألا يمكن أن يتم ذلك دون أن تذهب إلى السجن؟

لم يجب إسماعيل. وأخذ ينشد أغنيته المحببة:

أيها الرفاق في السجون

بين الجدران الأربعة،

لا مكان لهم بيننا بعد اليوم،

لقد أشرف اليوم الأحمر، فهيئوا مدافعكم،

ومن أجل هدفكم، قاتلوا، أيها البروليتاريون،

من أجل هدفكم..

قاتلوا،

أيها البروليتاريون....

أشعل إسماعيل سيجارة. فيما لا يزال أحمد في حلمه، ويهذي قليلاً. ماذا يقول؟ أصاخ السمع. لكنه لم يفهم شيئاً. تناول جريدة صادرة في إستانبول /١٩٢٥/ قرأ مرة أخرى الأخبار في الصفحة الثانية. رمى الجريدة، وأطفأ النور، ونام.

اعتقلوا إسماعيل مرة أخرى في شتاء /١٩٣٨/. ونقلوه إلى أنقرة. وهناك وضعوه في زنزانة منفردة في سجن عسكري. زنزانة إسمنتية. وليس فيها سوى نافذة عالية- فالثلج يعبر منها إلى الداخل. أما الأرض الإسمنتية والفراش حدث ولا حرج، فقد أعطوه، الأنذال، بطانية واحدة وتذكر إسماعيل، عبر خطواته فوق أرض الزنزانة، ما حدث قبل ثلاث عشرة سنة: في أزمير، في القبو، كيف غطوه في البطانية حتى رأسه، وكيف كان أحمد- يزفر ولم يستطع أن يطفئ النور.

لقد حكم على إسماعيل بالسجن في أنقرة. ولما كانوا قد أرسلوه إلى حبس مختار خان في إستانبول، كان باستطاعته أن يرى ناريمان.

- هنا، لن تستطيع مواجهتي، سيرسلونني إلى مكان ما ومن يعلم إلى أين.

كظمت ناريمان الحزن بصعوبة، ثم افتعلت البسمة:

- لقد تحدثت إلى محام- قالت- وباستطاعتنا أن نتزوج وأنت في السجن. هيا نتزوج يا حبيبي. فإذا صرت زوجة لك، فالأمر سيسهل هكذا أنا أرى.

وإذا ما وضعوك في مهجع ما في الحبس، فأستطيع أن أجيئك دوماً. وربما لن يسمحوا لي أن أبقى في عملي كمعلمة، لكني سأعمل خياطة ونعيش بأية حال.

وبعد شهر من الزمن، وفي الصباح الباكر، قبيل الفجر قاد إسماعيل ثلاثة بحارين، واثنان من صف ضباط البحرية، وضابط، واضعين القيد في يديه، بعد أن أخرجوه من سجن مختار خان دون أن يقولوا له أين يقودونه، أو لماذا؟ اقتادوه

إلى الرابية قرب جسر كاديكي ونقلوه من زورق حربي إلى سفينة "إيركين" ثم إلى مكان قرب المرفأ. حاول إسماعيل، طوال الطريق، أن يفسر لنفسه هذا الأمــر. وفجأة تذكر صف الضابط البحار، فرحات، حسناً، لكن لم يكن بينهما علاقات أكثر من التحية. ومرة أو اثنتين، جلسا معاً في مقهى واحــد وعلــى طــاولتين متجاورتين.. فقط.

وضعوا إسماعيل داخل المرحاض في سفينة "إيركين" كانــت كــل النوافــذ المجاورة للمرحاض مغلقة، أما أرض المرحاض فكانت مليئة بالبول. والرائحــة، رائحة، والغائط أيضاً، والبخار. وقف إسماعيل مدة معينة أخذ يصفر..

"انظروا أيها الحقراء ماذا سأعمل" جلس على البــول والغــائط. أشــعل سيجارة. أخذ يغني ويصفر. وكان يجول في خلده سؤال واحد: لماذا جلبوني إلى هنا؟

عند المساء أخرجوا إسماعيل من المرحاض. نــزل على رؤوس أصابع قدميه، درجاً حديدياً ضيقاً بين اثنين من البحارة وصف ضابط. فتحوا باباً حديــدياً، ودفعوا بإسماعيل إلى العتبة. ثم أغلقوا الباب تلمس بيديه حواليه. عدة حديديــة للتصليح، وخرق وما شابه ذلك.. إنها مستودع السفينة. نــزع قميصــه ثم سرواله، وأبقى عليه السروال الداخلي. ومع كل هذا فقد كان العرق يتصبب منه بغزارة. جلس فوق ركام الأوساخ أخذت عيناه تتكيفان في الظلمة.. ثم نام.

– انهض... البس ثيابك.

بهره ضوء المصباح الساطع الذي سلطوه على وجهه، أدار رأسه.

– انهض والبس ثيابك..

مر ضوء المصباح على البرادة والخيش وباقي العدة الحديدية في المســتودع. رأى إسماعيل ضابطاً بلباس أبيض يقف في الباب ويمسك بالمصــباح. وخلــف الضابط، في الممر الحديدي الضيق، كان اثنان من البحارة يقفان وهما مغطــين بغطاء من الكوابل اللبنية، وتحت ضوء أصفر. ليس يعرف الليل من النهار فقد كانت المصابيح مضاءة منه عندما انطلقنا. ارتدى ثيابه.

- إلى الامام.

إسماعيل في الأمام، والضابط والبحاران خلفه، صعدوا الدرج الحديدي الضيق. كانت السفينة تهتز من جراء هدير المحرك. "من المحتمل أننا سوف نتحرك"، هكذا ظن إسماعيل.

- إلى اليسار.

كانوا على الأرض. ليست بفسحة، مليئة بالأرصفة، ككل مكان، حيث يسار، يمين، تحت، فوق، والكوابل الغليظة والرفيعة، وركام الأوتار الكهربائية. أدار إسماعيل باتجاه الدرج يساراً وبدأ يصعد. "سوف يستجوبونني" لكن لماذا؟ ماذا سيسألونني؟ وما علاقتي بهؤلاء السفلة؟".

صعدوا إلى الجسر، كان الوقت ليلاً، والجو صافياً.

- إلى الأمام ولا تتلفّت.

لم يكن أمام إسماعيل أحد. سوى نجوم الليل. والجسر الخالي، ويرتفع صوت الآلات، وهدير البحر. البحر المتناهي، بحر بدون ضفاف، والزبد الأبيض يتكوم في حافته.. والسفينة "إيركين" تمخر بطيئة خطر ببال إسماعيل. "إن لا أحد يعرف أين أقع الآن. حسناً. لكن عندما أخذوني من سجن مختار خان ربما تركوا توقيعاً، أو ورقة، أو أي شيء آخر. حسناً، لكن أين نبحر؟ وهل أنا خائف؟ حتى الآن لست خائفاً....".

- إلى الأمام، ولا تتلفّت...

بعد قليل لن يعود لي مكان أذهب إليه. بعد خطوتين نهاية الجسر.

- توقف.

توقف. سمع في الخلف تلقيم البارودة. وفوراً تذكر مصطفى صبحي ورفاقه. "سيطلقون النار علي من الخلف، ويرمونني في البحر. حسناً، لكن لماذا؟ فإذا كان هؤلاء السفلة قد قرروا إنهائي، فهناك طريقة بسيطة، حسناً، لكن لماذا، لماذا، لماذا قرروا أن يعتقلوني بأي ثمن؟" إن كل هذا كان غير طبيعي فقد كان

يفكر بقلق "يجب أن أستدير وأبصق على هذه العصابة". لكنه لم يفكر بـــذلك هكذا. وقد عبر ذلك في مخيلته عبوراً. واستدار. فرأى قناصين يلتفتان إلى الأعلى ويلبسان لباس ضباط البحرية. ثم انضم إليهما ضابط ثالث وقف بجانب الأول ثم همس بأذنه شيئاً. فقال الضابط الأول لإسماعيل:

– استدر إلى الأمام.

عادوا من نفس الدرج. ودخل إسماعيل إلى مستودع السفينة أخذ يصـــفر. اضطجع إلى الخلف " يطبخون شيئاً لي، هؤلاء اللوطيون، لكن لماذا يقتادوني؟".

لقد حلم إسماعيل، هذه الليلة، حلماً رأى نفسه مع ناريمان على ظهر زورق، وفي أعلى مكان فيه من النهاية. ثم رفع الزورق كل الأشرعة. هكـــذا أشـــرعة متضخمة، يستطيع الزورق بها أن يتجه أينما يشاء. بدون مرساة. لكن هنـــاك دولاباً، سوف يديره خير الدين بربروسا ذو اللحية الجعداء. ســـألت ناريمـــان بربروسا:

– لماذا لحيتكم هكذا جعداء؟

– من الأفضل لك أن تحدقي في لحية زوجك لا لحيتي– أجابها بربروسا.

لحية إسماعيل غضة وكثيفة لم يكن إسماعيل ليعرف أين يقـــع مـــع ناريمـــان بالضبط، لكن في مكان ما على البوسفور. يستلقيان على ظهريهما فوق العشب الأخضر غير المندى. ينظران إلى الغيوم الكثيفة البيضاء. سحب إسماعيل يـــده وأدخلها صدر ناريمان ليلمس ثديها، كصدفة.

– ماذا تفعل يا هذا؟ قالت ناريمان.

– ألست زوجاً لك؟

– لكننا لم نجرِ عرسنا بعد؟

– ولماذا لم نقم عرسنا بعد؟

– لأن مراسيم العرس لم تتم بعد.

– ومتى ستتم هذه المراسيم؟

- غداً.

- فلنذهب إلى أوديسا- قال خير الدين بربروسا[1]- إذا لم تهدأ الريح.

- أنا لا أريد الذهاب إلى أوديسا- أجابته ناريمان.

- فسأعرفك إلى كروبسكا- قال إسماعيل.

لكنه أخذ يفكر هل ماتت أم لم تزل حية بالفعل..

عثمان، أحمد، يوسف، لكن إسماعيل لم يرَ وجه يوسف. وفي غرفته خلف الغابة، أخذ البرغش والبعوض يهاجمه من خارج الكلة.. عقدت المحكمة جلسة. فقال أحمد:

- كن أنت النائب العام بدلاً مني هذا المساء، يا إسماعيل..

لقد كان إسماعيل يرغب أن يحكم على الضابط ذي اللباس الأبيض، الذي أطفأ المصباح الكهربائي في وجهه، خمس سنوات.

- إنك رحيم- قالت ناريمان.

- وماذا تعني الرحمة- رد إسماعيل. بكت ناريمان. فضمها إلى صدره. وقبّلها. ثم صاح الضابط الذي أطفأ المصباح الكهربائي:

وهنا أخذ البعوض والبرغش يدخل إلى ظهر إسماعيل ليخرج من عند قدميه، ثم تجمع جانبه. وقد لسعه في وجهه ورقبته، فنهض من نومه.

وضعوا إسماعيل ليلتين على ظهر الباخرة "إيركين". ثم اقتادوه إلى النائب العام العسكري، في غرفة الضباط، حيث وجدوا في هيئة البحرية كتاباً لأحد الشعراء الشيوعيين، يحكي عن عملية الملاحقات التي قاموا بها ضد البحارة وصف الضباط. وقد كان الديوان مسموحاً به للبيع. ونسخة منه كانت مع صف الضابط "فرحات". وقد قال "فرحات":

"إن الكتاب ليس لي، وقد وضعوه على سريري دون علمي". وقد عذبوه كي يتكلم. "أعرف واحداً شيوعياً اسمه إسماعيل"- قال لهم في النهاية. وقد عرف

---

[1] - خير الدين بربروس /١٤٧٣-١٥٤٦/ كان أدميرال البحر التركي زمن السلطان سليمان القانوني. وقد احتل الأسطول التركي في زمنه البحر الأبيض المتوسط.

إسماعيل كل ذلك من النائب العام العسكري. ولم يكن لديه ما يقوله للنائب العام. والنائب العام لم يلح على إسماعيل أن يتكلم. كان النائب العام شخصاً قصير القامة. وقد كانت جلى اهتماماته أجهزة الراديو. وبالأخص تصليح جهاز الراديو. لأنه قد علم من تقارير البوليس أن إسماعيل يعرف هذه المهنة وعلم أن إسماعيل قد عمل، قبل آخر مرة يسجن فيها، في محل لتصليح أجهزة الراديو- وقد تحدثا طويلاً حول جهاز الراديو. ومن خلال الأحاديث حول جهاز الراديو، كحرفة مشتركة فقد صار بينهما ودٌّ ما. أمر المحقق أن يحرر إسماعيل من المستودع ويوضع في غرفة أحد صف الضباط. ذات يوم تجرأ إسماعيل أن يسأله:

- يا سيدي الرئيس، لماذا اقتادوني، في الأيام الأولى، إلى الحافة في أواخر الليل؟ وقد أظهروا أنهم سوف يقتلونني رمياً بالرصاص من الخلف ثم يرمونني في البحر؟

كان رئيس القاعدة البحرية قد قرأ في كتاب ما بالألمانية عن أساليب الضغط النفسي- وأنت قد ذقت طعم ذلك. وحينما جئت وعرفت هذا، أمرت بالإقلاع عن هذا العمل، لأننا لسنا بحاجة لمثل هذه الضغوط وقد أعلن الحكم في صالون السفينة الكبير. وفي ذلك اليوم، يوم أعلن الحكم- ولكي لا يسب المحكوم على الحاكم- وضعوا ثلاثة صفوف من الكراسي بين هيئة المحكمة والمتهم. وقد رأى السيد شريف إسماعيل قبل أسبوعين من ابتداء العملية. وتحدثا أيضاً حول تصليح أجهزة الراديو. وقال السيد شريف وهو يلعب في أسنانه بالقلم:

- يا إسماعيل، نحن الاثنان نلتقي حول مهنة واحدة، وعليه فلم أسألك عن تنظيمك للخلية الحزبية مع فرحات. لأنني قانع بأنها منظمة منذ زمن بعيد. لكن الأمر ليس حول ذلك. فنحن سندخل الحرب مع الألمان وسنأخذ الموصل من الإنكليز، وباطوم من الروس، وحلب من الفرنسيين. فهل فهمت؟ ولهذا فإن عملية التنظيف لازمة، وها نحن قد بدأنا المهمة بكم، وسننتهي بفلم إنكليزي،

ففكر، إنك سوف تقابل عصمت باشا (ولم يلتقِ إسماعيل مع عصمت باشا). وتركيا لم تدخل الحرب بجانب الألمان. وتحت ضغط الإنكليز وبسبب انفتاحه على الألمان فقد صار السيد رئيس هيئة البحرية متقاعداً. ولم يحدث شيء للسيد شريف.

أضافوا إلى الحكم السابق حكماً جديداً على إسماعيل. كما حكم على خمسة صف ضباط وثلاثة بحارين. وقد توضح أن الأمر السابق هو الذي قد وضع الكتاب في مهجع فرحات، وذلك لعداوة معه بسبب امرأة ما. وإن الإفراج عن فرحات يعني الإفراج عن إسماعيل. والإفراج عن إسماعيل كان يعني القضاء على مؤامرة شيوعية في القاعدة البحرية.

نقلوا إسماعيل إلى سجن في قلب الأناضول. وكان وحيداً تماماً، وكان سجناً خطيراً، جدرانه عالية، ويقولون إنها باقية من عهد جينوفليان. وفي عديد من المناطق في الأناضول، يؤكدون أنها آثار جدران سميكة. في الداخل يتمشى شرطيان مسلحان. وهناك مشغل صغير في الطابق الأرضي للمساجين: خياط- نجاران، حذّاء، وواحد لصنع الخزفيات، أما المهاجع فكانت في الطابق العلوي وخلفه شرفه بدون سياج ويمتد من مكان إلى مكان آخر مقابل. وفي القبو محل للتصليح، وغرفة رئيس الحراسة، وغرفتان منفردتان وزنزانة. وفي الباحة نافورة ماء. وشجرة باسقة شامخة. ومن يعلم ما هذه الشجرة؟ وضعوا إسماعيل في المهجع /القاووش/ الثالث. وبعد انقضاء شهر من الزمن جاءت ناريمان، آمل أن أعين معلمة هنا "أما الزواج فقد أرجؤوه حتى التعيين. "إنها حيلة، وتكتيك، يا عزيزي، ومن سيخدعنا، سترين، سنخدع، إذا ما عرفت الوزارة بأنك زوجتي، سترين، لن يعينوك". وذهبت ناريمان ولم تغرب عن مخيلة إسماعيل: "كم سنة أربط يدي هذه الفتاة. وكم سنة ستبقى تنتظرني. فلم لا أتركها وشأنها. لتفتش عن سعادتها في مكان آخر؟ بالعكس". وقبل أن يصدر قرار تعيين ناريمان. وقبل أن تعود، ذهب إلى مدير السجن وسأله عن كيفية عقد الزواج، ولما عادت

ناريمان، استفسرا عن الأمر وعيّنا محامياً، ووقعا عقد الزواج، وقد أقيمت مراسم الزواج في قاعة المحكمة الشرعية. ارتدت ناريمان الثوب الشفاف. ونزعوا القيد من يدي إسماعيل أمام القاضي. هنأهما القاضي، بصوت متهدج، لكنه صادق، وتمنى لها عمراً مديداً. وكان رئيس الحراس أحد الشهود، فيما كان الشاهد الأول معاون القاضي.

كان اليوم التالي يوم الزيارة. سمح المدير لهما بالزيارة في مكتبه لكنه لم يتركهما لوحدهما ولو لحظة. فقد كان يراقب إسماعيل وناريمان جيداً، مصطنعاً أنه ينظر في أوراقه. جلس الواحد منهما جانب الآخر على مقعد تمزّق قماشه. لم يتحدثا. لكن المدير دعاهما مرتين أو ثلاثاً:

– لا تنصتا، تحدثا. فليس هناك من تخجلان منه أو تصمتان أمامه ولا تعيراني أي انتباه، فعندما اشتغل فلا أسمع المدفع لو انفجر. تحدثا تناقشا، فأنتما شابان.

وكان إسماعيل يجيب على كل جملة:

– شكراً يا سيدي المدير، فإننا نتحدث. لكنهما لم يتحدثا. وفي لحظة. رغب إسماعيل أن يمسك يد ناريمان، سحبت الفتاة يدها ونظرت إليه خجلة.

أيقظ شخير أحمد إسماعيل فكأنه يختنق. تمشى في الظلمة. وحلم بأحمد.

– آ..خ. نطق أحمد، ثم استيقظ.

أشعل إسماعيل المصباح.

– أعطني كأس ماء، رجاءً.

جرع الماء وكأنه لم يذق ماء، ويعاني العطش منذ أيام.

– المعذرة.

– وهل تريد سيجارة؟

– لا أستطيع... يبدو أنه لدي حرارة.

وضع إسماعيل يده على جبين أحمد:

– ليس لديك.

- هل هذه جريدة اليوم؟

- غداً سوف تقرأها.

استدار أحمد وأخذ الجريدة.

- من الأفضل أن أتسلى بها، من أن أعود إلى الكابوس. قرأ الجريدة الأزميرية. ثم الإستانبولية، توقف طويلاً في الصفحة الثانية.

ألقوا القبض على كريم.

- هكذا...

- آه، يا للشيطان، أنذال... لم يكتبوا كيف اعتقلوه...

آه،... يا للشيطان...

الخط الثالث والعشرون

عندما استيقظ في الصباح فأول ما خطر ببال أحمد عملية سجن كريم، ثم قرأ الأخبار مرة أخرى، نهض، أما إسماعيل فكان قد أشعل القنديل وذهب،" وللشيطان، هدير هذا المحرك". اتجه إلى (النملية) حافي القدمين ونصف عار، بالملابس الداخلية. " لدي حرارة بالتأكيد" وضع يده فوق نافوخه، ثم جلس على الكرسي وفوقه ثيابه " قواي منهكة" أراد أن يغلي شاياً، ثم عدل عنه، أحس بألم، اتكأ على الجدار، " آه، فقد ابتدأت" ألقى بنفسه على الفراش،" هل يذكر في الكتاب ترتفع درجة الحرارة أم غير مذكور..أعتقد أنه مكتوب عن ألم المفاصل، وآلام في المعدة، ومكتوب عن الصداع.. وكأن الإبر قد وصلت إلى الرأس...ولا يذكر الكتاب الإبر، على أية حال... إن رأسي يؤلمني، وتنتابني رعشة لكن هل يذكر الكتاب حول القشعريرة؟.." الكتاب مرمي على الطاولة، تحت الجريدة، ظهرت خنفسة صغيرة... لا أريد أن أنظر، الحرارة تستمر في الارتفاع، يقول أم لا يقول؟ فماذا؟ آلام مفاصل، ألم في المعدة وصداع، كلها بالضبط، لا أريد أن أنظر، ولأجرب مشيتي، إذا كنت أتمالك نفسي، تبلل من الآلام كما يتبلل الإنسان بالماء بعد سباحة طويلة ومتعبة، وفي الحال، قام واقفاً وبقوته، ارتدى ملابسه وكأنه يتشاجر مع أحد، على الشاي، شرب أول جرعة مضطراً، ثم شربه برغبة، لقد تعرق" حتى ميزان حرارة لا يوجد... ربما تركه ضياء" فتش عن ميزان الحرارة فلم يجده، لمس جبهته. انتهى.. لقد عبرت الآلام. ونسي الكتاب. استلقى على الفراش. لكن رأسه تضخم، تضخم، حتى كأنه يملأ الجدران الأربعة. لكنه لم يكن رأساً قاسياً، بل كأنه من رغوة، رأس ضخم ورخو..

– إن بإمكان آنوشكا أن تقع في غرامك، يا بيتروسيان.

– لكانت حسناً فعلت.

– وأنت هل تقع في غرامها؟

– وأنا. لكن الغرام بالنسبة لنا نحن الاثنين متأخر. فقد وقف بيننا واحد تركي.

– اطلب وسأنسحب.

– ولو انسحبت فلا فائدة... أولم ينسحب الأرمن دوماً، أمام الأتراك؟ فقد قطعتمونا كما اللحم.

– أنا لست من الذين قطعوكم.

– لست أنت، ولا الفلاحون الأتراك، الذين سُلموا سلاحاً في أيديهم، وإذا أردنا الحقيقة، فهم ليسوا مذنبين.. وهناك حقائق حول هذا الأمر. فقد لاحقتهم فرقة الشرطة وأجبرتهم على ذلك.

– كيفما كان ومهما كان، فإنه ليبقى عاراً مطبوعاً على جبين شعبي.

– أي شعب لم يشوه وجهه؟ – قال سي– يا– و. – ألم يقصفنا الشعب الإنكليزي في شنغهاي بالسلاح، ويجوّع الشعب الهندوسي؟

– ولتفق هذه الشعوب من غفوتها– قالت آنوشكا– لقد كان قاتل أبي روسياً.. كان ضابطاً في جيش كولتشاكوف، وكان يعلم لماذا يقتل والدي. هكذا كان جنود القوزاق؟ لكن يجب أن نسامح الجنود القوقازيين فهم من الشعب، ومن الذين فرموا الفلاحين؟

– لم يقل أحد هكذا– أضفت أنا..

– اقرئي يا آنوشكا، مقالة لينين "الغضبة الوطنية"– عقب سي– يا– و.

– لا تقلق فقد قرأتها قبلك. وهو يقول إنه يخجل من أنهم أجبروا الجنود كي يقتلوا الفلاحين الروس، وأرسلوهم ليهاجموا شعوباً أخرى.

وتكلم بيتروسيان بصوت متهدج:

– لماذا دوماً تتناقشون، ما دامت تجمعكم نفس الفكرة.

– ليست أفكارنا هي ذاتها– ردت آنوشكا. وسأل بيتروسيان وكأنه نازل من السماء:

– ألم تفكري، قط، حول الموت، يا آنوشكا؟

– لقد رأيته. وهذا أكثر من مرة.

– ومن لم يره. لكني سألت هل فكرت بالموت، موتك؟ وهل أحد منكم فكر عميقاً بذلك؟

لقد أثار سؤال بيتروسيان هذا دهشتنا. لأننا لم نعتقد بأنه يطرح هكذا سؤالاً.

– أنا لم أفكر– أجاب سي– يا– و. وكل ما أعرفه أنني سوف أموت، على أية حال... وأريد القول، بأن أحداً لن يهرب من الموت ولِمَ التفكير بهذا. أنا لم أفكر به.

– أنا فكرت– قالت آنوشكا– عندما توفيت والدتي بالتيفوس، فقد فكرت بها. فلم يكن غيرنا نحن الاثنتان في الغرفة. وفوق ذلك الموت. لقد قض مضاجعي وأرهقني. وهكذا فسرته: إنه سوف يختطفني يوماً، ولن يعيدني بعدها ثانية، أما إلى أين سيخطفني؟ ليس هناك إلى أين. وفي سني الخامسة عشرة لا أعتقد... و، هكذا، حاولت أن أفكر "إلى أين"؟

ولم يخفِ بيتر وسيان أنه متهم، وعاود السؤال.

– وهل حاولتِ أن تفكري بهذه الـ "إلى أين"؟

– لا.. وأنت؟... ألا همني... فعلاً، أنا أريد...

– لماذا أهمك؟ إنني أفكر بالموت. وهذا ربما، شيء طبيعي بالنسبة لـواقعي؟ لكن يجب أن تكون غبياً فلا تفكر بأنك ميت قريباً، وأن هذا الحدث سوف يحولك من الجذور. – وصمت قليلاً ثم عاد ليقول:

– مساء الغد، في الحفلة– سترقصين معي يا آنوشكا. ولو خمس دقائق.

تحدثنا حول مواضيع متفرقة، حول هذه وتلك، ثم تناقشنا حول مير خولد، فقلت أنا، إنه يجب أن يصنع من مسرح بولشوي مستودعاً للقمح. وكانت آنوشكا غاضبة. وقلت أيضاً إنه متحف لمسرح صغير. وكأن آنوشكا ستغرز

أظافرها في وجهي. وكان بيتروسيان يقاطع حديثنا، فمرة بجانب آنوشكا ومـــرة بجانبي. ونهض. ودعناه حتى الدرج وكالعادة، جلس على سياج الدرج ولوّح لنا بيده ثم انــزلق من الطابق الرابع إلى الأسفل، قرب البوابة، في نهايــة الطــابق الأول، وجدنا بيتروسيان مضطجعاً محطم الجسم.

بعد عدة أيام، عدنا، ذات مساء، آنوشكا، أنا، وسي- يـــا- و، لنشـــاهد "الغابة" في ميير خولد، إذ إننا منذ زمن بعيد لم نذهب إلى المسرح أو الســـينما بدون سي-يا-و.

- لقد مات بيتر وسيان- قلت أنا.

أخذت آنوشكا بالصراخ وكأنني جرحت شعورها.

- كلا- ورددها بكُرِه- كلا أنت تكذب.

لم أجب. أمسكت سي- يا- و بيده. ليمشيا قدامي. وبقينا هكذا وقتاً معيناً ثم اتجهنا رأساً من البوليفار باتجاه تمثال تيمير يازيف- التمثال الذي أحببته كثيراً في موسكو. تركت آنوشكا يد سي- يا- و وجاءت إلي وقالت وبصوت باك:

- لماذا قلت ذلك؟ فإنك في بعض الأحيان سادي تجاهي.

إنك تتلذذ حينما تقتل ذلك الشيء الجميل الذي يحيا في.

لم أفهم ما عنته آنوشكا. ولم أطلق صوتاً، بل شددها وقبّلتها. توقف ســـي- يا- و قليلاً ومدّ رقبته وكأنه يفتش عن شيء ما في العتمة.

لم أكن واثقاً بأن بيتر وسيان قد انتحر.

فكرت بكل هذه الأحداث المختلطة في رأسي المتضخم من كثرة الأفكـــار. "ولَم لم أفكر بشيء آخر غير هذا الذي يزعجني؟ لا أدري".

نهض أحمد وبلع ثلاث حبات (أسبرين) دفعة واحدة. رسم على الباب الخط الثالث والعشرين ثم ارتمى على السرير. ولما عاد إسماعيل وجد أحمد مزملاً ومبللاً بالعرق. فجسه من رسغه. لديه حمى.. ونبضه سريع جداً. أخذ إسماعيل كتابـــاً مخفياً تحت الصحف، قرأ فيه ثم أغلقه..

– أنت هنا يا إسماعيل– همس أحمد.

– سأساعدك كي تخلع ثيابك.

– لست كما يجب، يا إسماعيل.

– أجل لست.. بالتأكيد.

– انظر في الكتاب هل مذكور فيه شيء عن الحرارة؟

– لا حاجة لذلك يا عزيزي.

– انظر، عندما أقول لك.

لم يقل له إسماعيل إنه قرأ في الكتاب. فقد خجل. وفتح الكتاب وبدأ يقلب في صفحاته وكأنه يقرأ.

– ماذا يكتب فيه؟

– ليس فيه ولا كلمة واحدة حول الحرارة.

– هل تقول الحقيقة.

– ولَم أكذب عليك يا عزيزي؟

– لأنك لست "كريم"، فأنت تستطيع بسهولة أن تكذب.

وغفا أحمد.

في اليوم في عقد القران، نظرت ناريمان بعمق إلى إسماعيل الذي أراد أن يمسك يدها، فيما كانا يجلسان، مقابل مدير السجن على كرسي في مكتب إدارة السجن.

– استلمت رسالة من أخي– قالت ناريمان. ويقول فيها أنه لا يزال يعاني من ألم الظهر.

– وأنا أعاني من هذا الألم– قال المدير–. وبماذا يعالجه أخوك؟ فالحقن، والحبوب والمرهم لم تخفف عني الألم، وقد رميت منها كيساً في علبة القمامة، لأنها لا تفيد.

– إن أخي يستعمل بعض التحاميل.

– لكن التحاميل للأطفال. فكم عمر أخيك؟

– أكثر من أربعين.

– آه.. إن هذا المرض لا يرتبط بالعمر، ولكن يصعب شفاؤه لدى الكبار.

وهنا أخذ إسماعيل يفكر: "الكبار؟". فتذكر أنه، هو الآخر، قـد دخـل في الأربعين. "أما ناريمان، فكم عمرها؟ ليس لديها أكثر من ثمان وعشرين أو تسع وعشرين سنة". نظر إليها بطرف عينه: "تبدو وكأنها في الثانية والعشرين. وأنا في الأربعين. وهكذا مر عمر بحاله... وهذه العبارة تصلح عنواناً لكتاب: هكـذا العمر كله. وهل مر سيئاً؟ ولِمَ "سيئاً يا عزيزي؟ لكنه مرّ..".

نظر المدير في ساعته. فقالت ناريمان:

– يجب أن أذهب.

صافحت إسماعيل. ثم مدت يدها للمدير. وسألت إسماعيل:

– ماذا أجلب لك الأحد القادم؟

لم يجب إسماعيل. نظر إلى ساقي ناريمان. لأول مرة يراهما، كم هما نحـيلان لكنهما حلوان. "وأنا في الأربعين"..

ذات مرة جاءت ناريمان إلى غرفة الزيارات ومعها طفلة حليقـة الـرأس. وكانت مرتبة كأطفال إستانبول. كان عمرها خمس أو ست سنوات. وقد لفت نظر إسماعيل رأس الطفلة الحليق، التي كانت تتلفت حولها يمنة ويسرة وتلتصـق بناريمان بشدة، وتمسك بيدها ضاغطة بقوة على جلد يدها.

– ولماذا حلقوا لها رأسها هكذا؟

لقد أصيبت بالقرع. ولم ينتظروا أن تشفى بالغسيل أو بالأدوية. وبالتـالي اضطررت أن أقبل بحلق رأسها. وسينمو شعرها بسرعة ويصبح أقوى.

– وهل أنتِ التي حلقته لها؟

– لقد– لقد تبنيت "أمينة". وهكذا صار لنا ابنة.

بدأ إسماعيل يبتسم:

- يعني أن "أمينة" هي ابنتنا. لكن عسى أن ينمو شعرها بسرعة. وهي نحيلة جداً يا عزيزتي.

- ستسمن خلال شهرين... وسينمو شعرها.. وسيكون لأمينتي الغالية شعر خرنوبي جميل.. يا أمينتي الغالية!..

- هل تحبين الأطفال كثيراً، يا ناريمان؟

- جداً... وها نحن نملك طفلة الآن.

- إذن أنت ترغبين أن تصبحي أماً؟

- ولِمَ لا أرغب؟ أن أصبح أماً؟.. هل تعلم، أحياناً... لكن ها قد أصبحت أماً. وأنت أباً..

- لنفترق، لنطلق، يا ناريمان؟

- لكننا قد عقدنا قراننا قبل ثلاثة شهور!؟.

- أجل، ونفترق بعد ستة أشهر. فأنت شابة، في الثامنة والعشرين أو التاسعة والعشرين. وأنا في الأربعين ثم غير معروف متى سأخرج من السجن. وقد نكدت العيش عليك. لماذا لم تتزوجي، فسوف تصبحين أماً؟

وبكت ناريمان، ابتدأت بنهنهة خفيفة، ثم أجهشت بالبكاء وعلا صوتها. وبكت أمينة معها أيضاً. فهم في غرفة استقبال. أمام المحكومين. فلم يعطِ الزوار انتباههم، للنهنهة، للإجهاش.. أن تمسك بيدها حين يتواجد الزوار، فهي حالات يومية متكررة..

- اسكتي باسم الرب، لا تبك، يا عزيزتي- قال إسماعيل- فقد كنت أمزح، يا روحي- لقد سال دمع أمينة. امسحي لها أنفها- وشربت ناريمان دموعها ومسحت أنف أمينة بمحرمتها...

قضى إسماعيل كل الأمسيات على شباك القاووش متمسكاً بقضبانه الحديدية. ينظر إلى الجبال. جبال جرداء. وسفوح حمراء. وتحت إحدى القمم، وعلى جانب الأفق الذي أخذ يعتم، غيمة بيضاء مستقرة وصغيرة كمحرمة

ناريمان التي مسحت بها أنف أمينة. "ناريمان عمرها ثمان وعشـــرون أو تســـع وعشرون لكنها تبدو في الثانية والعشرين أو الرابعة والعشرين علـــى الأكثـــر. ومعافاة. ولا أظن بأنها لعمرها كانت مريضة. وغير هذا، وهل هذا له علاقة مع المرض، إن كل امرأة ترغب أن تصبح أماً، وناريمان ترغب أن تصبح أماً هذا هو الأمر لدى النساء والرجال معاً. لكن الفتيات، اللواتي لا يعرفن الرجال...

هي حكاية يا عزيزتي... فكر بها الناس. ولماذا لم أنم مع ناريمـــان؟ ولمـــاذا لم نتزوج عندما كنت طليقاً؟ وهل كان الأمر بحاجة لأتزوج كي أنام معها؟ وهـــل كانت ناريمان لتوافق؟ ففي البيت في كاديكي، كاد هذا الأمر أن يحصل.. ولماذا لم يحصل؟ لغبائي. وأحمد أيضاً لم يفعل ذلك مع آنوشكا. فمتى وكيف، لقد مـــر ستة أشهر ولم ينم معها. حسناً، ولكن لماذا لم نتزوج؟ أنا لم أُلحّ على الزواج. ولم أطالبها بذلك. للشيطان (كما يقول أحمد). فناريمان.. وأنا.. أو أنت، إنه، ليس مهماً.. لكن وهل يستطيع أحد القول أنت مخطئ؟".

وفي اليوم التالي، عندما كان يحلق عند الحلاق- فيما كان يحلق لوحده، أيام الزيارة، لكنه غير هذه العادة اليوم- سأل الحلاق علي، السجين بسبب جريمته:

- كم سنة تعتقد عندي، يا علي؟

- أربعون، خمس وأربعون...

عمل إسماعيل من غير نفس، في دكان الخياط رامز حتى الغروب- فقد جمع نصف الأعمال، فأصلح منها أجهزة الراديو وماكينات الخياطة.

كانت أم إسماعيل تزوره باستمرار،وتقضي أسبوعاً أسبوعين عنـــد كنتـــها- زوجة ابنها- وكم كان إسماعيل يقدّسها ويلح عليها:

- تعالي، ابقِ هنا، يا أماه.

ولم توافق الأم.

- لا يصح بيت على بيت. أنا أحب ناريمان كابنتي، لكن إذا أصبحنا كلنا في غرفة واحدة، فلن يمر ستة أشهر حتى نتماسك بالشعر. وأنا لست بقادرة علـــى العيش، هنا، بعيدة عن منـــزلي.

المساجين في غالبيتهم من الفلاحين. ولا يعطون غير ٧٠٠٠ غرام من الخبز يومياً. بالطبع تعطي الإدارة، عدا ذلك- الماء والكهرباء التي تضاء حتى الفجر. فلا سرير ولا غطاء، ولا ملابس. فأما أن تجلب لك أسرتك، وأما أن تدبر أمرك لوحدك داخل السجن. وكما تعرف هنا حارس هو بالأصل من بورصة. ولـــه شكل الألمان في كل مساء، يقول للمساجين:

– ليخلصكم الله.

وما أن يطبق البوابة ويقفلها على الغرف حتى يركي رأسه علـــى الفتحـــة الصغيرة وينادي إسماعيل:

– تعال قليلاً، يا معلم: لقد قصف هتلر لندن ثانية. وسيربح الألمان الحرب. لا تتهرب، اعترف بأنهم سيربحون الحرب يا معلم.

– لن يربحوا الحرب. أجاب إسماعيل.

– إيه. أنت تعرف.- أجاب الحارس. وقد تحدثا أيضاً في الليلة التالية حول نفس الموضوع. وعند قدمي هذا الحارس، ذي الأصل البورصـــاني وقعـــت أم إسماعيل وماتت. في غرفة الزيارات وخلف الشبكة.

– جلبت لك يبرقاً من ورق العنب، يا بني، إسماعيل، حملتها من مانيســـا إلى هنا وقد دخت قليلاً. أعط منه للسيد الحارس- هذا ما قالته وارتمت قرب قدم الحارس.

ناريمان في البيت. مصابة بالنـــزلة الوافدة- الكريب- ولذا فقد جاءت هذه المسكينة العجوز لوحدها إلى المستشفى الحكومي. قال الأطباء: لقد أنذر القلب بالتوقف. وتضطجع منذ ستة أشهر في مقبرة قريبة ترى من فوق جدران السجن العالية، الباقية منذ عهد جينوفليان. وعاد إسماعيل ليقف على شـــباك مهجعـــه، يطيل النظر في المقبرة، والتي تبدو في ضوء القمر، وكأنها المحاريب. لكنـــه مـــن الصعوبة التكيف مع موت والدته، ومن الصعوبة أن يصدق ذلك.. رآها بـــأم عينه كيف وقعت أرضاً، من نفس هذا الشباك كيف حملوها إلى المقبرة- في ظهر يوم حار، فالرؤية والسمع، والتأكد، كلها واحد، لكن أن تصدق شيء آخر.

وبعد شهرين من الزمن قالت له ناريمان:

– والآن، أنا أمك.

لو أن هتلر هاجم الاتحاد السوفييتي لكان إسماعيل عرف في الورشة عندما كان النائب العام يصلح "الراديو" من ماركة (فيليبس). ولذا كان يبدو هكذا قلقاً. ولأن شريكه رامز قد سأله:

– ما الذي حدث؟ ماذا؟

– إنهم يرغبون بالموت، هؤلاء الكلاب.

– من هم؟

– لم يفت وقت طويل حتى سمع كل السجن الخبر.

– سيكون العفو، سنخرج جميعنا هكذا قالوا.

– أثناء تصليح المذياع، الذي طال كثيراً وعن قصد، حاول إسماعيل أن يفهم، بقدر ما يعرف من الروسية، الأخبار السوفياتية. كل الصحف. عدا واحدة أو اثنتين مثل (تان) وإذاعة أنقرة، تؤيد الألمان، أما الحارس البورصي الأصل، لم يحدث إسماعيل شيئاً في المساء. "سيربح الألمان الحرب لا تمتعض" سبّ إسماعيل عليه، لأمه وامرأته. ولم يأمره الحارس أن يخرج من الشبكة ليتضاربا– فعلى أية حال هو يصلح راديو الوالي– الذي يكرهه. ولكن إذا كان مناوباً أثناء الزيارة فسيقف عند الشبكة، عمداً ليقهره. وإن جلبت معها طعاماً فسينعثه على الحديد، كي لا يأكل.

لقد أغاظ انسحاب الجيش الأحمر، إسماعيل. فهو يعلم أنه لا يوجد جيش يضاهي الجيش الأحمر، في كل العالم. وقد سمع من أولئك العائدين من موسكو أن الجيش الأحمر كان يسيل كالمطر في يوم العرض أمام الكرملين "ولماذا لا يسيل كالمطر الآن على مؤخرات الجيش الألماني؟". هذا ما كان يسأله على الدوام ثم أقنع نفسه بأن هذا الانسحاب، إنما كان مقصوداً. ولم يُصدق مئات الألوف من الأسرى العسكريين. ولكن إذا كانت هذه الشيفرات الألمانية صحيحة؟!" تعب

في التفكير. لكنه في كل مرة كان يحس ألماً غير معقول، ويرغم نفسه على عدم التفكير.

الألمان يتقدمون باتجاه موسكو. مقال "عابدين أفير" في جريدة الجمهورية: "سقوط موسكو هو سؤال اليوم".

تمشى إسماعيل على الشرفة غير المسيجة قرب مهجعه. ومن الجهة الأخرى لجدران دجينوفليان ترى الهضاب والقبور. ومساحة السجن مليئة بالثلج.

رفع إسماعيل حفنة من الثلج الوسخ، وبدأ يأكله. حاول أن يتخيل موسكو التي حكى له عنها أحمد، أو غيره من بعده، ورأى عدة صور فوتوغرافية- ضريح لينين. الذي يستطيع أن يرسمه عن ظهر قلب. والآن يهدم الفاشيون موسكو، موسكو الصامدة. "وهناك يقتل شعب، وتسيل الدماء، وأنا أستلقي هنا، وكأن شيئاً لا يعنيني. كيف هذا العذاب يا عزيزي"...

ذات يوم جاءت ناريمان إلى الزيارة بدون أمينة.

- لقد طردوني من المدرسة.

- لماذا؟

- بأمر من الوزارة.

- لأي سبب؟

- لا تقلق، سأخيط. فهذا أفضل. وعندي ماكينة خياطة. وفي الأيام الأخيرة تعطل فيها كل شيء وعليك أن تصلحها.

- لكن يا عزيزتي، لماذا طردوك من العمل؟

- قبل شهر، كلا، ليس، وربما قبل نصف شهر، أهانني معلم الجغرافية، ولم أقل لك إلى الآن إنه رجل غير مهذب.

- كيف أهانك؟ وماذا يعني ذلك؟

- لا شيء، يا روحي، فقط هاجمني، وهو متزوج؛ لا يخجل، وكم مرة وبخته. وهو أصلع أيضاً...

وكأن أحداً طعن إسماعيل بخنجر في ظهره، أصلع، لكنه هاجم... والقصبة مليئة بالشبان غير الصلعان. وامرأة شابة، امرأة جميلة. ومع ذلك هي من إستانبول؟! وفوق كل شيء زوجها في السجن، تمد يدها وتقطف من عمد آخر.

– وهل هذا يدور حولك أيضاً؟

– لا.. يا روحي.. أتعتقد أنت أن كل العالم يدور حولي؟

– ولِمَ لا يدور. فأنت امرأة حلوة.

– هل جننت أنت؟ وماذا تظن بي؟

– حسناً، حسناً، ثم المدير؟

– فقد قال: لقد فعل الألمان خيراً حينما قطّعوا الروس بعنف.

فعند الشيوعيين لا يوجد رباط أسري، أو احترام للأسرة، فزوجتك تصبح زوجتي، وزوجتي هي زوجتك. وعندها أدار مدرس الجغرافية إلي وقال: "يا سيدة ناريمان" وزوجك شيوعي، لكن هل هي قناعتك هكذا؟ فلم أعد أتمالك نفسي، فصفعت ذلك الوقح.

– حسناً فعلت. حسناً فعلت، حسناً...

ولتعيشي يا عزيزتي. ولكن لماذا لم تقولي لي ذلك حتى الآن؟

– كي لا تقلق عبثاً.

– وفصلوك من العمل لأنك صفعت هذا الوقح؟

– كلا. بل بسبب الدعاية الشيوعية. فقد قام مدير المدرسة ومدرس الجغرافية بإرسال تقرير إلى الوزارة، يقولان فيه، إن زوجي في السجن بسبب الشيوعية ومجرم. وقد احتج المعلمون جميعهم ضد هذا التزييف: "سنوقع جميعنا عريضة نطالب فيها إحقاق الحق" هذا ما قالوه. لكني لن أعود وأنا حية إلى المدرسة سأخيط. وسترى، سأنتج أكثر بكثير من هناك.

كان في مهجع إسماعيل ثلاثون شخصاً. الأرض من الإسمنت. وقد أحيطت الجدران كلها بمقاعد خشبية واسعة وفارغة من الوسط. وعلى يمين المقعد في الزاوية. وضع سرير سليمان آغا.. في النهار يطوي الواحد على الآخر:

الفراش، اللحاف، المخدة. وعلى السجادة يمدد سليمان آغا رجليه. وحتى المساء، يقضي الوقت يحسب في مسبحته ويشرب الشاي والقهوة مغليين على النار الموقدة في الغرفة. كان آغا كبيراً لإحدى القرى التي تبعد ساعتين من القصبة. محكوم بجرم الضلوع في القتل؛ فقد حرّض أحد رجاله على قتل الآغا المجاور. فأعدموا الرجل، وحكموا على الآغا بخمسة عشر عاماً.

ورامز الخياط كان من نزلاء ذات الغرفة في السجن. وكذلك الصانع شفيق. أما فرشة الفقراء كانت رقيقة. وبوجه واحد. وكثير من السجناء لا يطوونها بل يجلسون عليها. وجلس منظف المهجع عند الباب على بساط من الجلد، صار أسود من الوسخ. أما الآغا سليمان فلديه خادم خاص. يسمونه إحسان الظريف، ورب الفقراء. ولهذا الشاب وجه أبيض كالورقة البيضاء. ويقال أن الآغا سليمان ينام مع إحسان الظريف كما ينام مع زوجته..

سرير إسماعيل بجانب سرير الخياط رامز.

والأحذية، والصنادل، والشحاطات، يضعونها بجوارهم على الأرض النظيفة. والموقد، المنقل والترمس الضخم- وهو للآغا سليمان- وبقدر ما يكون الترمس كبيراً بقدر ما يكون هنيئاً- توضع كلها قرب باب السجن. وفي الشتاء لكل منقله، ومدفأته، يضعها بين ساقيه ويتدفأ. فيعج الدخان ورائحته، حتى يخيل للإنسان أنه سيغمى عليه.

ويبيع الآغا سليمان الحشيش في السجن. كما يقوم بجمع نفاضات سجائر من ورق اللعب.

في عام /١٩٤٢/، جلبوا مطاردين من سجن "سينوب". كانت أسماؤهم معروفة في كثير من المراكز السرية: إنهم ثلاثة من عصابات تهريب الهيرويين من إستانبول، وقاتلان من أزمير، جاءا من إستانبول "آدم بابا". هكذا أسموهم لأنهم كانوا فقراء وعراة مثل آدم- ووضعوهم في الغرفة الأخيرة، في المكان الذي كان يسجن فيه أفقر السجناء من الفلاحين المحكومين. وجلسوا جميعهم على المقاعد

التي كانت مغطاة بالجرائد. فيما وُضع الآخران في الغرفة الثانية إلى اليمين. وقيد رامي المدفعية الذي قبض عليه كجاسوس ألماني، ليضعوه في غرفة الآغا سليمان. فبدأت في الداخل عمليات بيع الهيرويين. وقد استلم بيع الهيرويين أولئك الذين أتوا من سينوب وتجاوزوا الآغا سليمان: فقد أراد هؤلاء من سينوب أن يمسكوا بالحشيش والقمار لأنفسهم. وكان المدير إلى جانب هؤلاء من سينوب، أما الحارس الرئيسي فكان إلى جانب الآغا سليمان. أما المدفعي، الجاسوس الألماني، كان في البداية بصف سليمان آغا، ثم انضم إلى هؤلاء من سينوب. ورئيس قسم البوليس العجوز كان مع المدفعي. ثم أخذ هؤلاء من سينوب/ أخذوا إحسان الظريف من سليمان آغا، وذات يوم وعندما كان الآغا سليمان يؤدي صلاته قفز ثلاثة من هؤلاء إلى الغرفة وطعنوه بخنجر في ظهره أردوه قتيلاً. إسماعيل ورامز كانا في المشغل. بينما كان شفيق يلتهم طعامه على الشرفة.. علا صوت من تحت:

– قتل الآغا، النجدة:

إذ طعنه هؤلاء من سينوب، طعنوه بالخنجر. فأخذ عناصر البوليس يتحفزون بجانب جدار دجينوفليان. وصاح المدير العجوز هلعاً:

– لا أحد يتحرك من مكانه، وإلا أمرت بإطلاق النار..

وضع السنوبيون حوالي الشهر في زنزانات مظلمة، ثم أخرجوهم ووضعوهم في غرفة الآغا سليمان، وذات يوم تحدث رامز الخياط إلى إسماعيل:

– لا يعجبني هذا المدفعي، الألماني الشكل، فهو يغتابك دوماً، فحاذرك منه...

– ماذا يخبئ لي هذا الدنيء، يا عزيزي؟ فأنا لا أتعاطى الحشيش ولا القمار.

– أنت تعلم جيداً، لكن أكرر بأن تحترس منه...

بعد شهرين وفي يوم العطلة، الأحد، وبينما كان إسماعيل عائداً من الزيارة، رأى عند البوابة، ثلاثة من سينوب ينتظرون عند البوابة كي يأخذوهم إلى

المحكمة بجريمة قتل سليمان آغا. وفي أيديهم القيود. اثنان منهم مقيدان ببعض والثالث مقيد مع إحسان الظريف والمدفعي. أدخلوا جميعاً إلى قاعة المحكمة وأغلق الباب وراءهم، تراشقوا السباب مع رفاقهم، ثم بدؤوا يتعاركون بالخناجر.

– كفوا، توقفوا يا مجاذيب– صاح إسماعيل.

أطلق الحارس، من "بورصة"، عياراً من مسدسه. بينما سحب أحد المقيدين، مرتضى، وهو بالأصل من أزمير، سحب الخنجر من إحسان الظريف وحذف به هذا الشاب. ولما رأى المدفعي ذلك بصق على إسماعيل فوراً. فقفز إسماعيل بالحال ورمى بما جلبته ناريمان على رأس المدفعي.

وبعد ساعة من الزمن، قال إحسان الذي يصارع الموت، وهو بحالة إسعاف في غرفة إسماعيل:

– ناولني كأس ماء أيها السيد.

ألقى إسماعيل، بهدوء، رأس الشاب على سرير الإسعاف، وقد غطّي بمشمع مشقوق، وأتى له بالماء.

– أترى، يا سيد، لقد قدر لي أن أشرب آخر جرعة ماء من يدك فيما كنت أودّ أن أقتلك، ولْيسامحني الرب.

– وأنا أطلب لك السماح.

وعند المساء كان كل شيء واضحاً، قال الخياط لإسماعيل وهو ينظر إلى شاربيه العسليين:

– ألم أقل لك؟ إن السنوبيين كانوا دوماً يتشاطرون من أجل الكسب ويتوزعونه حتى أنهى الواحد منهم الآخر.

ولم يرد إسماعيل:" لكن ماذا سيحصل؟ فهم يعلمون أن هؤلاء القتلة، يقضون شهراً في الزنزانات، وبعدها سيخرجون ليتابعوا العمل".

– ولماذا كان يريد إحسان الظريف قتلي؟

- لقد أوضح المدفعي له ذلك، على أنه إذا قتل شيوعياً، فسيكون حكمه خفيفاً. وأنا تحدثت بذلك مع الحارس العجوز. وقد أوكلوا هذه المهمة لإحسان الظريف، إلا أنه عندما شتم مرتضى نال ضربة السكين فنوى المدفعي عليك...

ولم تتحقق توقعات إسماعيل. فقد حكموا على المدفعي والباقين ونقلوهم إلى سجن "تشانكيرا". وقيل بأن النائب العام الجديد هو إصلاحي.

- يا زوجتي العزيزة، إنني أخجل أن آكل هذا الذي تحملينه لي.

- ولِمَ تخجل؟

- لأنهم في الداخل يموتون جوعاً.

- وليس في الخارج أفضل من هذا، فماذا نستطيع أن نفعل؟ لقد طبخت لك اليوم أمينة، بيديها، المجدرة.

وضعت أمينة شريطاً أزرق في شعرها الأجعد.

- كُل، يا عيني. فقد وضعت فيها كبيساً من الفليفلة. وكذلك بعض اللحم المفروم.

في السجن جوع. في غرفة "آدم بابا" يحملون واحداً، أو اثنين ميتين أسبوعياً. والفلاحون الزائرون يأتون حاملين علباً صغيرة...

خرج إسماعيل إلى المشغل. في الخارج نور الشمس. تنفس عميقاً. نظر إلى الجهة المقابلة، جماعة "آدم بابا" يصطفون ومعهم بعض الفلاحين، يحملون خناجرهم عند جدار دجنيوفليان. أربعة من حملة الخناجر يقصون العشب الطري بأفواههم وليس بأيديهم، كما الحيوانات، ويأكلونه وهم ينبحون كالكلاب ويتشاجرون فيما بينهم.

الخط الرابع والعشرون

فتح أحمد عينيه. وإسماعيل يقرفص بجانب النملية ويعمل شيئاً والقنديل يضيء.

– يا إسماعيل، هل لا يزال الوقت ليلاً؟ وهل عدت من العمل؟

– لم أذهب إلى العمل. ثم، لا زال باكراً بعد.

– فماذا تعمل هناك؟

– أطبخ الشوربة، من العدس. فستكون مناسبة لك في الصباح.

– شكراً يا طيب– قال أحمد. ولم يقل أن لا شهية لديه. فلم يحكم على ذلك بعد.

– وكيف حالك الآن؟

وخاف أن يقول "رديئاً جداً":

– أفضل قليلاً.

– لأرَ هل حرارتك مرتفعة؟

– ليست مرتفعة... بل قليلاً جداً...

وجسّ إسماعيل جبهة أحمد.

ولم يقل "إنك تلتهب، تلتهب كالموقد".

– لقد هبطت. ليس تماماً. لكن هبطت. سأذهب لأشتري لك دواء.

– حسناً.

لم يقرر أن يقول "ما الفائدة من الدواء".

أكلا الشوربة التي طبخها إسماعيل. تقيأ أحمد، لكنه تحمل كي لا يظهر ذلك.

– أنا أحب الطعام المرق، يا أحمد. ومن المحتمل أنني صببت لك كثيراً...

– أجل، لقد كان زائداً نوعاً.

– هيا لأعطيك "إسبيرين"؟

– هذا كثير، فستؤثران على قلبك.

ولم يسأل: "وإذا أثرتا على القلب؟". وبلع حبيتين دفعة واحدة.

"أرتجفُ، وإذا استمر ذلك، فستسقط أسناني".

تزمل أحمد بالبطانية وجلس على الفراش.

– سأحكي لك شيئاً يا إسماعيل، لم أقله لأحد غيرك، إذ لم أستطع أن أحكيه.

– أليس من الأفضل أن تتمدد، وترتاح، يا عزيزي.

– لا، لا. أنت لا تتكلم، لا عن أمك، ولا عن النساء التي أحببت. وألا تعلم بأنني ثرثار؟

– هذا شيء– عادة. لكن لا تتعب نفسك..

– عن الصينيين. عن الصينيين في جامعة موسكو.

– أفهم.

– هناك مجموعة من الصينيين عادت إلى الوطن. وكان سي– يا– و. منها... ولما دخلت عناصر هذه المجموعة إلى الحدود، ألقوا القبض عليهم وقطعوا رؤوسهم بالساطور، جميعاً. هل تفهم؟

– أفهم.

– وكان بينهم ثلاث فتيات، في المجموعة الأولى، تفهم؟

وأريد أن أسأل هل نجحت في أن أوضح لك.

– جيداً.

– ولما علمنا بأنهم قطعوا رؤوس المجموعة الأولى بالساطور؛ نظمنا اجتماع احتجاج. وأريد القول بأن سي– يا– و. علم بذلك.

– بالطبع، لأنكم أنتم علمتم بهذا.

– سي– يا– و. علم بذلك. ونظمت في النادي جلسة تأبين. وألقيت فيها الكلمات. وفي اليوم التالي سافروا. وبعد الجلسة، قالت لي آنوشكا:

– سوف نتمشى هذا المساء، أنا وسي– يا– و. عاد سي– يا– و متــأخراً، وقد افتعلت بأنني نعسان. ولم أسأل شيئاً. ولم يضـــطجع، وجهـــز أغراضــــه، فنهضت.. تعانقنا وذهب.

– وهل قطعوا رأسه أيضاً؟

– لا أعلم. وبالحقيقة فقد عدت أنا الآخر بعدها إلى الوطن مـــع كـــريم.. أعطني سيجارة.. ليس لدي رغبة في التدخين، لكن حلقي مر..

– ارتح قليلاً. فقد تعبت.

كلا، بل سأحدثك.

– ولماذا رغبت أن أحكي هذا؟ لا أدري!. ولعل السبب أنني حلمت هـــذه الليلة بآنوشكا؟

وذهبت إلى آنوشكا عند المساء. فقد بحثت عنها في النهار، في المكتب. فقالوا لي بأنها لم تأت، فذهبت إلى الغرفة... وجدتها مستلقية على الديوان.

– هل كانت مريضة؟

– بل منهكة قليلاً.

فجلست على طرف الديوان:

– هل أغلي لك شاياً؟

– لا، لا حاجة له.

– من المحتمل إنك غير مرتاحة، وأنا كذلك.. فلن يقبض علـــيهم.. وهـــل يسجنون كل القادمين!؟.

– لا تتحدث عن هذا؟

– لِمَ تتحدثين معي هكذا؟ فأنت تعارضينني دوماً؟

– أنا لا أعارضك.

– ولكن كذلك..

وفجأة سألت، فهذه عادة عندي، وقبل أن أقرر هل أتكلـــم أم لا، وكـــأن شيطاناً هبط من السماء يدفعني للكلام، والسؤال:

– هل تمشيتِ في البوليفار مع سي– يا– و؟

نظرت إليّ بطرف عينيها الزرقاوين اللتين اغرورقتا:

– ذهبنا إلى ماروسيا.

– وماروسيا تقطن في روستوف.

– أنا عندي مفتاح بيتها.

– أين هو؟ أريني إياه؟

فركت حاجبيها الثخينين.

– وهل أنا ملزمة أن أريك الحساب أيضاً؟

– لا آآآ.. ولماذا تريني الحساب... فماذا فعلتما هناك؟

– نمنا.

أحسست كأن إبرتين دخلتا في عيني..

– وماذا تعني نمنا؟

– نمنا تعني نمنا. كما أنام معك.

– تكذبين.

– ولَمِ أكذب عليك؟

– ولماذا فعلت ذلك؟

ابتسمت آنوشكا، عجباً، استهزاءً، وقرفاً.

– فهل يوجد هناك سؤال أغبى من ذلك؟

أخذتُ قبعتي وخرجت. تسكعت في الشوارع، والبوليفارات، دخلت إلى سينما، وأخرى، لا، إلى أربعة، أو خمسة. وفي منتصف الفيلم أخرج.

– يا أمي، إنها مشكلة جدية يا عزيزي.

– ليست سهلة..

– حسناً، وبعد ذلك؟

– لم أتقابل مع آنوشكا طيلة أسبوعين. لقد تجنبت رؤيتها.

– وبعد ذلك؟

– ذات مساء دخلت إلى الغرفة. وكنت قد سكنت في الغرفة، بعد رحيل سي– يا– و، مع كريم.

مرحباً يا أولاد "قالت هي". وكأن شيئاً لم يحصل. فأحمر وجهي ولم يكن لدى كريم أية فكرة عن الأمر. ولكنه لاحظ علي أنني كنت عصبياً منذ فترة.

– أوه، ماذا جرى بصاحبنا أحمد هذا؟– سأل كريم آنوشكا.

– لست أدري، وهل سألته؟

– سألته، لكنه لم يجبني.

– ربما لا يرغب أن يقول لك الحقيقة. وليس أحمد منفتح مثلك– ودغدغتني بنظرة خفية– فسنقضي، أحمد وأنا، في منتجع عمتي الصغير. وستكون مغادرتنا خلال أسبوعين حيث تبدأ عطلة الجامعات، أليس كذلك يا أحمد؟

– ولماذا تخبئ عني هذا، "يا جدع"؟– سأل كريم.

– وسأجيء أنا أسبوعاً ضيفاً عليكما.

– بالطبع، عندما يعود كروم وماروسيا من روستوف، تأتيان معاً..آه، ماذا كنت أريد أن أقول؟

– لقد جئتك يا أحمد، لدي بطاقتان للمسرح الصغير، وفيما نحن ننزل إلى شارع تفير، توقفت فجأة:

– أنا لا أريد الذهاب للمسرح، فمن أين جئت بفكرة المنتجع الصيفي؟

– لقد تحدثت أنا وعمتي بهذا الخصوص، ستعطينا غرفة فيه.

– شكراً، فأنا سأذهب إلى منتجع الجامعة.

– هيا.

أخذتني بيدي، مررنا قرب دكان" بليسييف" ولم نتكلم كلمة واحدة.

– وهكذا لا زلت حروناً بسبب هاتيك الكلمات؟

– إنني شرقي.

– أهكذا تتصرف تجاه سي– يا–و، ذلك الإنسان الذي ربما سيموت والذي يحبني بصدق، نمت معه ليلة واحدة وحيدة.. مع من كان يحبني من غير أمل، وإنني حققت له سعادة ما، وبسبب ليلة واحدة؟!

– نحن لا نفهم ذلك يا آنوشكا، فاتركي لي يدي.

– وهل أنت متأكد بأنني نمت مع سي– يا–و.؟

ارتبكت وتوقفت.

– الوقوف في المعبر هو أيضاً عادة شرقية موروثة، هيا..أرجوك.

– هل نمت أم لم تنامي؟

– نمت ولم أنم، وهل لذلك علاقة برغباتي تجاهك؟

– كيف لا؟

– لم أنم..

– تكذبين.

– إذن نمت.

– لا تستغبيني.

– إذاً لم أنم.

– فهل نامت، أم لم تنم، يا عزيزي؟

– لا أدري يا إسماعيل، وإلى اليوم لا أدري.

– وهل ذهبت لعند هذه ماروسيا، إلى بيتها، وسألت؟

– لكن ماروسيا تسكن في بيت خشبي مؤلف من غرفتين مع أهلها، وكلهم كانوا قد ذهبوا إلى روستوف.

– ربما لم تنم، وقد قالت ذلك لتغيظك، وعلى ما يبدو، من خلال حديثك، إنها فتاة عنيدة، تعتز بنفسها، وربما لم يناما.

– ربما، وربما ناما.

تثاءب أحمد.

– هذا يشبه حادثة الكلَب التي ألمت بي..ربما كان الكلب مكلوباً، وربما لم يكن، وربما كان من المفروض أن أذهب إلى إستانبول، وربما لا، وربما سوف أنكلب، وربما...

– دعك من هذه الحكاية حول الكلب الآن، فلا تشبه الإنسان الذي سينكلب.

– اليوم هو الرابع والعشرون، ارسم الخط الرابع والعشرين يا إسماعيل.

– دعك من هذا يا عزيزي.

– ارسم عندما أقول لك.

رسم إسماعيل الخط الرابع والعشرين بالأبيض على الباب.

حاول أن تنام، فأنا ذاهب لأحضر الدواء، وعلى أية حال يوجد شيء آخر لتخفيض الحرارة غير الأسبيرين.

– وذهب إسماعيل.

* في عام ١٩٤٣ خرج إسماعيل من السجن.

* وقبل ذلك التاريخ بيوم واحد قالت له ناريمان:

– لن آتي غداً لأنتظرك في السجن، فتعال وحدك إلى البيت، وكأنك تعود من العمل، فسننتظرك أنا وأمينة، وكأنك تعود من العمل، فلا تنسَ العنوان، اكتبه في مكان ما.

استمرت إجراءات إخلاء السبيل طويلاً، حتى المساء، فحزم إسماعيل حقيبته وآلاته، واعتذر وخرج.

لقد تخطى المكان قليلاً، فهذه القصبة تشبه، إلى حد ما، كل القصبات في مركز الأناضول التي يعرفها، لأن الوقت كان ليلاً، عندما أخرجوه من السحن، ولم يستطع أن يميز ما حوله، لف من الساحة إلى اليسار، فدخل في حديقة، يتوسطها تمثال أتاتورك على قاعدة إسمنتية، وعلى قاعدة أخرى ساعة جدارية بمنبّه، لكنها لا تعمل، بشكل طبيعي. دخل إلى الشارع من الجهة الأخرى، ثم

رائحة الرطوبة والدخان المتصاعد، وعند الباب :" غداً سأذهب إلى المقبرة" هذا ما فكر فيه، ثم دخل في ممر ضيق، فالحديقة مسيجة بجدار عالٍ " هذا هو بيتنـــا" بيت خشبي بطابقين، الطابق الأرضي مقحوط، والثاني غير مطيّن، والمدخنة تحمل البواري السود، وقد فتح الباب قبل أن يقرع، رمت أمينة حصوة.

– انتظريني يا بنيتي قليلاً... الحقائب..

إنها تنتظرك على الشباك.

دخل إسماعيل، خلع حذاءه وانتعل خفاً.

– أهلاً وسهلاً يا زوجي العزيز، هل تعبت اليوم في المشغل؟

– كالعادة.

يوجد في البيت غرفتان، أما المطبخ والمرحاض فهما في الحديقـــة، وإحـــدى الغرفتين نهارية (للجلوس) وبجانب الحائط ديوان، ومخدات قاسية، وفي الوســـط شرشف يلمع كالشمس، وطاولة للكتابة مع كرسي.

– سنأكل جالسين على الأرض.

– حسناً.

وعلى الحائط صورة إسماعيل، مكبرة عن صورة هوية قديمة.

– وأنا سوف أكبّر صورة أمينة لكن على الورق الذي سيصل من إستانبول.

– وكبّري صورتك لتكون بجانب صورتي.

– حسناً، إذن لنتصور فنصبح جميعنا مع بعض.

– ممكن يا والدي.

– ممكن يا بنيتي.

دخلوا إلى غرفة النوم، وفيها أيضاً ديوان وسرير معدني مزدوج بأربع أرجل، وكان غطاء اللحاف/ الملحفة/ ناصعاً كالثلج، وفي الزاوية طاولة مع مرآة، وعند السرير " كومودينا" والطاولة و" الكومودينا" كان قد صنعهما النجـــار زكـــي لإسماعيل في السجن.

- أنام مع ماما في السرير يا أبي.
- لكن الليلة اسمحي لي أن أنام هنا.
واحمرت وجنتا ناريمان.
- سأجهز لك السرير في الغرفة الأخرى يا أمينة.
- اسمعي يا بنيتي، يا أمينة، لنتفاهم، أنا لا أحب الأطفال العنيدين، والذين لا يسمعون الكلام.
وإلى أن تناولوا العشاء، في الصحون الفخارية، والخبز البلدي، الذي جلبته ناريمان، سأل إسماعيل:
- أتريدين أخاً يا أمينة أصغر منك نسميه " دادو"؟
- حالاً يا أبي.
- لا يمكن حالاً لكنه سيأتي يوماً ما.
- أرغب جداً أن يأتي، فسنقص له شعره أولاً، وأريد أن يكبر بسرعة، وسأخيط له بزة حلوة.
صدق إسماعيل ناريمان التي تجلس مقابله، وقد احمرت وجنتاها احمرار الشمندر، ولاحظ فستانها..
- إن فستانك لجميل، يا عزيزتي، انهضي لأراه، نهضت ناريمان ووقفت قرب إسماعيل.
- جميل وهل يعجبك؟
- قليلاً إنه يعجبني، هل خطتِه وحدك؟
- ومن سيخيطه لي؟ أنا أخيط ثياب النساء الأخريات.
وبعد العشاء فتح إسماعيل "الراديو"، راديو على البطارية، جلبته ناريمان من إستانبول.
- استمع لموسكو، ولنسمع ما يقول.
وسمع الأخبار.

يتقدمون، يتقدم رفاقنا، ولا يمكن أن يتوقفوا، أو لم ينشد الشاعر:

هذا الجيش هو جيشك، هذا الجيش هو جيشي، هذا الجيش هو الجيش الأحمر، جيش العمال..

– إيه.. إن العيش شيء رائع يا عزيزتي...

ولاحظ إسماعيل أنه لم يقبّل ناريمان منذ أن وصل، فشدها إليه وعانقها، انتظر لا تفعل ذلك بحضور أمينة..

– في أي ساعة تأوي طفلتنا هذه إلى السرير؟ فكما أعرف يجب أن يذهب الأطفال باكراً إلى الفراش..

– لست نعسانة يا أبي.

– ماذا تقولين، ماذا حصل لك يا عزيزتي؟

حملت ناريمان أمينة إلى الفراش، قبّلتها على الخدين، ودخلت بها إلى الغرفة الثانية، ثم همست في أذن إسماعيل:

– اذهب واجلس قليلاً بجانب الطفلة.

جلس إسماعيل بجانب الطفلة على الديوان.

– أغمضي عينيك يا بنيتي.

أغمضت أمينة عينيها.

– إذا نمت فسوف أشتري لك غداً" حلاوة" بسكويت.

فتحت أمينة عينيها:

– ما هي هذه الحلاوة يا أبي؟

– دعي البسكويت، فسأشتري لك لعبة.

أغمضت أمينة عينيها بشدة.

خلع إسماعيل " جاكيته"، طواه ووضعه على حافة الديوان، ونهض بهدوء سائراً على رؤوس أصابع قدميه وأطفأ المصباح المضاء على الطاولة، بينما نامت أمينة بعمق.

وبهدوء، فتح إسماعيل باب غرفة النوم المضاءة بقنـــديل، وكانـــت ناريمـــان متمددة على السرير وقد رفعت اللحاف حتى أنفها، وفي عينيهـــا الســـوداوين رعب ودهشة، وفكر إسماعيل، هل يطفئ القنـــديل أم لا؟ ثم أطفـــأه، وخلـــع ملابسه..

واستسلمت له ناريمان بلطف متزايد.

في أزمير نهاية الخط الرابع والعشرين

عاد إسماعيل، كان أحمد يضطجع وعيناه تحملقان في السقف.

– كيف حالك؟

– أفضل.

– جلبت لك بيراميدون، وقالوا لي إن السكوفايين والأروتروبين مفيـــدان أيضاً.

– لمن جلبت الدواء؟

– لك، فهذه الأدوية تعطى بدون وصفة، ابلع هذه، وهذه، وهذه.

ابتاع أحمد الدواء.

– أتدري: إن خالك السيد شكري قد هرب؟.

– بالله عليك.

– والله لقد سمعت ذلك الآن، وهرب قبل يومين إلى أوربا.

– كيف؟

– لا أحد يعرف، يقال إن الإنكليز ساعدوه، لأنه كان يتاجر معهم.

– إنه كومبرادور حقيقي.

–زوجته هي خالتك أليس كذلك؟

– أجل خالتي.

– لم يفتح البوليس الباب، فقد حاولوا أن يظهروا أنهم في مهمة تفتيش، ولم تعثر الشرطة عليه فأرادوا الدخول بالقوة، فقالت خالتك:" سأطلق عليكم النار من الشباك" لقد أعجبتني هذه المرأة، يا عزيزي.

– إن كل النساء من أسرة والدتي هن هكذا، وكذلك أمي، عندما حملت بي صدف أن ضربت البوليس السري للسلطان حميد في المقصورة في أوســـكودار، وكانت لجدي علاقات طيبة مع نامق كمال والبقية، وكان أصغر منهم، لكنـــه

أحب بشكل خاص نامق كمال، وكذلك ضياء – باشا– وكان في البيت بعض السجلات والقصائد، لاحظت والدتي ذلك، فقامت بإخفائها تحـــت الســـرير، واستلقت في السرير، ولما اقتحم البوليس السري المنـــزل صاحت بملء صوتها: "اخرجوا أيها الوقحون، كيف يمكنكم أن تدخلوا إلى غرفة تنام فيهـــا امـــرأة مسلمة؟ إذا لم تخرجوا فوراً فســـأقتلكم" وأخرجـــت مســـدس والـــدي مـــن "الكومودينا" لم يزل هذا المسدس موجوداً، مسدس قديم بست طلقات، لكنـــه صدئ، وسألت والدي مرة:" لماذا تحتفظ به يا أبي؟" " لكي أخيف به اللصوص"، هذا ما أجابني به، فلم يكن يحسن استعمال السلاح، وكذلك أنا، هل تعلم من أين أتاه الرعب من اللصوص؟ لقد رأى مرة في مجلة فرنسية صورة تمثل كيـــف استطاع اللصوص مهاجمة منـــزل وحيد في أواخر الليل لامرأة وزوجها في غرفة النوم، لكن مغزى الأمر ليس في أنه رأى الصورة، بل بمقدار ما كانت والـــدتي شجاعة، كان والدي جباناً.

ولم يدرِ أحمد بأنهم قبضوا على والده وقادوه إلى إدارة البوليس في إستانبول، وحققوا معه وضربوه وعذبوه، في استجوابه، للإفادة عن مكان ولده، ولم يعلم بأن والده لم ينطق بكلمة واحدة حول هذا الأمر، بالرغم من أنه كان يعرف بأنه في أزمير..

عزلوا والدي من العمل، بسببي، حدث هذا عندما كنت في موسكو، بينمـــا استطاع رجل آخر أن يصبح سفيراً، ويستأجر فندقاً بحاله لحساب بعض الأغبياء.

– هل فعلت الأدوية شيئاً؟

– وهل بالإمكان أن تتفاعل هكذا بسرعة؟ لكن الأمر سيكون أفضل، شكراً لك يا إسماعيل.

– أنا أعلم أنني لن أنتفع بالأدوية، وما هي الفائدة التي يقدمها بيراميـــدون عندما تكون المسألة مسألة كلَب؟ لكن هل أنا متأكد من أن هـــذه الأوجـــاع وارتفاع الحرارة تعني الكلَب؟ إنني متأكد مئة بالمئة.

– هل كان بيتروسيان واثقاً من أنه مصاب بالسرطان؟ لم يكن متأكداً، لقد كان يخمن ذلك... ولما تأكد من الأمر.. لكن هل أنا على يقين بأن بيتروسيان مات مصادفة؟ عندما أتأكد بأنني سوف أصاب بالكَلَب سأشرب عشرين قطعة من الدواء دفعة واحدة" لأنام إلى الأبد...".

– يا إسماعيل، لم يبق لدي حبوب للنوم.

– سأجلب لك، لكن إذا تعودت عليها...

– " ولِمَ لم تخطر هذه الفكرة ببالي حتى الآن بدلاً من أن أعاني؟ حسناً، لكن متى؟ غداً مساءً، يجب التأكد تماماً، لذلك سأنتظر قليلاً.. أليس ذلك نوبة نصيب القلقين؟.

– منذ ابتلعت هذه الحبة لم أعد أقدر على النوم، اشتر لي أقوى منها يا إسماعيل.

في منتجع آنوشكا الصيفي

- ما هذا يا أحمد؟

رأت آنوشكا الخط السابع الذي رسَمَته على الباب الذي يفتح على الشرفة الزجاجية للمنتجع.

- هذا يومنا السابع يا آنوشكا، فقد بقي لنا ثلاثة وعشرون يوماً.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك معروف، تنتهي فترة غيابك، وعطلتي، ونعود إلى موسكو. اضطجعت، سنعود إلى موسكو وتظاهرت بأن شيئاً لن يحدث بعد عودتنا إلى موسكو، بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر من عودتنا إلى موسكو...

سافرت أنا وكريم رأساً إلى إستانبول، ولكن لن يحدث لنا ما حدث للصينيين وسي- يا-و ليلة قتل، فالظروف تختلف هنا، وسوف يعلمون طبعاً بقدومنا إلى الوطن، وسيكون البوليس عارفاً بذلك في اليوم التالي، لأنني أنا وكريم سنعمل جهاراً في جريدة " آيدين ليك" فالمسألة هي أن تبقى في إستانبول معافى وحيداً. في الكومنترن قد علموا بأننا سنعود، ونحن اثنان أو ثلاثة، وأحد قادة حزبنا. ومن المضحك أن أخفي ذلك عن آنوشكا، أن أخبرها بأن أمامنا سنة أو سنتين على الأكثر، إنه أشد إثارة للسخرية، وتصرف غير نبيل، ولكن ماذا أستطيع؟

- لماذا تحسب الأيام التي بقيت لنا يا أحمد؟ فعندما أشاهد مسرحية جميلة، لا يخطر ببالي أن اسأل عن المدة التي يستغرقها العرض، إني أشاهدها وكأنها لن تنتهي أبداً.

- هل هذه المسرحية التي نشاهدها حلوة؟ أو بكلمة أفضل: هذه المسرحية التي نلعبها.

- جداً، لكن كلمة تلعب لا تعجبني، وبالنسبة لي، أنا لا ألعب، أما بالنسبة لك... لا أعرف..

- ألست أنت مشاهداً؟

- كلا بل نحن الاثنان هنا، كيف أعبّر، لسنا نلعب، ولسنا نشاهد بكل سطحية نحن نعيش.

تلاحظ آنوشكا شجيرات الصنوبر السامقة والسرو التي تطل من الباب المفتوح على الشرفة، وهي تبتسم، وفجأة اختفت بسمتها كما تختفي الوردة على الغصن عندما يسقط عليها منديل.

- لا أستطيع التصور يا أحمد، كيف أستطيع العيش بدونك، ستذهب، طوال سنة أو ثلاث، ولن تعود بعد ذلك أبداً.

- لماذا؟ سترين أني سأعود.

- لن تعود، بالنسبة لي ستكون في عداد الأموات، ولا أستطيع أن أتصور أنني سأعيش بدونك.

- أتقولين بأنك لا تفكرين متى تنتهي المسرحية؟

احتضنها وقبلها.

يبعد منتجع آنوشكا، أو بالأحرى، منتجع خالتها، مسافة خمس وأربعين دقيقة عن موسكو بالقطار، في غابة.. وفي الغابة عدد من المنتجعات، لكن المسافة إلى منتجعنا، تستغرق خمس عشرة دقيقة من المحطة، وعندما يهطل المطر، وحتى الآن لم تمطر السماء إلا مرة واحدة، تمرّ عبر الغابة فتطير حولنا بطات برية، وكم كانت الطريق موحلة، والمنتجع مؤلف من طابق واحد، وملتف بشكل دائري كالبيادر الروسية، ومبني كالخيمة المضلعة، فيه ثلاث غرف، غرفة لماريا، وأخرى لأندريه، والثالثة لخالة آنوشكا. وقد أعطتنا الخالة واحدة من هذه الغرف، إن زوج الخالة قد استشهد عام /١٩١٥/ في جبهة القوقاز.

كان " بيتشا" يجلب الحليب لنا من القرية، التي تبعد مسافة ساعة، سيراً على الأقدام، وبيتشا هذا فتى لطيف، شعره مجعد كالمزاليف وصدره ناتئ، حافٍ ويلبس قميصاً بدون حزام، وله من العمر أربعة عشر عاماً.

أخذنا المناشف، وذهبنا إلى البحيرة. كانت آنوشكا دوماً تقرفص لتقطف بعض ثمار الفريز والتوت الصغير " أو الصغيرة" لأني لا أعرف اسمها لا بالروسية ولا بالتركية، ملأت راحتها ثم قالت:

– افتح حلقك.

فتحت حلقي، فملأته..

وكأني آكل لقمة كبيرة، لكن أعجبتني الطريقة التي أطعمتني بها آنوشكا، فلذت بالصمت.

– بكّر القرويون هذا الصباح، قالت آنوشكا، كانت ثلة من النساء السمينات، ترتدين القمصان الداخلية، ورهط من الأطفال العراة يجلسون تجمعات...

وبعضهن يجلس تحت المظلات العادية، والبعض الآخر يجلس تحت أشعة الشمس، وبعض النساء يتمددن على ظهورهن، كان السباحون قرب الجزيرة، وتوافد المصطافون إلى المنتجعات في الغابة يستأجرون فيها غرفاً، وفي المساء يتزينون ويذهبون إلى المحطة يتمشون تحت السقوف الخشبية.

وجدنا مكاناً خالياً من السباحين، قفزنا إلى الماء، وقد بدا جسم آنوشكا أبيض، وكذلك ساقاها الممتلئتان، كانت تلبس البيكيني الأزرق، سبحنا الواحد بجانب الآخر، أرى رأسها مربوطاً بمنديل أبيض، ويديها تلمعان في الشمس حين تخرجهما من الماء.

وتمددنا على ضفة البحيرة على ظهرينا، أمسك آنوشكا من يدها.

– كيف حالك يا آنوشكا الحلوة؟

– لقد كررت هذه العبارة اليوم أربع عشرة مرة.

– وحتى المساء أكون قد قلتها عشرين مرة، أي حتى ننام.

– لا أحبك عندما تغرق في التخيلات.

أخذت أرقب الذين يضجعون على الشاطئ، فرأيت بنت القس، كانت جذابة وناعمة، يطاردها الشباب المصطافون وشباب الفلاحين، تذكرت البلاج

في باطوم، وتذكرت بلاج النساء في إسكودار. كان مسيجاً على طول حد المياه، ومن هناك تسمع بربرة النساء، حدثت آنوشكا عن عمتي جميلة، وتذكرت كيف كانت تتحدث :" لقد حممتك عارياً في حمام الفيلا وأنا أمسكك بقوة بين ركبتي".

– أنت موهوب في أن تجد شيئاً بين الأشياء الطبيعية جداً وغير الجذابة لتتحدث عنها، إنك إنسان لا تخجل.

أتمشى بالبنطلون القصير، ليس في الغابة وحدها، بل في المسابح وتحت السقوف، وغالبية الشباب يتمشون مثلي.

عدنا إلى المصيف، فقد كان شعر ماريا وأندريه الخرنوبي أشيب قليلاً، وكانت ساقاها تشبهان ساقي آنوشكا.

– هناك رسالة لكم، يا أطفالي– قالت.

كانت رسالة من كريم وماروسيا، بالمختصر: الأحد القادم نحن عندكم، فرحت آنوشكا وكذلك أنا.

اضطجعت آنوشكا تحت الصنوبرة الباسقة، قدام المنتجع، وفتحت كتابها، إنها مجدة وستصبح مهندسة، أخذت ألعاب ورحت ألعب بها مع ماريا وأندريه.

في قسم البوليس- الخط الأول

ذات مساء قادوا إسماعيل من البيت إلى القسم، كانت ناريمـــان حبلـــى في شهرها الثاني.

كان قسم بوليس إستانبول يقع في ساناساريان- خان في شارع خالٍ ما بين أمينيني وسيركيجي، وفي الشارع أيضاً حانات أخرى ، لكن ليس هناك واجهات عرض أو مخازن، كان ساناساريان- خان ملكاً لأحد الأرمن الأغنياء، فيه أربعة طوابق، وفي وسطه حديقة مسيجة سياجاً حجرياً، وطريقة الصعود إلى الطوابـــق بواسطة درج من حافتين، القسم السياسي في الطابق الثالث، وقسم الشيوعيين كان في الطابق الأخير، وعند الصعود إلى الاستراحة العليا نجد إشارة ، نصـــفا هلال، على الباب تعني أنه ممنوع الدخول.

كان الوقت شتاء، شتاء قارساً، لعمرها لم تشهد إستانبول مثلـــه، كانـــت الحديقة مليئة بالدراجات النارية، صعدوا به إلى الطابق الرابع، فتحوا الباب ذي الإشارة الهلالية ودخلوا. كان المعبر الموصل إلى مكتـــب قســـم المـــدير مليئـــاً بالموقوفين، يجلس الواحد منهم بجانب الآخر على كراسي مصـــفوفة، وبعضـــها لبعض، ورؤوسهم مطأطأة، وأمامهم شرطي يتمشى يجيء ويروح، ولمـــا دخـــل إسماعيل، نظر إليه الجالسون على الكراسي بأطراف عيونهم، عـــرف إسماعيـــل بعضهم.

" إذا كانوا يحاكمون كل هؤلاء الناس في المعبر، فهذا يعـــني أن المســـاجين كثيرون". دخلوا إلى مكتب المدير: في الداخل طاولة مكتب كبيرة " كنبـــات" مغلفة بالشمع، والمدير رجل حنطي اللون يجلس وراء الطاولة، ويقـــف بقربـــه أربعة- خمسة رجال شرطة- بلباس مدني، واحد منهم وكيل- عرف إسماعيـــل هذا الوكيل، فارع الطول، نحيل الجسم، شديد السمرة- يلـــبس نظـــارات- وعميلا مخابرات- وعلى أية حال ليس من الصعوبة بمكـــان معرفـــة عمـــلاء

المخابرات، فهم يلبسون بزة ناعمة أو خشنة يستلمها من " سومر بنك"، وكلهم يضعون طاقية مقعرة.

– لقد أعطاك ضياء آلة كاتبة وأوراقاً– قال المدير.

– لا أعرف أحداً باسم ضياء، ولا أحد أعطاني هذه الأشياء..

قلت ذلك في قسم البوليس، فتشتم لي البيت، فلو كان عندي مثل هذه الأشياء لكنتم وجدتموها.

لقد أعطيتها إلى كريم.

– لا أعرف أحداً بهذا الاسم " كريم".

ردد مدير القسم هذه الأسئلة مرة ثانية، لكن بطريقة مغايرة، وكان إسماعيل يجيب نفس الإجابة.

اجلبوا السوط– قال المدير.

خرج واحد من الذين يلبسون اللباس المدني.

–" لست أنت لأول مرة هنا، وتعلم ما ينتظرك، فقد اعترف الجميع، أين ضياء، وأين كريم؟ فلا تعذب نفسك وتعذبنا". وقد كان المدير قد قال شيئاً بهذا المعنى. ألقى إسماعيل نظرة خفية إلى نار الفحم التي تشتعل في الموقد الحديدي، كان دماغه يعمل مثل المحرك:" يبدو أنهم سجنوا الكثيرين، هل وضعوا الناس في المعبر أيضاً، ومن كان باستطاعته الهروب؟ ألم يستطيعوا أن يجدوا ضياء وكريماً؟ ومن غيري يعرف أين يتواجدان؟".

عاد الشرطي المدني وبيده عصي خشبية، منها السميك ومنها الرقيق.

– اضطجع.

وفي الحال، وثب إسماعيل على الوكيل، فرمى النظارات، وارتمى بكل قوته فيما كان يقف بجانبه، وهذه هي طريقته، أولاً، يعلم بأنهم سوف يمسكونه بسرعة، لكنه لا يليق بشرفه أن يضطجع هكذا بسهولة دون أية مقاومة. ثانياً، إذا نال بسبب ذلك عقاباً كبيراً بالعصي الخشبية فسيمنح قوة ما إذا هاجم قبلهم.

ولم يعرف إسماعيل فيما إذا كان المدير قد دخل آنذاك، لأن الجميع وقفوا وأمسكوا بإسماعيل وانهالوا عليه كفوفاً، لكماً، لطماً بالأيدي والأرجل حتى توهن، وارتمى على الأرض كالسمكة التي تحاول الهرب من الشبكة، وحينما حاول أن ينجه إلى الجهة الأخرى ليشاهد النار في الموقد الحديدي على الباب، ركلوه بالأقدام بسرعة، ثم جلس اثنان على صدره، ووضعا أيديهما على عنقه حتى كادوا أن يخنقوه..

أمسك المدير بالعصا:

– هل تريد أن تتكلم؟

– ليس لدي ما أقوله.

وأخذا لمدير يضرب إسماعيل على منكبيه، حتى رضّ جسده كله، ولم يعد إسماعيل يحس بالآلام، وبغير الغثيان فإنه لا يحس شيئاً آخر. لا يصرخ ولا يسب: "من قال بأنني استلمت من ضياء وأعطيت كريماً؟". المصباح المتدلية كانت باتجاه عينيه مباشرة، لم ينزعا له جواربه كي لا يسيل الدم على الأرض، وإسماعيل يعرف: "سوف يتجمع الدم تحت الأظافر التي ستسقط فيما بعد"، انتزعوه من سرواله، رفعوه، لطموه بالأكف، ولما تململ وضعوا له قدميه في الإناء، كان في الإناء ماء بارد كالثلج، وأجبروه على المشي ماسكين بعضلاته، المنهكة، المتهدلة، التي لم تعد تحس بالألم، ولما وضعوا قدميه في الماء وأرغموه على المشي، عاد الدم يمشي في قدميه، وأصبح يحس بهما، وعادوا يضربونه مرة أخرى، يضعون قدميه في الماء تارة، ويضربونه تارة أخرى، لقد كان بمقدور إسماعيل أن يميز ضربة الوكيل من ضربات الآخرين.

فقد كان هذا " النموذج" يسحب العصا عالياً بعد كل ضربة.

أما المدير فتوقف عن الضرب، بدؤوا يشفقون على إسماعيل، الألم لا يحتمل البتة. مسح المدير العرق عن جبهته، وأمرهم أن يتوقفوا.

– هل تريد أن تتكلم؟

- ليس لدي ما أقوله.

بدأ ضرب العصا مرة أخرى، لاحظ إسماعيل أن صوته يعلو بكل ما تحمله حنجرته من قوة، وكم مضى عليه من الزمن مذ أُدخل إلى هذه الغرفة، لا يدري، ربما ساعتان وربما ثلاث، ثم علا صوت يقول:

- قودوه.

حمل إسماعيل شخصان تحت الإبط، لم يستطع أن يخطو، سحباه من المكتب، ومن الشباك رأى أن الفجر الشتوي قد بزغ، ومروا به عبر الممر، رفع الذين يجلسون على الممر رؤوسهم ونظروا إليه بدهشة، أخذ بعضهم يبتسم بسمة فيها بعض الرعب، وبعض الحزن، وبعض الفرح والصداقة.

وقد أمسكوا بإسماعيل طوال الطريق خوفاً من أن يقع على الدرج، حَمّلوه الحذاء بيديه، وكان يرفع قدميه وكأنه يخطو على ركبتيه، اختلط نور الكهرباء بنور المصباح الشتوي، أدخلوا إسماعيل غرفة مملوءة بالأغراض في الطابق الأرضي، كانت مهجعاً من الحجر، وأرضها من الإسمنت، وجدرانها وسخة. ارتمى على الأرض، وعدلوا له جلسته ثم عرّوه بسرعة إلا من " الكلسون" المربوط حول حوضه، كان يحمل حذاءه بيده، جلس قرب الحائط، وكان في السقف مصباح كهربائي، بدأت قدماه تؤلمانه وكأنهما مجروحتان، وأخذ المدنيان ثياب إسماعيل، خرجا وأقفلا الباب عليه، شعر بالبرد، بدأ يرتجف، بدأت يداه ترتجفان كما يفعل صياد السمك حين يريد اتقاء البرد:" إيه، ملعونون أكثر من البوليس".

لقد كان مستودع السفينة دافئاً على الأقل، وفجأة أحس بأنه ليس لوحده في " القاووش". استدار فرأى رجلاً يجلس على صندوق يشبه صندوق البرتقال، رفع معطفه، فبدت لحيته الكثة السوداء، كان يلبس قبعة على رأسه، وينظر إلى إسماعيل بعينيه المدورتين، يداه في جيبي " بنطاله". ظن إسماعيل " أن هذا ليس من مواطنينا".

- مرحباً.

– ليساعدك الرب.

– هل أنت هنا منذ زمن بعيد.

– ولماذا سجنوك؟

–" سلبطة".

–" سلبطة" صحيح يا عزيزي، لكن لماذا؟

– لأنني طبعت القرآن بالحروف العربية وبعته.

ولم يسأل الرجل إسماعيل لماذا وضعوه هنا، فقد أغمض عينيه. أراد إسماعيل أن يقف، لا يمكن، فالوقوف على الإسمنت كان كالسير فوق المخارز الحديدية، الجوارب تبللت بالدم.

– إنه برد هنا، يا عزيزي.

فتح الرجل، ذو اللحية الكثة، عينيه، ونظر إلى إسماعيل، ثم أغمضهما، خطا إسماعيل برغم الآلام والعذاب، وبسرعة برد جسمه، فجلس، وفجـأة تـذكر، ففرح، وأخذ الحذاء وجلس عليه.

لم يكن " للقاووش" نافذة.

تذكر إسماعيل الخط الذي رسمه أحمد على الباب / ١٩٢٥/ ، فرسم بظفره خطاً على الحائط، الخط الأول" من هم الذين اعترفوا؟ وكيف لم أعرف أن إلقاء القبض قد اتسع إلى هذا الحد؟ وهل جمعوا كل هذا العالم بليلة واحدة؟".

فُتح الباب، ظهر شرطي يحمل خبزاً وكيساً من الورق.

– بقر.

فتح الرجل الجالس على الصندوق عينيه، نهض ليستلم الكيس والخبز، وقبل أن يعود إلى الصندوق أغلق الباب، فتح الرجل الكيس، زيتون.

– ابني.

– من؟

– الذي جلب لي الخبز والزيتون.

– ها.. منذ متى هو ابنك شرطي؟ إذاً فسنخرج بسرعة من هنا.

فأجاب الرجل بكلمات رحمانية:

– على ماذا يقدر، قسمة، إنها لقسمة، إنه وبعد أسبوع كامل من التحقيق، لم يتوصل لحقيقة.

أكل الخبز والزيتون، وتبول في السطل، وعاد إلى مكانه.

وقبيل الظهر فتح الباب مرة أخرى، أحضر ابن ذي اللحية لأبيه الكفتة والصحون وعلبة ماء، أكل الرجل الكفتة، وشرب الماء واضطجع، ثم سأل إسماعيل:

– أليس لك أحد هنا؟ إذا لم يحضر لك أحد من الخارج شيئاً فستموت جوعاً هنا.

– بل سأموت قبلها من البرد.

وفي المساء فُتح الباب مرة أخرى، جلب الابن لأبيه خبزاً وبيضاً.

بدأ إسماعيل يحس بالجوع، " لا بد أن ناريمان جلبت شيئاً"، خبط على الباب بقوة، فتح الباب، شرطي بالزي النظامي، لكنه ليس ابن ذي اللحية، رجلاه مقوستان– ويعجب الإنسان كيف يستطيع أن يقف بشكل مستقيم على هاتين الرجلين– وسكسوكة، ثم سأل:

– ماذا؟ لماذا تثرثر يا هذا؟

وقبل أن يجيب إسماعيل، قال الرجل من فوق الصندوق:

– لست أنا، بل هذا الرجل...

– ماذا تريد أنت؟

– ألم يجلب لي أحد شيئاً لآكل؟

– سأسأل.

وأغلق الباب.

– لا تقرع الباب هكذا، فإذا جلب أحد لك شيئاً فسيعطونه لك.

نظر إسماعيل إلى الرجل بكراهية، عندما بدأ هذا الرجل ينقب أسنانه بدبوس "لكن أين وجده؟".

فتح الباب، الوكيل ذو النظارات ومعه شرطي، رميا لإسماعيل الثياب.

– ألم يجلب لي أحد طعاماً؟

– جلبته لك زوجتك، لكننا أرجعناه.

– ولماذا؟

– يجب أن تبقى عدة أيام دون أن تأكل.

أغلقا الباب وخرجا، لبس إسماعيل ثيابه بألم شديد، ولما دفئ بعد اللبس بدأ يرتجف، كان يرتجف كأن تياراً كهربائياً يصعقه.

قضى الليل جالساً على الحذاء، وقد أخرج يديه من أكمام " الجاكيت" ولم يُعد له المعطف، استيقظ فجأة من جراء العطش غير المحتمل.

الرجل ذو اللحية الكثة كان يشخر، زحف إسماعيل على الإسمنت حتى وصل إلى الصندوق فشرب جرعة ماء من الوعاء، ثم جرعة، حتى فرغ إبريق الماء.

في الصباح التالي أيقظته ضجة الرجل ذو اللحية:

– لقد شربت مائي.

– عطشت كثيراً.

أنت ممنوع عليك الأكل والشرب، سأشكوك.

وبعد قليل فتح الباب، كان الابن يحمل لوالده الخبز والزيتون.

– لقد شرب هذا الرجل إبريق الماء يا إبراهيم.

– ليشربه فسأجلب لك ماء طازجاً يا أبي.

– لكنهم قالوا إنه ممنوع عليه الأكل والشرب.

– لن يحدث شيء بسبب شربة ماء.

–أنت أدرى لكنك ستجلب التعب إلى عقر الدار، كما حدث لي من نصيب، فأنا ضحية القسمة والنصيب.

ولم يجب ابن ذي اللحية، أخذ الشاب أشقر الشعر، ذو البزة الرسمية والقبعة النظيفة جداً، الإبريق وعاد بالماء مسرعاً.

ولما صار الوقت ظهراً جلب الابن لذي اللحية طعاماً من الفطيرة والكفتة، وبعد ذلك بقليل فتح الباب: الوكيل ذو النظارات، أخذ يحدق بالرجل الجالس فوق الصندوق بدون أن ينظر إلى إسماعيل:

– احذر من أن تعطي هذا الرجل شيئاً ليأكل، أيها الشيخ، وإلا فسينتظرك الصوم.

– لا ، أنا لن أعطيه شيئاً.

لقد كانت حبسة إسماعيل غنية، ويعرف كيف يمكن للإنسان أن يقضي الشهر بين أربعة جدران، لكن مع ذي اللحية فالأمر غير ممكن، إذ إنه صنم وليس رجلاً، وبدأ يدرس هذا الرجل، فهو دوماً يجلس على الصندوق، فمتى ينهض ويتمشى؟ أظافره طويلة ورهيبة، أصابعه صفراء " كالورس"، أنفه أفطس،" سوف أعد للألف وبعدها يجب أن يقف " عد للألف، وقلب على الجهة الأخرى:" سأعد ثلاثة آلاف، وربما سيفتح عينيه" إلى الألفين ومئتين وأربعة وستين، لكن أغمض الرجل عينيه، " كم شمعة قوة هذا المصباح؟ ليست أكثر من خمس وعشرين، كالمصباح الذي في مرحاضنا، وهل هذا الذي على السقف عنكبوت؟ ومن أين يأتي العنكبوت؟ سأعد حتى العشرة آلاف فسيفتح الرجل عينيه " عد، لكن الرجل لم يفتح عينيه." كم هي طويلة أمينة، ألديها متر؟ كلا، ويجب أن أقيسها، وهل أعادوا الطعام الذي جلبته ناريمان؟ لقد أخذوه، ولم يعطوه لي، ربما أخذوه ورموه في الزبالة، إنهم سفلة بسفلة، ولكي لا يشعر الإنسان بالبرد، يجب ألا يفكر فيه".

فتح الباب، جلب الشرطي وجبة العشاء لوالده، حلفا وخبزاً، وظل الرجل يأكل حتى أكمل عليها كلها، وقد علق شيء من الحلفا على لحيته السوداء، خبط على الباب، فتحوا له:

- أريد أن أذهب بحجة نفسي.

- وأنا كذلك- قال إسماعيل.

أخذوا الرجل أولاً ثم أعادوه، ثم أمروا إسماعيل:

- خذ السطل.

ولكي يأخذ السطل لا بد لإسماعيل من أن يقف في مكانه، لكن لا يستطيع بعد أن يقف بطوله، فشده الشرطي من يده، في المرحاض وضع إسماعيل شفتيه على نوفة المياه وشرب من الماء حتى ارتوى، ولما عاد كان ذو اللحية يتمشى ويقرفص ثم ينهض، فوق تحت، في الزنزانة.

وقد عد له إسماعيل الخطوات، خمسماية واثنتان وخمسون، ثم جلس الرجل على الصندوق، وضع رأسه على المعطف ونام، كان إسماعيل يعلم أنه في مثل هذه اللحظات، ليس من الضروري التفكير بمن تحب، ليس من الضروري أن تفكر بالعالم الخارجي، بل يجب التفكير بالناس اللئيمين، بأولئك الذين يقهرونك. " فالليلة سوف يستدعونني إلى التحقيق ثانية، وهل سيجلدونني أم لا؟". وقد انتظر ذلك بقلب يرتجف خوفاً من فتح الباب، ولكنهم لم يفتحوا الباب.

أخذ الجوع يقرصه " لقد كانت شهيتي جيدة على الدوام، يا عزيزي".

في اليوم الثاني، صباحاً وظهراً وفي المساء جلبوا المأكل والمشرب للرجل الذي على الصندوق، وعندما كان مشغولاً بالأكل، وقف إسماعيل كي لا ينظر إليه.

لقد خف الوجع- من جراء الإسمنت، ربما لأنه دافئ، أو لأنه تعود على البرد، رسم الخط الثالث، في اليوم التالي، وبينما كان الرجل يأكل الفطير مع الكفتة- وكان للكفتة رائحة كريهة كالماجوس، وكذلك الفطير الساخنة- قال الرجل:

- إنها جيدة المذاق، إن ابني يجلبها لي خصوصاً من " بابيالي".

بالكاد صبّر إسماعيل نفسه من أن يسب أمه.

لم يطلبوه إلى الاستجواب، لا في هذه الليلة ولا التي بعدها.

ورسم إسماعيل الخط الخامس.

الرجل، مقابل إسماعيل، لا يزال يعلك بالكفتة، والفطير، والزيتون، ثم نقب أسنانه، ثم تلمظ، وانبسط، ثم أطلق صوته " أوه، شكراً للعزيز" ثم عاد يأكل.

رسم إسماعيل الخط السادس، انبطح على ظهره على الأرض الإسمنتية، تذكر كيف قص الآدميون بابا، تحت سور جينوفليان، العشب الأخضر الندي ليأكلوه، وألقى نظرة على الرجل الذي يلتهم الكباب، وهل يقفز على هذا الدنس ويختطف منه اللحم؟.. أحس بوجع وغثيان في المعدة كأن سكاكين تقطع فيها: "لقد تعودت على الجوع، وعندما يتعود الحمار على الجوع يحاول أن يلبط" حاول أن يتذكر حكايا الشيخ ناصر الدين، ولم تخطر ولا واحدة منها في باله، فرسم الخط السابع، خلال هذه الأيام السبعة، وعبر كل ما سمع، ورأى وتذكر، والروائح التي زكمت أنفه، وعبر الفِكَر الأخرى، استنتج أسئلة تصورية.

" من الذي أبلغ أن ضياء قد أعطاني آلة كاتبة وورقاً؟ ومن الذي أبلغ أنني أعطيتها فيما بعد لكريم؟ ومتى سيقودونني مرة أخرى إلى القلعة؟" ولم يفتح الباب هذا المساء أيضاً. وفي اليوم التالي وعندما كان أبو اللحية يلتهم الكفتة من "بابيالي" صب إسماعيل السطل على رأسه بما فيه من بول، فجن الرجل وهرع إلى الباب وأخذ يخبط على الباب ويطلب النجدة، فجاء البوليس وقيدوا أيدي إسماعيل بالسلاسل إلى ظهره، وقادوه إلى الطابق الرابع، إلى غرفة مليئة بالحفر والتصليحات ودون أن يسألوه عن شيء انهالوا عليه ضرباً حتى الإغماء، بعدها، قادوه إلى " قاووش" للسجناء السياسيين وأغلقوا عليه لوحده، وعندما عبر من الممر، رأى إسماعيل أناساً جدداً يجلسون فيه، كانوا في غالبيتهم جدداً، وعلى أحد الكراسي كان يجلس طبيب الأسنان آغوب.

كان رأسه الأشيب يلمع تحت ضوء المصباح.

في أزمير – الخط الخامس والعشرون

بينما دخل إسماعيل إلى الملجأ، كان أحمد يرسم الخط الخامس والعشرين على الباب، لكن عندما أحس بأن الباب يفتح، أزاح.

– مرحباً، تقف على رجليك، الحمد لله، هل لديك قشعريرة بعد؟

– كأنني أتحسن.

– لقد أحضرت لك ميزان حرارة، كيف لم يخطر هذا على بالي حتى الآن، يا عزيزي؟

– قس حرارتك لنرَ.

قاس أحمد درجة حرارته، كانت ٣٨,٥.

– جيد، جيد، إنها تهبط، فقد بردت، لهذا هبطت، ولم يثق إسماعيل ولا أحمد أن ذلك هو السبب، لكن أحمد أدرك بأن ذلك ممكن.

– يبدو أنني مصاب " بالكريب" (النــزلة الوافدة) فهناك موجة عامة.

– كيف لا.

" كذب".

– نصف عمالنا في المعمل مصاب " بالكريب" إياه.

" وهذا كذب أيضاً".

– وكيف شهيتك؟

– عادية، يا عزيزي إسماعيل.

" كذبت".

– لم أجد لحم خروف، فجلبت فروجاً مشوياً.

– إنك طيب، شكراً لك.

أكل أحمد قليلاً، شعر بأن شيئاً متضخماً في حلقه.

– هل لديك آلام بعد في جسمك؟

– أجل قليلاً.

– أجل، إن هذه نـــزلة ولا تمر بسرعة هكذا.

–" كريب".

– كما قلت لك، إن نصف العمال في المعمل..

– هذه الليلة لن أتوجع، أليس كذلك؟

– ولا في الزمن الآتي.

– إذن أتحسن.

– بالطبع.

– قلت للرفاق إنني ذهبت إلى إستانبول، أليس كذلك يا إسماعيل؟

– نعم ولطالما أنهم قرروا..فهذا غير لازم، لكن أنت عنيد يا عزيزي.

– حسناً.. من الأفضل أن يظنوا بأنني في إستانبول، لأن ما يحدث..

– لن يحدث شيء، وكل شيء سيمر، فهيا إلى السرير.

أخذ إسماعيل يصفر بعد العشاء.

– لقد سكنّا قرب الكتيبة، وأعرف أن أصفر، وليس وقت العشاء فقط، بل وفي وقت الاستعداد.

– لقد خطر ببالي شيء.. إذا ذهبت يوماً ما إلى موسكو، ففتش عن آنوشكا، يا إسماعيل.

– وربما ذهبت أنت قبلي.. ففتش عنها لوحدك.

" ستنقلني حبة الدواء العشرون إلى مكان آخر".

" ظننت أنني بقيت وحدياً في الغرفة، هكذا وحيداً".

– متى تذهب إلى موسكو، خلال خمس سنوات، أو عشر سنوات، فستجد آنوشكا متزوجة، لمهندس في مصنع لا أعرفه، وربما كان مهندساً رئيســاً فيــه، وأتصورها الآن كيف ستغدو بعد عشر أو خمس عشرة سنة.. ستشبه خالتــها، ويصبح شعرها أشيب، وسمينة، وتصنع مربى الفريز، وستزداد ســاقاها ثخانـــة، سأعطيك عنوان مصيف خالتها، فهو موجود في مكان ما.

– حسناً، حسناً، نم الآن، فقد صفرنا معزوفة المساء.... نمنا، والمحرك يهدر.

في مصيف آنوشكا – الخط العاشر

نجلس على الشرفة الزجاجية مارية وأندريه وأنا، نتناول الفطور: مربى الفريز، حليباً جلبه بيتشا، والخبز المقمر، آنوشكا لم تخرج من غرفتنا بعد، طرحت مارية أندريه سؤالاً لم نتوقعه، بصوت هامس كي لا تسمع آنوشكا.

– هل تريدون أن تتزوجوا من آنوشكا؟ أريد أن أقول، تريدون أن تسجلوا زواجكم في المحكمة؟

ماذا يمكن أن أقول لها؟

– بالطبع، أجبت.

– حسناً، حسناً، إذاً تستطيع أن تذهب معكم إلى تركيا.. فأنتم تريدون الذهاب إلى وطنكم عاجلاً أو آجلاً.

– طبعاً.

– وإذا لا تستطيعون الذهاب معاً، فهي ستلحق بكم.. ومن الأفضل أن تعلنوا الزواج طبقاً للقوانين السوفييتية، أليس كذلك؟

– بالطبع.

أتت آنوشكا، جلست، فبدّلت مارية وأندريه الحديث:

– سأذهب إلى الحديقة، سأحاول أن أجلب الفريز لصناعة المربى.

كان عند مارية وأندريه من شجر الفريز ما مساحته عشرون متراً مربعاً، أو هكذا، وقد أثمرت كثيراً هذا العام، مر في الجهة المقابلة أسرة النيبان، عندما كنت أنا وآنوشكا نتمشى في شوارع موسكو، كنا نلاحظ كم فتح النيبان وأغلقوا الحوانيت– وأكثر النيبان كان يفتح المكاتب الشعبية بدلاً من الحكومية.

– اذهب، قالت مارية، أندرييف، من أجل الفريز.

قطعت آنوشكا قطعة الخبز المقمر المدهونة بالمربى بأسنانها، وطرحت سؤالاً، لكي أقول إنني تكلمت:

– هل تعرفين الرماية؟

– أعرف.

لقد تفاجأت.

– أنا لا أعرف.

– وإذاً؟

– ألا يدهشك أنني لا أعرف؟

– " د...،....أ" ..ب..ل..س..

– أين وكيف تعلمت أن ترمي؟ ومتى؟

– عندما قتلوا والدي أمام ناظري، قررت أن أتعلم الرماية.

– "إي– ي– ش". إيه...

– وعندما توفيت والدتي بالتيفوس في سيبيريا... انخرطت في فصائل المقاومة.

– لم تحدثيني حول هذا أبداً.

– لا حاجة هنا للحديث. وقد جهدت أن أبقى في خدمتهم مدة ستة– سبعة أشهر.

– كيف؟. تحدثي. يا ذهبية..

– في مرة ثانية... أما الآن فنحن في الجزيرة، للسباحة، والشد لأمام...

نهضت. وقع نظري على "البرافدا". أمسكتها. العدد المسائي تاريخ /١٢/ حزيران /١٩٢٤/. في الصين يو– بي– فو، أمر بإعدام كل قادة العمال. وأعدموا الأمين العام لرابطة عمال السكك.

– ماذا هنا؟

– في الصين إرهاب.

اختطفت آنوشكا الجريدة من يدي.

– أين هذا مكتوب؟

- هذا هو...

قرأت ذلك. ولم تقل شيئاً. ووضعت الجريدة على الطاولة.

- هيا بنا.

توجهنا إلى الجزيرة. غيوم من البرغش. كنت أقتلهم على صدري. أما آنوشكا فلم تفعل.

- ألم يأكلك البرغش؟

- يبدو أن لحمي ليس حلوا مثل لحمك.

كنت أفكر باستمرار في ما قالته لي مارية. لا يمكنني أن أذهب وآنوشكا إلى تركيا. لكن في المستقبل يمكن أن تأتي؟ وهذا أيضاً غير ممكن تماماً.

سرنا الواحد خلف الآخر. وبالأحرى كنا ثلاثة أنا وآنوشكا والفراق.

- "اصغِ لحنين هذا الناي من القاع الحزين".

- بسبب هذا الفراق الأليم.

- ما هذا الذي تثرثره يا أحمد؟

- أحد تراتيل المولوي. كان شاعراً كبيراً، وفلكياً، لكنه كبير.

ترجمتها إلى الروسية لآنوشكا. وشرحت لها معنى الكلمة الفلكية، أما كلمة العذاب- فآتية من كلمة /العذب/، فالنسيم عذب وهذه شمولته.

ولذا، فإنه عندما يهب من القاع يعطي فألاً للفراق. وكذلك، فإن الإنسان هو جزء الشمولية، أي الله، وجاءت هنا مفصولة عنه. والإنسان هو شاعر، يتعذب من أجل الفراق.

- أنشد لي هذا بالتركية.

- هذا الترتيل مغنى بالفارسية. ومترجم بالتركية. وسأنشده لك باللغتين وأنشدته لها..

- وفي اللغتين يقال غناء موسيقي؟ عندما كنت تتحدث مع كروم كنت أسمع هذا الجرس الموسيقي فأعجب به.

– ولماذا تسمينه كروم و (كريموشكا). أما أنا فلم تناديني ولا مرة أحمدوشكا؟

– فعلاً، مدهش، لماذا؟ لكن أسميتك في ذهني أحمدوشكا. لكن لم أتمكن من قوله، ومن يعلم لماذا؟

سبحنا. ثم تمددنا على الضفة، عل ظهرينا. اكتوت أكتافنا. أمسكت يد آنوشكا.

– أتريدين أن تذهبي لتري وطني، إستانبول؟

وتكلمت وكأنها لا تتابع معي. وسحبت يدها من يدي.

– لماذا سحبت يدك؟

– لا أدري.. ربما لتجيب على سؤالي أفضل.

لم أدِر رأسي، وجدت يد آنوشكا فأمسكتها. وعادت تسأل نفس السؤال.

– لماذا لا تجيبني؟

– وماذا يوجد كي أجيبك على سؤالك؟ لقد حصل لي أن طيلة هذا اليوم لم أفكر ولو مرة واحدة بالغربة، لكن، وكأنني أشتم رائحتها. وإني أعيش أياماً مع هذه الرائحة. ورغبتي في أن أراها يوماً ما قوية وأحس بالألم، وإنني أتوقع أنني سوف أبكي يوماً.

– فهمت.

– لا تسحب يدك.

– كيف هي هذه الرائحة، وأي حب تحسين؟

– ليست رائحة البحر بالطبع، بل رائحة الوطن، لا، وليس ذلك حباً جغرافياً تجاهها، كلا. بل هناك فراق سيدمع عيني، لكنها رائحة الوطن، وحب الوطن، الذي يرتبط بالبشر. وعندما أقول الناس..

– للبرجوازيين طبعاً، لا؟

– فهم ليسوا بشراً بالنسبة لي، وليسوا أتراكاً، ولا روسيين ولا فرنسيين، إنهم ليسوا بشراً.

– وهم كذلك بالنسبة لي أيضاً.

اكتوت أكتافنا.

– وإذا ذهبت، إن كان بمستطاعك، فغداً، ومن يدري، أو بعد أسبوع أو شهر، هل ستعود إلى إستانبول؟

– ولماذا إلى إستانبول؟

– فإلى أين إذاً تريد؟

– أجل ربما، إلى إستانبول أولاً.

– وتريد أن ترجع؟ فوراً، اليوم، الآن؟ وهل تتمنى، لو أنك هناك الآن؟ ولماذا لا تترك يدي؟ لا تلمس يدي. أتريدها؟ يا أحمدوشكا... أحمدوشكا... أفهم.. أنت على حق... هيا نذهب، فقد أحسست بالبرد.

ارتدينا ثيابنا بدون أي كلام، وفكرت: هل الآن؟ هذه اللحظة؟ كلا أو نعم؟

اقترحت على آنوشكا، في الطريق، أن نمر لزيارة باغريتسكي فهو واحد من الشعراء الروس الذين أحببتهم كثيراً. إنه رائع، وبكلمة حقيقية إنه إنسان.

فوجدناه في مدخل الحديقة. ابتسم، حلقه بدون أسنان، ربما كان لديه أسنان، لكنه تراءى لي أنه لا يملك سناً واحداً وحيداً.

– أهلاً وسهلاً عثمان– باشا.

– ولست أدري لماذا دوماً تناديني بعثمان باشا، هل نسبته لغازي عثمان– باشا.

– كيف حالك أيتها الحلوة آنوشكا. تشبهين حقل السنابل الملفوح بالشمس.

إن أكثر شيء أحببته عند باغريتسكي هو رومانسيته الثورية وحساسيته التي عرفت أن تكتشف الجمال والعذوبة في الشجر، والعشب والنواعير، والربيع، وبرأيي إنه لا يستطيع أن يكون إلا شاعراً أو رساماً.

دخلنا. كان المصيف صغيراً، نصف معتم، ورطباً. كان السمك الياباني يرقص في المسمكة، والطيور تزقزق في القفص، وقد بدت الأسماك والطيور، في

العتمة وكأنها تطير في الفضاء بدون أقفاص. وعلى كل حال، إن الحرية عند باغريتسكي يد تحت يد. قدمت لنا زوجته شاياً. وهي أيضاً عجوز قصيرة.

قرأ باغريتسكي علينا قصائده الجديدة، بصوت دافئ، وكأنه يقرأها من بعيد. آه، كم أحب ذلك الرجل، كم أحبه، وأستطيع أن أجلس كل الأيام مع أسماكه وطيوره، وأشعاره، وقرب نظرات العينين الصديقة.. في هذه الشرفة المعتمة يستشعر المرء رائحة البحر الأسود وأمواجه المتلاطمة.

عدنا، لكني وضعت جزءاً من قلبي عند إدوار باغريتسكي.

عادت ماريا ، جامعةً الفريز للأكل لا للمربى.

ولما كان الليل. نمت جانب آنوشكا.. النوافذ مفتوحة. والستائر مدلاة بسبب البرغش. وحتى المصباح لم نستطع أن نشعله.

آنوشكا تعبة، تنام على ظهرها، تتنفس كالطفل. أمسكها بيدها. ولا أحرك رأسي ولا أنظر إلى جسدها المحروق من الشمس. في صدري شيء ثقيل، أسود. القلب يدق مجنوناً، وأشد على يد آنوشكا. ألقيت نظرة على الستائر الحريرية، التي تلمع تحت ضوء القمر. فقد أرّقني ذلك الألم في صدري. هل آنوشكا نامت فعلاً مع سي- يا- و؟ لا أدري. لن أعرف حقيقة ذلك قطعاً. ولا أستطيع أن أفكر بتلك الحركات الغرامية التي حصلت على ديوان ماروسيا- وأنا أعرف هذا الديوان في غرفة ماروسيا وربما أنا أتخيل ذلك. أحلله في مخيلتي. أفكر بوحدتهما. وأعتقد أن الرجل والمرأة هما قريبان فقط في مثل هذه اللحظات. سيقودني ذلك إلى الجنون. اقتراب آنوشكا من شخص آخر.. ستتزوج.. وربما ستسجل صك زواجها، بالضبط، عندما أرحل، وأصبح بعيداً عن هنا، فسأصبح بعداد الأموات بالنسبة لآنوشكا وليست المشكلة هنا. بل أعقد من ذلك. تركت يدها ونهضت. ارتديت ملابسي، وخرجت إلى الغابة تحت ضوء القمر.

في أزمير– نهاية الخط الخامس والعشرين

– يا إسماعيل..

لم ينهض إسماعيل.

وعاد أحمد يردد بصوت أعلى:

– يا إسماعيل.

– ماذا؟ ما الذي حصل؟ هل أنت صرخت؟

– لا شيء، لم يحدث لي شيء، عفواً...

– قل يا عزيزي، ماذا؟

– لقد نسيت أن تجلب لي حبوباً للنوم.

– لم أشترها. لا يعطونها بدون وصفة. وغداً سأحصل على وصفة من طبيب من معارفي. فاذهب ونم، هيا اعدُد للخمسمئة.

اعذرني...

– هيا– نم– نم.

– لقد فعلت غباء بإيقاظي يا إسماعيل. "لا تنسَ الحبوب للنوم" كان بوسعي أن أكتبها على ورقة وأضعها على ثيابه.

تقلبت على جانب ثم على الجانب الآخر. تمددت على ظهري. وأسبلت يدي بجانب جسدي، كما يفعل الميت في القبر. وهكذا سوف أسجى وتسبل يداي إلى جسدي، مثل كل الأموات. آه.. يا للشيطان.. وهل يوجد في موسكو تحنيط؟ أو ليس من الأفضل أن يحرق الإنسان؟ أقول هذا لمن يرغب بعد موتي بذلك، وإذا رغب أستطيع أن... حسناً لكن أنجلز رغب أن يحرق ويذر رماده في المحيط، وهذا ما فعلوه، إنه واحد من أعقل الناس في العالم. وأنا أصغر روائي... أنجلز... يجب أن أنام... ولا حل غيره... يجب النوم..

قبل أن يوقظني إسماعيل، أحسست بأنني أصرخ، وإنني أختنق. وسمعت صوتي المخيف. فظننت أنني أصرخ من جراء ذلك..

ولم أعرف أين أنا. اعتقدت بأنني في موسكو، بادئ الأمر، في غرفة آنوشكا، أو في الشقة في إستانبول، وأخيراً في الجورة التي وضعوا عليها الغطاء.

– انهض يا عزيزي..

وقد هزني إسماعيل، لمرة واحدة، بيده على كتفي. وأشعل القنديل. وباليد الأخرى، أمسك إسماعيل بيديه شيئاً رأيته في الزمن الماضي (...). وبعدها وضع يده على ظهره ولاذ عني.

– لا تخف يا إسماعيل.

اعتقدت بأنه ينظر إلي نظرة ارتباك.

– لا أخاف. وماذا أخاف؟ لملم نفسك، يا عزيزي. وهل تريد ماء؟

– لا أريد.

– وكيف حالك؟

– جيد. لا تطفئ القنديل.

رجع إسماعيل إلى الفراش.

– فكر في أن تنام.

– حسناً وأنت...

ولم نستطع نحن الاثنان أن نغفو حتى الصباح. لم نتحدث وكأن الواحد منا يراقب الآخر، كالصياد والوحش.

خطوط في إدارة بوليس إستانبول

كان المهجع الذي وضعوا إسماعيل فيه مظلماً نوعاً. "إن هؤلاء السفلة يحبون الظلام".. وفي السجن العسكري كانوا قد وضعوه في ظلام حالك. كان لا يرى النور إلا عندما كان يمر في المعبر، في طريقه إلى المرحاض. وعندها يعرف الليل من النهار... رسم بظفره على جدار السجن عدة خطوط لكنها لم تأخذ أرقاماً، كما هي العادة.. لأنه لم يكن يرى...

لم يطلبوه إلى التحقيق، رغم أنه كان يتوقع التحقيق وعذابه كل ساعة.. وعذاب التحقيق قد حرق أعصابه "يعتقد هؤلاء السفلة أن ذلك سيضعف من عزيمتي فينهونني أو يجبرونني على إنهاء حياتي".. والآن بدؤوا يعطونه الطعام الذي تجلبه له ناريمان. لقد كان من العسير عليه أن يعرف، في البداية، طريق فمه، من شدة الظلمة في زنزانته.. لكنه تعود على ذلك. لقد كان إسماعيل قانعاً بأنه سيمكث في هذه الزنزانة تسعة أشهر بدون استجواب. وقد حدث ذلك مع ضياء الذي قال بأنهم وضعوه /عام ١٩٢٨/ سنة كاملة في الزنزانة، مع التعذيب المستمر، دون أن يستجوبوه. وهكذا لم يكفوا عن تعذيب إسماعيل. وقد حدّث ضياء مرة فقال بأنهم عرّوه من كل شيء حتى من الكلسون، إذ ربطوا به يديه إلى ظهره، وأطفؤوا السجائر في صدره، كما لطعوه بها في بطنه وساقيه التي ظهرت فيها الحروق والبقع السوداء المقيحة، وهي باقية حتى الآن في جسده، وكأنها الشامات. كما قلعوا له إظفرين، واحداً من إصبعه الصغرى في اليد اليمنى، وواحداً من إصبعه الكبرى في اليد اليسرى.

وكلما عبر في الممر كان يرى سجناء جدداً واقفين على أقدامهم المتخثنة ومنهم من يجلس على المقعد. عدا طبيب الأسنان "آغوب"، الذي كان يجلس على كرسي وقد بدت معالم وجهه وكأنه يدخن الحشيش. ومرة حينما مر إسماعيل بقربه، وقعت به الكرسي فتحطمت، ثم أجلسوه على المقعد. وقالوا له

وهم يرفعونه عن الأرض: "يا سيد "آغوب"، ابق هنا على الكرسي "يقولـون ذلك وهم يبتسمون.. وفهم إسماعيل أنهم عذبوا "آغوب" حتى لم يعد يسـتطيع النوم. وهناك من لم يسمح له بالنوم فظل واقفاً على قدميه أياماً دون أن يتركوه لحظة يغفو. فكان كلما أغمض أحد السجناء عينيه أيقظه الخفير فوراً. وإذا انهار أحدهم أو غامر وسقط على الأرض كان يوقظه الخفير الحقير ويصحح له وضعية الوقوف.. لكن آغوب كان مسناً فأقعده على الكرسي.. ورأى إسماعيل، مـرة أخرى، آغوب عندما أغمي عليه فأجلسوه.. وقد استمرت هذه الحالة سـبعة وعشرين يوماً، كلا، خمسة وعشرين، بل سبعة وعشرين. ولم يزل آغوب علـى المقعد، وغالباً ما كان يسقط على الأرض، فيجلسونه. وقبل أن يصل إلى الأرض يرتطم رأسه بالجدار ويسيل دمه، من خلال شعره الأشيب.. أما عيناه ووجهـه فقد بدت ملبخة بالرضوض.

في الطابق الرابع، من إدارة البوليس، وقدام الباب ذي الهلالـين، كانـت الأمهات والزوجات والأخوات معتقلات أيضاً.

بعد شهرين من اعتقال إسماعيل، مرضت ناريمان. وبقي عثمان يجلب الطعام لإسماعيل مدة أسبوع. "أنا رجل غير مرتبط ولا يهمني شيء. لكن هذه المـرة، وإذا خرج إسماعيل، يجب أن يكون متفهماً أكثر ولا أقول بـأن يتخلـى عـن أفكاره، لكن سيصبح أباً عما قريب. خاصة وأنه اعتبر أمينة ابنه له. لا أقول أن يتخلى لكن لماذا يظل كل عمره مطارداً؟".

عند الباب ذي الهلالين، تعرفت ناريمان إلى أخت كريم الكبرى. فقد سجنوا كريم قبل خمسة وعشرين يوماً. أي بعد شهرين من اعتقال إسماعيل. إن أخـت كريم الكبرى امرأة مسنة، وذات وجه ضحوك. صعدت على الدرج وكأنها ابنة أربعة عشر.

قالت لها ناريمان:

– التقيت كريماً قبل شهر في الباص، ووقف قريباً مني، ففرحت جداً ولمـا أردت أن أتقدم إليه، توقف الباص، ولم أتمكن بعد من أن أناديـه حـتى قفـز

ونـــزل. ونـــزلت وراءه، لكنه عدا مسرعاً ولم يلتفت.. ركضت خلفه. دخل في شارع ضيق وبدأ يركض مسرعاً عندها فهمت أنه لا يريد أن يراني.

وظهرت أخت كريم تحمل في يديها ماعون الطعام وباقة ورد جلبتـــها مـــن "ساريير". وأهدت ناريمان وردة منها:

– هذه الوردة زرعها الغالي كريم في مزهرية، زرعها بيديه– قالت الأخت. ثم فسرت لها ذلك.

– هل تعلمين، يا عزيزتي– إنهم يلاحقوننا بمجرد أن نخرج من هنا. ليروا أين نذهب، ومع من نتحدث. لذلك فقد هرب كريم منك، فهناك شخص قمـــيء يتبعني على الخطى. فبالأمس جلبت الطعام إلى هنا، وخرجت مبكرة فتبعني هذا القميء. فدخلت إلى الحمام استحممت حتى المساء وخرجت، كان الثلج يهطل، وكان هذا الحيوان يرتجف. ومن ثم هل يوصلون لهم كل ما نجلبه إليهم؟ أم إنهم يأكلونه لوحدهم؟

وهنا أخذت امرأة تصرخ:

– أنتم ملزمون بأن تعطوا زوجي الطعام وهو ساخن فهو مصاب بالســـل. وأخيراً فتح الباب ذو الهلالين، بعد ساعتين، وأخذ البوليس الطعام من المرأة.

– لا تشاكسي، رجاءً...

– لماذا لا أشاكس؟ وبأي حق تؤخروننا هنا ساعات طوالاً؟. كانت هـــذه المرأة التي صرخت شابة وجمالها غير عادي. وأبوها سفير وزوجها شيوعي، شاب وسيم أسمر. لم يستطع مرتين في قسم البوليس أن يتحمل الضرب.

– إن هذه "المجلا" تدهشني– قالت أخت كريم– لشجاعتها ووعيها، وكم هي تحب هذا الرجل؟ ولذلك فقد لفظتها عائلتها. وقد طردها أبوها أو أي شيء من هذا. ورغم كل هذا فإن البوليس يخاف أباها، فهذا هو الحب، وكمـــا يقـــال يتواجد الحب بين الدناسة والنظافة. أنا لا أقول ذلك لأن عائلتها الغنيـــة قـــد طردتها، وإنها تزوجت شيوعي، فكان من المفروض أن تتزوج واحداً مثل أخـــي كريم...

وابتسمت، فبانت أسنانها اللؤلؤية الناصعة– فماذا تريدين، فالشاب المتمرد أحلى من "فينوس".

سلمت النساء الأطعمة، وخرجن ينتظرن أن تعاد لهن المواعين، وبعد ساعتين، فتح الباب ذو الهلالين وخرج بوليسيان يلبسان اللباس المدني وأربعة مساجين، كان المساجين يحملون قففاً للفحم، سيحملون الفحم من المستودع الأرضي إلى مدفأة القسم السياسي، ولم يكن هناك واحد منهم ممن يمت بصلة لتلك النساء الواقفات خلف الباب، وعلى كل حال ابتسم الواحد منهم للآخرين برضى. أخرجت نجلاء جريدة بالفرنسية، فتحتها وتظاهرت بقراءتها، وقرأ أحد المساجين الذي كان يعرف الفرنسية، قرأ عنواناً في جريدة " الإنسانية": في تركيا يعتقل الشيوعيون.. يا ديموقراطيي كل العالم..." لم يستطع أن يقرأ أكثر من ذلك، فقد دفعه الشرطي:

– هيا، هيا.

وأخذت نجلاء تصيح:

– وأمام أعيننا تعذبوهم؟

نظر الشرطي إليها بشزر، هز رأسه وانصرف، نزل المساجين ومعهم السطول، عن الدرج.

قالت أخت كريم لناريمان:

– أرجو أن لا يعذبوا كريماً، فلكم تضرعت لهم كي أراه مرة، فلم يسمحوا لي.

– وأنا لم أر إسماعيل منذ أن سجنوه..

كريم الآن في " صندوق الموتى" المؤلف من ثلاثة جدران " صندوق الموتى" هذا، هو من الإسمنت، إنه من الإسمنت، وبابه من الخشب، وبالكاد يستطيع رجل واحد أن يقف فيه بطوله، إلا إذا ثنى ركبتيه وأسند ظهره للجدار، ووضع ركبتيه على الباب.

منذ عشرين يوماً وكريم يعيش في " صندوق الموتى" في خمسة الأيام الأولى لم يعطوه أي طعام، وبعدها صاروا يعطونه القليل من الطعام، لمرة واحدة في اليوم، وكذلك يخرجونه مرة في اليوم إلى المرحاض، وكل ذلك في " صندوق الموتى"- زنـــزانته- وهو واقف على قدميه، فتارة يبهره النور وتـــارة يخنقـــه الظـــلام الحالك.. وفي الليلة الأولى، عندما اعتقلوه، في ساعة متأخرة من الليل بينما كان نائماً بعد يوم تعب مضن، ظلوا يضربونه حتى الصباح، ثم ألقوه في " صـــندوق الموتى" يشع فوق رأسه مصباح كهربائي، ومن يعلم كم شمعة قوته، إنه يشـــع كالمجنون، تارة يشعلونه، وأخرى يطفئونه، أو: تارة ظلام حالك، وتـــارة نـــور ساطع.

صار لكريم عشرون يوماً في " صندوق الموتى" فعندما يخرج للمرحـــاض، لا يستطيع بعدها أن يخطو، فيقوده البوليس من يده.

مضى على كريم عشرون يوماً هناك، ولم يعد يفكر في شيء آخر بعد، لقـــد فقد القدرة على التفكير، ولا يحس حتى بالأوجاع فهو يحس شيئاً آخـــر غـــير الأوجاع، تارة ظلام حالك، وتارة نور ساطع، ففي البداية كان يغلق عينيه بعنف كي يتخلص من العتمة والنور، أما الآن، فمرة يغلقهما، ومرة يفتحهما، مـــرة يفتحهما ومرة يغلقهما..

وفي اليوم السادس والعشرين أحضروا إسماعيل إلى مكتب المدير، وكان كريم هناك، كان على طاولة المدير كأس من الماء فيه ثلاث وردات.

استدار مدير القسم نحو إسماعيل، وأشار إلى كريم:

- هل تعرف هذا؟

نظر إسماعيل إلى كريم، الذي كان يفتح عينيه مرة، ومرة يغمضهما، كانـــت عيناه، بل كل وجهه يهتز، فأخذت إسماعيل الدهشة، وفجأة تذكر:" صـــندوق الموتى".

- لا أعرفه.

- لكن هو يعرفك.

- هذا كذب.

فسأل المدير كريماً:

- هذا الذي أعطاك الورق والآلة الكاتبة أليس كذلك؟ صمت كريم. كان كريم في غيبوبة، كان في عالم آخر، عالم يضيء تارة، وينطفئ تارة أخرى، وعيناه ووجهه يهتزان، ومكسوحتان، أمسكه شرطيان تحت إبطه.

عرف إسماعيل أنهم وضعوا كريماً في " صندوق الموتى" لأنه لم يعترف بشيء تحت التعذيب.

صاح المدير بكريم:

- أجب ولك[1] أنا أعرف انك أخذتها من هذا، لكن لمن أعطيتـــها؟ حـــدق إسماعيل في عيني كريم، فأحس إسماعيل بآلام فظيعة" سيجن هذا الشاب".

- اضربوهما.

جلدوا إسماعيل مرة ثانية، فسقط كريم فوراً، وضعت قدما الاثنين في الفلق، ثم انهالوا عليهما ضرباً.

- قودوهما.

وضعوا الاثنين في المكان القديم، وجن كريم خلال عشرة أيام، وفي أواخـــر الليل قادوه إلى العصفورية...

---

[1] - هذا التعبير ولك هو تركي الأصل ويعني يا مملوك.

في أزمير – الخط الثامن والعشرون

بينما أخرج إسماعيل قداحته ليشعل سيجارة أغمض أحمد، الجالس قبالتـــه، وكأن إبراً ستشك في عينيه ... عبرت في خاطره الفكرة التي كانت تمتلك ذهن إسماعيل، لكنه لم يقل شيئاً.

– ليس ذلك من القداحة، وليس من الشرر– قال أحمد– بل خفت أن تحرق لي شاربي– وعلى الفور فكرت بهذه العملية الجنونية / حرق الشوارب وصمت.

ناما، انتظر أحمد حتى أخذ إسماعيل بالشخير، فوقف، تلمس بيديه الطاولة في الظلمة وأخذ القداحة، مررها أمام عينيه، انتظر، وانتظر أيضـــاً، وفي النهايـــة أشعلها، وكأن الشعلة قد أعمت عينيه. أغمض عينيه. ثم فتحهما. ثم أغمضهما. ثم فتحهما. نظر إلى الشعلة ((هل تخاف حقاً)) ونظـــر أيضـــاً إلى الشـــعلة ((لا أخاف، لا أخاف، لا أخاف)).

ثم أطفأ القداحة. واستلقى على الفراش. والقداحة في يده أشعلها. ثم أغمض عينيه بهلع ((أخاف)). أطفأ القداحة. ((آه، لقد بدأ الهلع، بدأ الهلع تجاه النـــار. ومن ظلام المساء. لا أخاف، وأي خوف هذا؟ يجب أن أنظر في الكتاب)). فهذه الصفحات قد فتحت وكأنها فتحت لوحدها. أشعل القداحة. لم ينظر في الشعلة بل أخذ يتصفح صفحات الكتاب التي يراها بصعوبة ليقرأ. ((آه، يا للشيطان لا يكتب فيه عن أي خوف يبدأ قبل الآخر)). أعاد الكتاب إلى مكانـــه. وأطفـــأ القداحة. واستلقى مرة ثانية. "ليس الوقت لأخذ "التحميلة". فأستطيع الانتظار يومين ثلاثة". يومان– ثلاثة.. يعني بقي لي يومان– ثلاثة بعد. وخـــلال يـــومين سيقولون كان هناك واحد اسمه أحمد. لقد وصل الألم إلى حلقي الذي لا أحس به هذه الأيام الباقية في حياتي..".

في مصيف آنوشكا- الخط الرابع عشر

رسمت الخط الرابع عشر، وآنوشكا قربي، وأنا أفكر، بقي لي هنا ستة أيام، ثم موسكو، وهناك أسبوع أو عشرة أيام، وثم مباشرة إلى إستانبول.

نظرت إلى آنوشكا.

- هات يدك يا آنوشكا.

مسكت يدها السمينة البيضاء، الفراق هو.. آه.. عندما تتلامس أيـــدينا.. لكن آنوشكا لا تعلم هذا.

- سنتأخر يا أحمد. وفي العودة من المحطة يجب أن نعرج على "بيتشا"، ربمـــا هو مريض؟ إذ إنه لم يجلب الحليب منذ يومين.

- حسناً.

في المحطة كان النيبمانيون يتمشون تحت السقوف الخشبية. وكان مصـــطافو الجامعة الشرقية في غابتنا وكان الإيرانيون أيضاً يتمشون هنا فوق- تحت. كما كانت تفعل بنت القس. فكانت تحب الإيراني حسين زادة. كانا يتمشيان الواحد بجانب الآخر. ومن جماعتنا الأتراك لا يوجد أحد. ويوجد بعض الفلاحين يحملون حقائبهم وأكياسهم. وبعض الأطفال المشردين لا بيوت ولا أكواخ.

نـــزلت ماروسيا وكريم من القطار. فتعانقنا، كانت ماروسيا تلبس ســـترة جلدية، وعلى رأسها محرمة حمراء.

- يا ماروسيا- قلت لها- بعد عشر سنوات، بعد مئة سنة، أو خلال ألـــف سنة سيلبس شباب الكومسومول في الأفلام والمسرح، مثلك.

لماروسيا شعر خرنوبي سميك وعينان عسليتان.

- كان الصباح غائماً، ولذلك لبست السترة.

- سوف تعرقين. انـــزعيه.

نـــزعت الجاكيت ووضعته على يدها. والبلور يضرب في صدرها.

– أي أنت: – ناداني كريم باللغة التركية– أنت عاشق مجنون وتغازل نساء الآخرين.

في الطريق حدثتنا ماروسيا عن الوضع في المعمل الذي تعمل فيـــه، ونحـــن حدثناها عن المشردين الذين رأيناهم في المحطة. لقد تصورتهم كأطفال فلاحينـــا أيام الصيف. وقد ذكرت ماروسيا لنا حديثاً لكروبسكايا حول هذه المشـــكلة، تحدثته، قبل كم سنة أو في أي مكان، لا أعرف.

– نحن في المعمل لحسب حسابنا بالنسبة لهذه المشكلة.

وصلنا إلى قرية بيتشا. لم نعرف بيته. ولم يكن هناك أحد أمام البيوت المبنيـــة صفوفاً على جانبي الطريق الترابي، وليس في الجنائن، تلفت، رأيت رجلاً كـــث اللحية يلبس جزمة، قدام بيته، ذي الشرفة الصغيرة والنوافذ المطلة.

– انتظروا، سأذهب لأسأل.

وصلت للرجل:

– مرحباً يا رفيق، أردت أن أسأل أين بيت بيتشـــا. بيتشـــا ابـــن داريـــا ميخايلوف. فوالد بيتشا استشهد في الحرب الأهلية في صفوف الجيش الأحمـــر. وبيتشا يجلب لنا الحليب.

نظر إلي الرجل طويلاً، قبل أن يجيبني:

– هل أنت تتري؟

– أنا تركي، من تركيا، من إستانبول.

حك الرجل لحيته. ورمقني بنظرة دقيقة:

– تقول إنك تركي. تركي. وماذا تعمل هنا؟

– أدرس في الجامعة.

– مع هؤلاء الصينيين من المصيف، كما تقول.

– نعم، هكذا.

– تسكن معهم في المصيف؟

- كلا. عند أحد المعارف.

في هذه اللحظة انضمت إلينا ماروسيا. ولا يزال الرجل ينظر إلي نظرة غير ودية.

- وتقول إن بيتشا يحمل لك الحليب كل صباح؟ تابع الرجل.

- أجل، وماذا في الأمر؟

- كيف ماذا في الأمر؟ تأكلون الخبز الروسي، وتشربون الحليب الروسي؟ فماذا هنا أنتم تعلمون؟ تعلنون الثورة العالمية، وتنتزعون خبزنا، تأكلون الخبز الروسي وتشربون الحليب الروسي.

فشتمته ماروسيا:

- حقير، أنت خنـزير..

وابتدأت الشتائم بين ماروسيا والرجل.

- سنقتلعكم من الجذور، فأنتم طفيليون، كولاك.

شتم الرجل. وردت ماروسيا إليه الشتيمة بنفس العيار. وصلت آنوشكا وكريم. أما الفلاحون والفلاحات والأطفال، فقد تجمهروا وتحلقوا حولنا. منهم من وقف بجانب ماروسيا. ومنهم من انتصر لآغا الفلاحين وتقدمت فلاحة، أم بيتشا، كانت امرأة طيبة، تقدمت إلينا وقالت:

- بيتشا مريض- ثم التفتت للكولاك:

ألا تخجل يا إيفان بيتروفيتش. أنت تحسدنا لأننا نبيع الحليب. فنحن لدينا بقرة واحدة، أما أنت فعندك ثلاث. وليشبع كرشك ولا تشبع عينيك. - ثم التفتت إلينا:

- إن بيتشا مريض- وكررت- وأنا لم أستطع أن أحمل لكم الحليب.

وقالت آنوشكا:

نحن قلقنا فقط لبيتشا. وعليه سأجيء أنا لآخذ الحليب ما دام بيتشا مريضاً لا أعرف لماذا، لكن لم نذهب لرؤية بيتشا، أو بالضبط لأنه لم يعد ذلك ليخطر على بالنا بسبب تلك المشاجرة.

ذهبت ماريا ميخايلوف وجلبت لنا الحليب.

وبينما نحن عائدون إلى المصيف، كلمني كريم بالتركية مستغرباً:

– هل حكيت شيئاً للبنت؟

– كلا؟ وأنت؟ ثم لماذا تسأل؟

– ولا أنا.

وعند وصولنا للمصيف قلت:

– حسناً.

وفي المساء ذهبنا إلى مرتفع في الغابة أوقدنا النار هناك. ولا يمكن للإنسان أن يتصور هذا الجمال؛ عندما توقد النار في الغابات الروسية ويجلسون حولها، وليس هناك من تعبير، أو وصف لها– حتى في الرومانسية "وهل الرومانتيكية" في أن ترى وتلاحظ الشعلة المتقدة بأغصان الصنوبر؟ كيف؟ وهي لا توجد في الغابات فقط وليس في أرض دون أخرى؟ إن الرومانتيكية صحراء قاحلة..

أمسك يد آنوشكا. ماروسيا تضطجع على جذع كريم، ولهيب النار يلفح وجوهنا. وحولنا أشجار الصنوبر والسرو التي تختفي في العتمة المحيطة بنا.

وسألَتْ ماروسيا:

– هل هذا المساء، على الأقل هذا المساء... هل تحبني كثيراً؟ ولو أن كريم قال كعادته الجلفة "ليس كثيراً" لكنت رميت رأسه بأي شيء كان.

– كثيراً– قال كريم– أحبك كثيراً يا ماروسيا.

وأنهض الفتاة عن جسده وقبّلها على شفتيها.

"يا للشيطان" فكرت وأنا أحدق في آنوشكا.. خلال عشرين يوماً لن أرى هذه الجبهة، ولا هذا الشعر، أو هذه الشفاه، أو هذا الأنف وهذه العيون.. وسنموت الواحد تلو الآخر. لم أشعر من قبل بهذا التعلّق والقرب منها حتى في السرير، مثل الليلة. وبهذا الحنين الوجداني تجاه الكائن الآخر، وهذا الشعور المليء بالثقة، هذا الشعور المليء بالدموع، لن أحس به بعد الآن.

وإن هذه الأفكار التي تختلجني هي صحراء الرومانتيكية وأنا أعرف ذلــك، أعرف كم سنة وحياتي هي رومانتيكيا بحالها، وحياة كريم أيضاً رومانتيكيا، وعدد كبير من الناس الذين لا أعرفهم، لكن سأتعرف إليهم فيما بعد، مثل صــبحي، وبيتروسيان وصديق ماروسيا وآنوشكا، كلها رومانتيكا. وحياة الأنصار الحمر، الذين جندلوا من على أحصنتهم، إلى الدم أو العذاب، فأين سيتجه الحصـــان؟ على الأغلب باتجاه الموت. لكي يحيوا أفضل، أحلى وأعدل، وأكثر جوهريـــة، وأطول".

أخذ كريم يغني أغنية من أغانينا، كان صوته رناناً للغاية- "خذي سكيناً، يا عزيزتي الغالية، واحريني كي أموت..." وطيلة غنائه احمر وجهه وتجهم، ولمعــت عيناه العسليتان من أشعة اللهب فكانت تشبهان عيني الذئب المشتاق للحيـــاة المنطلقة.

في أزمير– الخط التاسع والعشرون

هدير المحرك، "هدير المحرك في الكوخ" في ضوء المصباح الضئيل في الظل على الجدار، في يدي اللتين ترتجفان على الطاولة. لا أتمكن من النظر إلى شعلة المصباح النفطي، الشعلة المتوهجة، حمراء كالدم، حمراء مرعبة، وقد لاحظ إسماعيل ذلك. لقد لاحظ إسماعيل منذ زمان بعيد إنني لا أستطيع رؤية النار. وكان دوماً يطرح نفس السؤال، وإن كان لا يصدق ما أقوله.

– كيف حالك؟

أصمتُ. لا أستطيع أن أقول له "حالتي حسنة".

– هل يؤلمك رأسك كثيراً؟

لم أحر جواباً.

– هل يضايقك هذا النور؟

لقد ثرثر كل ما عنده. وكيف تمكن أن يسألني هذا السؤال اللئيم.

أدرت وجهي نحو النور، نحو الشعلة، رمقني إسماعيل بنظره كالصياد.

أحدّق في الشعلة، حدقتا عيني تؤلمانني كأن إبراً تخزهما وأحدق في الشعلة والوجع فظيع. وأحدق في الشعلة، وأتابع التحديق وإنني أصبت بالعمى، ظلام تام. ولا يستطيع إسماعيل أن يراني أعمى فإذا لم أستطع الصبر– سأستدير. "انهض". نهضت دون أن أتمسك بالطاولة. ظلام، وعيناي تحرقانني، إنني في ظلمة حالكة، لكن ضوءاً يشع في رأسي، خطوت. فصاح إسماعيل:

– اجلس.

شعر أحمد في الحال، ويده تتلمس الطاولة ثم جلس.

– افتح عينيك يا عزيزي.

وأحس أحمد أنه يغمض عينيه، ولم يكن يلاحظ ذلك ففتحهما. كان المصباح البترولي خلفه. يعني أن إسماعيل قد نقله من موضعه ونهض إسماعيل. ولعمري لم أره هكذا. لقد تملكه الرعب. الرعب الظاهر.

أراد أحمد أن يصرخ: " لا تخف، يا إسماعيل" لكنه لم يصرخ ولم يطلق صوتاً، وأدخل يده في جيب (جاكيته)، أي أن المسدس كان في جيب بنطلونه فوضعه في جيب (جاكيته)، إذ يسهل عليه قبضه واستعماله. إذاً، يجب هذه الليلة ابتلاع حبوب للنوم، وهذا كل شيء.

– كيف تشعر؟

– أشعر حسناً يا إسماعيل، لقد ألّمت بي دوخة. وعلى أية حال مرت. والآن جيد لكني أشعر بالحاجة للنوم.

ثم نظر إلي بدهشة، وسألته:

– وأنت ألا تشعر بالحاجة للنوم؟

– كلا.

– فماذا تريد أن تعمل؟

سأقرأ جريدة.

أدار أحمد ظهره للمصباح وتغطى، لقد نام. "أغمضت عيني". فتحتها. وإسماعيل يجلس إلى الطاولة يفتعل أنه يقرأ الجريدة، لكنه في الحقيقة يراقبني بعينيه، استدرت إلى الحائط، وهكذا اضطجعت طويلاً. ثم استدرت إلى الجهة اليمنى. بدل إسماعيل مكانه وراء الطاولة ليراقبني، وعيناه تحدقان بي. وأنا أراقبه من السرير. ولم يعد المصباح يضايق عيني. لكنني أحس تجاه إسماعيل بشعور غريب وبغيض، ولم أفصح له عن ذلك. بل على العكس فكنت أغمض عيني وأفتحهما. وإسماعيل يراقبني. وأتلمس علبة الأدوية للنوم التي وضعتها تحت المخدة، هل يريد هذا الرجل أن يبقى جالساً حتى الفجر؟ فلا أستطيع أن أبلع الحبوب أمامه، آه يا للشيطان، وهل أنا مضطر أن أفعل ذلك هذه الليلة... ضروري... انظر في المصباح. لا تحرق عيني سأفعل هذه الليلة. إسماعيل جالس خلف الطاولة، أما أنا، أنا أرغب ألا ينهض، وأرغب ألا يشيح عينيه عني حتى الصباح.

في إدارة بوليس إستانبول

أخرجوا إسماعيل من المهجع لينام في الممر قرب المرحاض، على السرير الحديدي للسباحة، بدون غطاء ولا فرشة، فكم شهر مر عليه في الداخل؟ وهنا أيضاً يرسم خطوطاً على الجدار. وليس هنا من يجلس على المقاعد. فمنهم من وضعوهم في المهاجع الأرضية. ولم يطلبوا إسماعيل للاستجواب منذ ذلك اليوم الذي جلبوه وكريم وجلدوهما. وهل لا يزالون يلقون القبض على الناس؟ لا يعرف لكن لو كان ذلك لرآه. لأنه ومن ثلاثة أيام ينام في الممر على السرير السباحي.

وآكوب أيضاً نقلوه إلى المهجع الأرضي.

قبل يومين طلب إسماعيل من ناريمان طعاماً ناشفاً. في المهجع القريب جداً من السرير كان أحد المساجين من؟ لا يعرف- من يقرصه الجوع؟ وفي الليل، بعيداً عن أنظارالبوليس، يقذف إسماعيل بالجبنة والخبز واللحمة وغيرها من الأطعمة الناشفة "له" من تحت الباب.

وبعد أسبوع منذ أن وضعوه في الممر، وذات مساء، أيقظوا إسماعيل. المدير، الوكيل، ذو النظارات وشرطي باللباس المدني.

– إلى الأمام.

عبروا الممر إلى اليسار، فتح الوكيل ذو النظارات أحد الأبواب، فرأى إسماعيل ضياءه، في غرفة فارغة قرب نافذة بدون بلور ومسيجة. في الخارج ينهمر المطر، ويقف ضياء عارياً تماماً ما عدا السروال الداخلي، ويداه مربوطتان إلى ظهره، والقيود حتى رجليه، ويده ربطت بحبل في الشباك المطل على الحديقة، وقد ضمر بطن ضياء، ضمر بطنه، وهبط، وعضلاته كلها متأثرة بقوة معينة، وقد تدلت إلى الأسفل، وكأنها ستسقط، ووقف ضياء على رؤوس أصابع قدميه العاريتين، وإذا ارتخى أو شد قليلاً يرتفع بالحبل إلى الأعلى، وتدلى رأسه إلى كتفيه وعيناه شاخصتان على وسعيهما، ويضربه المطر في ظهره.

سأل المدير إسماعيل:

– هل تعرفه؟

– لا أعرفه.

– ألم يعطك الآلة الكاتبة والأوراق؟

– لم يعطني أحد شيئاً.

اقترب المدير من ضياء وأشار إلى إسماعيل:

– هل تعرفه؟

– لا أعرف هذا الرجل.

صوت ضياء، هو نفسه عميق وناعم.

-أنت أعطيته الأوراق...

وقاطع ضياء كلام المدير:

– أنا لم أعط أحداً شيئاً من هذا.

لم يسب المدير، لكنه هز رأسه، وذهبوا.

وعاد إسماعيل إلى سريره " لقد حطم هؤلاء اللصوص ضياء". أحس بآلام متناهية، ولأول مرة منذ أن رُمي هنا، أحس أنه بحاجة إلى البكاء، " لقد حطموا ضياء كما حصل مع بركليجي مصطفى[1] الذي حطموه من على جمل السلطان مراد". وهذا ما كان قد سمعه من ضياء " اللصوص" لقد فكروا فوراً بتصفيته، " ولماذا لم يفعلوا ذلك الذي فعلوه مع كريم وضياء؟ والمدير قال بأنه يعلم بأنني أخذت الآلة والأوراق من ضياء وأعطيتها لكريم، وممن علموا ذلك؟ فعند كريم لم يجدوا آلة كاتبة وأوراقاً، ولذلك عذبوا هذا الشاب" ولا يعرف إسماعيل حتى الآن، بأن كريماً قد جن، وقد حطموا ضياء لأنه كان واحداً من المسؤولين، ولأنه يفترض به أن يعرف لمن أعطى كريم الآلة والأوراق، الآلة والأوراق، أوراق رقيقة للكتابة وآلة كاتبة، وإن الحرف "د" لا يطبع جيداً.

---

[1] - بركليجي مصطفى: أحد أعضاء مجلس بدر الدين سماوي /١٣٦٣-١٤٣٠/ وقائد الثورة الفلاحية الشهيرة في تركيا.

إشارة الجمع

ينظر أحمد في كأس الماء الذي يمسكه بيده، يشرب منه جرعة فجرعة، تـــرك الكأس، وذهب ليغسل وجهه وفتح صنبور الوعاء الذي يستعمله للغسيل، كان ضياء قد صنعه، ثم أغلق الصنبور، عندما غسل وجهه البارحة/ أحس بصفير الماء الفظيع، فلم يشرب بالأمس ولا جرعة، أما هذا الصباح فقد غسل وجهه مجبراً، وأيضاً، فقد شرب ماء، وقاس درجة حرارته: ٣٨°٨ لا يؤلمه شيء ولا رأســـه، وليس منهكاً، ورسم خطاً على الباب٣٢، أمسك طبشورة، ورسم خطوطاً أفقية في نهاية الاثنين والثلاثين، من أعلى إلى أسفل، وأمعن النظر، ثم رسم متقاطعات، خلال الاثنين والثلاثين خطاً، فقد ملأت المتقاطعات الزوايا الأربع للباب، فابتسم وأصغى لهدير المحرك وهو ينتظر إسماعيل.

في إستانبول – محطة أمينيني للترام

في إستانبول ينهمر مطر ربيعي، في هذا الفصل، المطر يكون ناعماً وخفيفـــاً، وناريمان تقف في محطة ترام في ساحة أمينيني، فتحت مظلتها. "وبطنها لحلقهـــا". الترام يمر دوماً، وكذلك الترام الذاهب إلى أقصاراي، الذي تنتظـــره ناريمـــان، لكن، كأن ناريمان ليست هنا. تبتسم، ثم تحدث نفسها شيئاً. ومرت الحافلة إلى أقصاراي أمام أنفها. "غداً سأرى إسماعيل". "غداً سترينه" فقد قالوا هذا. "وغداً سأصطحب أمينة". المطر الربيعي ينهمر فوق قبة جامع ييني، ومئذنتـــه وقببـــه الذهبية، وعلى الطرقات وجسر غالاتا.

في مثل هذا اليوم الماطر، كان أحمد وكريم يبيعان جريدة "المطرقة والمنجـــل" لكن المطر كان أخف بعد، وقد خجل أحمد في البداية أن يبيع...

لقد خفق قلب ناريمان. أما أخت كريم، فقد قالوا لها أنهم نقلوا كريمـــاً إلى مستشفى نفسي. فسقطت المرأة المسكينة مغمياً عليها. هناك أمـــام البـــاب ذي الهلالين. وكان في يدها، أيضاً أربع وردات حمراء.

المطر الربيعي ينهمر فوق سوق باليك، في ساحة أمينيني، في الساحة، ومحطة القطار، والسقوف والأسطحة وعلى مظلة ناريمان.

الحافلة إلى أقصاراي تمر بلا انقطاع. وبالحال أحست ناريمان ألمـــاً وعضّـــت أسنانها على شفتيها كي لا تسقط، وكأن سكاكين تقطع في بطنها وأحشـــائها. "وغداً سأرى إسماعيل" والأوجاع تتواصل الواحد تلو الآخر. أوقفـــت ســـيارة أجرة، كانت محظوظة لأنه في مثل هذا المطر من الصعب أن تجد سيارة فارغة.

وبعد ثلاث ساعات، في أقصاراي، وفي غرفة النوم وبمساعدة جارتها القابلة ولدت ناريمان لإسماعيل طفلة، وأبلغ الجيران عثمان تليفونياً ودعوه للحضـــور. عثمان ماسكاً بيد أمينة يتمشى أمام غرفة النوم، وقد عضت ناريمان على شفتيها: أن يكون أخوها عثمان قد سمعها عندما كانت في المخاض، ولـــيس الأخ بـــل الجميع، فقد مزقت الشرشف، وولدت لإسماعيل طفلة.

وينهمر المطر الربيعي على إستانبول، وعلى بيت أمينة، وعلى البيت الخشبي، ذي السور الخشبي، بلا انقطاع.

في القطار

فيما دخل إسماعيل، أخذ أحمد يريه الباب:

– انظر.

نظر إسماعيل. لقد فهم. وتعانقا.

– يا إسماعيل، أنا لم أقم ليلة الواحد، الواحد والأربعين...

– حسناً فعلت. فماذا...– ولم يتمم الجملة.

– أذهب لأشتري عرقاً بلدياً، يا عزيزي.

– فغداً سأذهب إلى باليكيسير، يا إسماعيل، لعند ضياء.

– أنت تعرف أفضل مني، لكن...

– لا أتمكن من أن أذهب إلى إستانبول بعد، سأذهب لأرى ضياء قليلاً..

تناقشنا حول طريقة نستفيد بها من الحفرة. وليس من ضرورة أن نحمل الآن الحفرة معنا إلى الاجتماع. ومن بين جميع المسؤولين ضياء وحده غير المسجون.

فتل أحمد شاربيه ومسحهما بشفته السفلى وتلمظ ثم بشفته العليا فتبدل لون شفتيه. ثم فرك حاجبه الأيسر، فبدا وكأنه محروق.

– هل تغيرت.

– ليس قليلاً.

هات لأنظر هويتك الشخصية..

إن الصورة تشبه أي إنسان آخر عدا إسماعيل.

كانت على رأسي قبعة كالتي يلبسها البحارة الأمريكيون، وجربها إسماعيل، رفع شعره من تحت القبعة وأسبلها على جبهته.

– أنت الآن شخص آخر، يا عزيزي.

في اليوم التالي نهض الاثنان باكراً. تعانقا. ولم يذهب إسماعيل للعمل.

– لا نستطيع أن نترك الباب مفتوحاً. لكن لمن سنعطي المفتاح؟

وعندما قفز أحمد إلى عربة القطار من الدرجة الثالثة، لاحظ أحد الأشخاص، يقف على الرصيف. ومن وجهه يُلاحَظ بأنه يراقب أولئك الذين يصعدون إلى القطار. "يبدو لي أنني أعرف هذا النموذج أو أنه يشبه أحد النماذج، الذي كان يقف قرب الباب في هيئة تحرير "إيدين ليك" ويراقب من يدخل ومن يخرج. لكن كلا. وأقع مرة أخرى في المصائب للشيطان..

تحرك القطار. وضع أحمد رأسه على الشباك.

وضعت آنوشكا رأسها على شباك القاطرة، عائدين إلى موسكو، أمسكها بيدها. الغابات لا زالت تغمرنا، لا نتحدث، تمسك يدي بقوة وكأنني أريد أن أتركها في القطار وأنزل. وأنا أثرثر:

"أصغ إلى حنين الناي الحزين

بسبب هذا الفراق الأليم"

– أنت دوماً تردد أيضاً قصيدة هذا الرجل الخرافي؟

– وكيف تذكرت؟

– من الملحق أعدها مرة أخرى، وبالأول بالتركية، ثم بالروسية لكن بأذني. ورددت.

– محزنة جداً. وهل هذا الناي لا يمكن أن يوجد في القفقاز أو في وسط آسيا؟

– أعتقد بأنه يوجد ولكن ماذا تريدين منه؟

– سأحاول أن أجد واحداً، ولا أعرف العزف. لكن سأعلقه في جدار غرفتي.

دخل الرجل الذي شاهدته على الرصيف عندما صعدت إلى القطار، إلى غرفتي. وجلس قبالي إنه يشبه جداً ذاك النموذج. يا للشيطان حاول بالقوة أن ينظر إلي (..لأمه ..) إن كان يلاحقني فإنه لن يحبسني فوراً. سيحاول معرفة بمن سأرتبط وهل من الضروري أن أذهب إلى ضياء أم لا؟ فإذا ذهبت وأكون سبباً

في أن... وخرج الشكل النموذج. اقتربنا إلى محطة ما. أبطأ القطار سيره. يعـني أن هذا الرجل ليس هو ذاك. فسينــزل هنا.

نظرت عبر النافذة هل نــزل أم لا.. لم أرَ.. فمن نــزل من الجهة الأخرى لم أستطع أن أراه البتة.

وتحرك القطار..

لا زالت آنوشكا تمسك بيدي، وشجر الحور الرومي يمـر أمـام نـاظري باستمرار. إن الروس يعبدون الحور الرومي، وأي شجر نحن نحب؟ الحـور؟ أم السرو؟ وأنا أي شجر أحب؟ الطلع؟ فهو شجر، بالطبع، محزن جـداً. أنـا... آنوشكا... آنوشكا، لقد ظننت أنني أحدث نفسي وقالت بصوت عال:

– ماذا يا أحمدوشكا؟

– لم أحب امرأة كما أحببتك، ولن أحب...

– سنة– سنتان وتعود إلى وطنك، يا أحمدوشكا. ولابد أن تتذكرني في يـوم من الأيام. وبالطبع ستتذكر. ومن ثم... لكن الأمر ليس هنا. بل إنه بقي أمامنا سنة أو سنتان. ولنفكر بهاتين السنتين...

لقد تحرك كل شيء فيّ. ولكن كيف لو قلت أنني سأذهب خلال أسبوع أو عشرة أيام، أعرف أنني لن أقول، ربما أفعل ذلك في آخر ليلة..

وهكذا، فستفهم آنوشكا بعد يوم من ذهابي. وماذا سيكون لو قلت لها قبل يوم من ذهابي؟ لا يمكن أن أتصور الطريقة التي سأقول بها لآنوشـكا. وهـات لنفكر بشيء آخر. وقعت عيني على جريدة كانت آنوشكا قـد وضـعتها في العلبة. قرأت العنوان: "اغتيال في رومانيا". "السنة الخامسة للكومينتيرن".

لاحظت في ممر القاطرة ذلك الرجل الذي كان قبل قليل. بالضبط، نظر إلى قبعتي وانسحب. على أية حال، فقد لاحظوني حينمـا صـعدت إلى القطـار. ويلاحقونني على الخطوة. كيف يمكن أن أنـزل في المحطة التالية مـن دون أن يلاحظوني؟ يجب أن أتخلى عن اللقاء بضياء. حسناً، لكن أين بعدها سـأذهب؟ فالبطاقة معي إلى باليكسيرا.

نقترب من موسكو.

– كريم وماروسيا سينتظراننا في المحطة أليس كذلك؟ – سألت آنوشكا.

– هكذا قالا.

– كريم إنسان رائع. لاحظ أنه بقدر ما يكون في حزبكم أناس طيبون، إنسانيون، فستعملون أفضل.

ورفعت ناظري، مرة أخرى، على الجريدة في العلبة وقرأت نفس العنوان: "اغتيال في رومانيا". "السنة الخامسة للكومنتيرن"...

ندخل في مدخل موسكو. يد آنوشكا بيدي.

ندخل في نفق في تل صغير. الرجل يقف أمامي. يغط في النوم. هل ينام حقاً أم يمثل؟

ضيوفي

عندي ضيوف: آنوشكا، إسماعيل، أحمد، ناريمان، ماروسيا، ضياء، سي- يا- و...

أما كريم فغير موجود، لقد مات.. ليس في المستشفى النفسي، لقد بقي فترة فيه وخرج. فقد مات بالسل في أيار سنة /١٩٥٠/.

إن ضيوفي لم يشيخوا، فهم من نفس الجيل، وكما رأيتهم آخر مرة بعد هذه السنوات العديدة. سي- يا- و لم يزل هائماً بآنوشكا. وأحمد يغار عليها من سي- يا- و.

رجاني ضياء:

- اقرأ لنا قصيدة ما.

وقرأت:

" أنا شيوعي،

أنا الحب من رأسي حتى أخمص قدمي.

والحب: هو أن ترى، تفكر، تفهم.

الحب: هو الطفل الذي يولد، والفجر الذي ينبلج.

الحب: هو الأرجوحة المعلقة بين النجوم،

الحب: يزرع الحديد في الدم والعرق،

أنا شيوعي.

أنا الحب من رأسي حتى أخمص قدمي..."

ترجمت القصيدة إلى الروسية، لآنوشكا وماروسيا.

أشعل إسماعيل سيجارته من سيجارتي.

حسناً كتبت، حسناً- قال ثم وقف، فتح النافذة، ودخلت الشمس إلى الغرفة.

يد أحمد في كف آنوشكا السمينة، ذات الأصابع الطويلة.

وناريمان تردد بأعلى صوتها كلمات زوجها:

- العيش شيء رائع، يا عزيزي.!..

إن ضيوفي لم يشيخوا بعد، فهم من نفس الجيل، كما رأيتهم آخر مرة، بعد هذه السنوات العديدة، وأنا في الستين، وليتني أعيش خمس سنوات بعد....

انتهت ترجمة الرواية

*نـــزيه الشوفي

* السويداء / أيار/ ١٩٧٧

– هل تعلمين، يا عزيزتي– إنهم يلاحقوننا بمجرد أن نخرج من هنا. ليروا أين نذهب، ومع من نتحدث. لذلك فقد هرب كريم منك، فهناك شخص قميء يتبعني على الخطى. فبالأمس جلبت الطعام إلى هنا، وخرجت مبكرة فتبعني هذا القميء. فدخلت إلى الحمام استحممت حتى المساء وخرجت، كان الثلج يهطل، وكان هذا الحيوان يرتجف. ومن ثم هل يوصلون لهم كل ما نجلبه إليهم؟ أم إنهم يأكلونه لوحدهم؟



دار الحقائق

للطباعة والنشر و المعـ

حمص - بناء نقابة المعلّمين - مقابـ

هاتف : ٢٤٧٨٩٣٧ naseej.com